أعمدة الحكمة السبعة

مذكرات

لـــورانس العـــرب

■ ■

أعمدة الحكمة السبعة

مذكرات لورانس العرب

إعداد وتقديم:

د. الحسينى الحسينى معدى

الإشراف العام

وائل سمير

الناشـــــر

دار الخلــود للتراث

42 سوق الكتاب الجديد ـ العتبة ـ القاهرة

تليفون: 0181607185 ـ 25919726 فاكس: 25102954

E-mail: dar_alkholoud@yahoo.com

الإخراج والتنفيذ الفنى

رواق

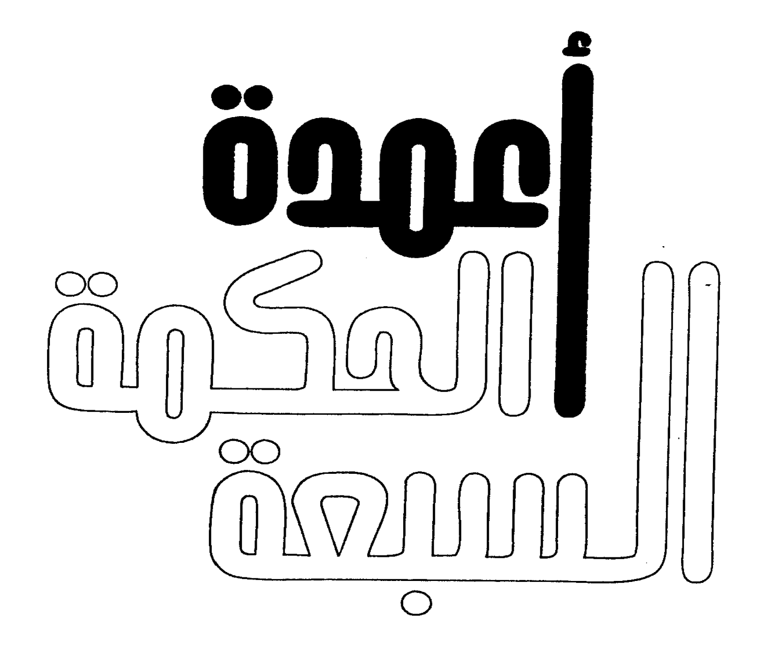
rowaq

33036809

رقم الإيداع: 2311 / 2010

الترقيم الدولى: 4-26-6177-977

مذكرات
لــــورانس العـــرب



إعداد وتقديم
د. الحسينى الحسينى معدى

الخلود للتراث
للنشر والتوزيع



إلى س. أ.

لأنى أحببتك فقد جذبت بيدى تلك الشموع من الناس؛ مدونًا على وجه السماء إرادتى بمداد من النجوم. حتى أستحصل لك على الحرية. البيت الذى يليق بك. بيت الأعمدة السبعة. آملا أن تشع عيناك من أجلى عندما آتى.

وفى طريقى إليك تبدى لى الموت خادمًا إلى أن دنوت ورأيت من تنظرين. وابتسمت حين سبقنى إليك. تدفعه بذلك غيرته الحزينة. وأخذك ليلقى بك فى سكينة.

لقد وجد الحب سبيله مرهقًا حتى وصل إلى جسدك حين سبقت أكف الأرض اللينة الممتدة لتتلمس شكلك. وقبل أن تنمو ديدان الأرض العمياء وتتغذى من جوهر جسدك.

لقد حطمت ذلك البيت الذى رجانى الناس أن أقيمه من عملنا ليخلد ذكراك. وذلك قبل أن أنجزه.. والآن تزحف الكائنات الحقيرة لتشيد فى الظلام خرائب الأطلال التى وهبتك إياها...

لورانس



يعتبر لورانس العرب من أشهر شخصيات الربع الأول من القرن العشرين؛ فاسمه اقترن فى كتب التاريخ بثورة الشريف حسين - أمير الحجاز - ضد الحكم التركى عام ١٩١٦م وهناك العديد من الكتب فى أكثر من لغة تناولت سيرة حياته وأظهرته بطلاً من أبطال الإمبراطورية البريطانية نتيجة للدور المهم الذى لعبه إبّان الحرب العالمية الأولى، كونه ضابط ارتباط بين القيادة العسكرية البريطانية والثورة العربية الكبرى ضد الأتراك، وقد تحوّلت قصته لفيلم سينمائى معروف ظهر فيه باللباس العربى على الخيل والجمال زعيمًا لقبائل البدو وملكًا غير متوج للعرب.

من هو لورانس العرب؟

ولد توماس إدوارد لورنس عام ١٨٨٨م فى إنجلترا وتوفى عام ١٩٣٥م، تزوج والده من إيرلندية أنجبت له ٤ بنات ولكنه هجرها ليعيش مع مربية بناته دون زواج وأنجب منها ٥ ذكور كان لورانس الثانى من بينهم.

عاش لورانس متفوقًا فى دراسته ينال المِنح المدرسية والجامعية، وكان منذ صغره قوى البنية نشيطًا ذكيًا يتميّز بقوّة الذاكرة وحبّ المغامرة والصبر على المتاعب. تخصّص فى علم الآثار فى جامعة أكسفورد الأمر الذى دفعه للاهتمام باللغات، فتخرّج وهو يجيد الفرنسية واللاتينية واليونانية، وأثناء تحضيره رسالته العلمية التى كان موضوعها (الفن المعمارى الحربى عند الصليبيين فى الشرق) قام بزيارة القلاع التى بناها الصليبيون، وتلقّى شيئًا من اللغة العربية قبل سفره، وزار سوريا وبيروت وغيرها، قطع خلالها

مسافات شاسعة وحده مشيًا على الأقدام على طرق أكثرها غير معبّد وبرارى غير مأمونة يبيت عند الفلاحين والبدو فى خيامهم يُشاركهم المأكل والمشرب وشظف العيش ما ساعده على إجادة اللغة العربية.

وعند اندلاع الحرب العالمية الأولى راحت كل من الدول الكبرى: فرنسا، وبريطانيا، وروسيا، وألمانيا تسعى لتحقيق مصالحها الخاصة، منها: توسيع رقعة نفوذها والسيطرة على الأماكن الاستراتيجية وعلى منابع النفط... لذلك أخذت بريطانيا ترسل عملاءها إلى المنطقة؛ فاستدعت القيادة الإنكليزية أصحاب الخبرة فى البلاد العربية ومنهم لورانس الذى التحق بسلك المخابرات العسكرية، وعندما دخلت تركيا الحرب فى أواخر عام ١٩١٣ عُيّن لورانس فى القاهرة مشرفًا على شبكة للتجسس كان هو يختار أعضاءها بنفسه، ومن مُهماته تهيئة الخرائط العسكرية وضبط وتنظيم المعلومات الواردة التى تُؤخذ من الأسرى والفارين من الجيش العثمانى وتنسيقها مع المعلومات الواردة من الجواسيس. وكى يقوم بوظيفته تلك على أكمل وجه تمّ إعداده، نُظِّمت مطالعاته لا سيما فيما يتعلّق بالتاريخ الحربى حتى يقال إنّه قرأ كل ما له علاقة بالفروسية وبالقرون الوسطى، وقرأ نحو ٢٥ مجلّدًا خاصًا بنابليون، وبعد ذلك قرأ معظم كتب الحرب العائدة إلى القرن الثامن عشر. ولم يقم لورانس بشحذ ذهنه فحسب بل قام بتدريب جسده على تحمّل المشاق؛ ويروى أحد أصدقائه أنّه كان يختبر طاقاته على التحمّل بالانقطاع عن الطعام لمدّة يومين أو ثلاثة أيام وبالسير مسافات طويلة فى الصحراء إبّان فصل الشتاء وبالتغلب سباحة أو تسلقًا على أى حاجز مائى أو جبلى يعترض سبيله، وبقضاء أمسيات طويلة وحيدًا فى حقل الرماية يتدرّب على إطلاق النار حتى أضحت يساره تُضاهى يمينه فى استعمال الأسلحة النارية، وبقطع المسافات الطويلة راكبًا دراجته دون توقف إلى أن يقع تحت وطأة الإعياء على حافة الطريق.

«فلورانس هذا قاد الأعراب حتى حاز دمشق وظل ينهك الجيش العثمانى، وقد أدى وحده - وفى سبيل قضيه باطلة - ما يؤديه جيش كبير، حتى إنّه خدع نفرًا من الضباط العرب فى الجيش العثمانى فكانوا معه فى مسيرته تلك من الحجاز إلى حلب».

والقاعدة تقول: إنّ من يزرع لا بدّ أن يحصد، فإذا نظرنا إلى واقعنا اليوم نجد أن العالم الإسلامي يتخبط في دوامة يبدو أنّها لن تنتهي من المسرحيات المذلّة والمنهكة للعقل العربي والمستنزفة للطاقات العربية كافة، وهذا نتيجة تقاعس أبنائه وابتعادهم عن النهج القرآني.

إنّ أوّل وأهم ما يسترعي الانتباه أنّ لورانس لم يكن يهمه من أمر العرب شيئًا، فهو لم يكرّس نفسه لإنشاء دولة عربية موحدة كما يُشاع لأنّه كان يُقدّم مصلحة بلاده على أي شيء آخر، ومصلحة بريطانيا تقضي بإبقاء الشرق الأوسط منقسمًا على ذاته، يقول لورانس في أحد تقاريره: «لو تمكنا من تحريض العرب على انتزاع حقوقهم من تركيا فجاءة وبالعنف لقضينا على خطر الإسلام إلى الأبد ودفعنا المسلمين إلى إعلان الحرب على أنفسهم-فنمزقهم من داخلهم وفي عقر دارهم، وسيقوم نتيجة لذلك خليفة للمسلمين في تركيا وآخر في العالم العربي ليخوضا حربًا دينية داخلية فيما بينهما، ولن يخيفنا الإسلام بعد هذا أبدًا».

أما تعهده للعرب بمنحهم الحرية فكانت الطريقة المثلى لجعلهم يشتركون في الحرب، يقول: «كان على أن أترك في المؤامرة... وقد جازفت بالاحتيال اعتقادًا مني بأن العون العربي ضروري للوصول إلى نصر سريع وقليل التكاليف في الشرق... الربح مع الإخلال بالعهد أفضل من الخسارة».

لذلك كانت العقبة الأساسية التي كانت تواجه بريطانيا وحلفاءها هي الإسلام؛ ولذلك سعوا للقضاء عليه عن طريق هدم الخلافة الإسلامية، والدليل تقرير سري كتبه لورانس عام ١٩١٦ بعنوان «سياسة مكة» أوضح فيه رأيه في ثورة العرب: «إن نشاط الحسين مفيد لنا، إذ إنه ينسجم مع أهدافنا الكبيرة، وهي تفكيك الرابطة الإسلامية وهزيمة الإمبراطورية العثمانية وانحلالها، لأن الدول التي ستنشأ لتخلف الأتراك لن تشكل أي خطر على مصالحنا... فإذا تمكنا من التحكم بهم بصورة صحيحة فإنهم سيبقون منقسمين سياسيًا إلى دويلات تحصد بعضها البعض ولا يمكن أن تتحد».

لذلك كان هم لورنس فى ذلك الوقت التأثير على زعماء العرب وكسب ود العشائر والقبائل لدفعهم للقيام بالثورة ولو من خلال لبس لباسهم وسلك سلوكهم، كى يتمكّن من أن يتحكم بهم تحكم الاستعماريين بالشعوب. يقول فى كتيب «البنود ٢٧» الذى أعدّه لتعليم الضباط على طرق التحكم بالعرب: «إذا أمكنك لبس لِباس العرب عندما تكون بين رجال القبائل فإنّك تكسب بذلك ثقتهم».

وللوارنس تصريحات عديدة حول فلسطين، ففى إحدى المرات طُلب إليه إنكار ما جاء فى رسالة فيها شتم وتحقير إلى (د. ماك أنيس) كاهن الإبراشية الإنكليكانية فى القدس، لاعتراض الأخير على فكرة إقامة وطن قومى لليهود فى فلسطين، فرفض لورانس ذلك وعاود الكتابة إلى الكاهن يلومه على احتجاجه: «كان من الأفضل لك أن تفعل شيئًا آخر غير الاحتجاج لكنك غير صالح حتى لتنظيف حذاء وايزمان».

لذلك لم يُخفِ لورانس تأييده لوعد بلفور، فبعد زيارته لفلسطين رأى أنه «كلما سارع اليهود فى الاستيلاء على فلسطين وزراعة أراضيها كان ذلك أفضل». وهذا الرأى عمل لورانس فيما بعد على وضعه موضع التنفيذ(١).

والسؤال الذى يُطرح هنا: أليس التاريخ يعيد نفسه مرة أخرى؟

فشعار التحرير والتحديث والتمدين الذى ترفعه أمريكا وبريطانيا اليوم هو نفسه الشعار الذى رُفِع فى الحرب العالمية الأولى والذى يخفى وراءه أطماع ورغبات الغزاة التى تهدف إلى فرض قوانينها وأنظمتها وسلطتها على الشعوب الضعيفة وخوصًا الإسلامية وتجزئتها لتفتيت وحدتها ومن ثمّ افتراسها كما يفترس الذئب فريسته. فإذا اختلفت اليوم الأسماء والتواريخ وتبدلت الوجوه، فالأهداف والوسائل هى ذاتها لم تتغير.

---

(١) لمزيد من التوسع حول شخصية لورانس العرب، انظر:
١ - «لورانس الحقيقة والأكذوبة»: لصبحى العمرى.
٢ - «المخفى من حياة لورانس العرب»: لفيليب نايتلى وكولن سمبسون.
٣ - «لورانس ملك العرب غير المتوّج» لمايكل آش.
٤ - «الوقائع السريّة فى حياة لورنس العرب»، «المخفى من حياة لورانس العرب» لفيليب نايتلى وكولن سمبسون، وكتاب «لورانس على خُطى هرتزل» لزهدى الفاتح.

ومشكلة العرب اليوم أنهم يقرءون التاريخ وكأنه سرد للوقائع والحوادث دون أن ينتبهوا إلى كونه دروسًا توضح مسار السنن الربانية؛ فكلما انحرف المسلمون عن دينهم ومنهجهم الربانى كان نصيبهم الذلّ والهوان وتحكّم المستبدين والطغاة بهم؛ لذلك قال الشاعر قديمًا:

اقرأ التاريخ إذ فيه العِبر ... ضَلَّ قومٌ ليس يدرون الخبر

وفى منزل ريفى صغير تفرغ لورانس لكتابة مذكراته التى نشرها فى كتاب بعنوان: أعمدة الحكمة السبعة.. هذا الكتاب الذى أحدث أكبر ضجة أدبية وسياسية فى الغرب، وهو من أوسع المؤلفات انتشارًا فى العالم:

وأخيرًا.. مات لورانس بعد أن صدمته سيارة مسرعة.. مات لورانس.. ولكن القضية العربية لم تمت..

د. الحسينى الحسينى معدى

■ ■ ■

1
الاجتماع الأول مع العرب

■■

(1)

كانت الباخرة الحربية «لاما» بانتظارنا فى عرض البحر فى منطقة السويس فأقلعت بها على جناح السرعة. وكانت هذه الرحلة القصيرة على متن إحدى السفن الحربية ممتعة بالنسبة لنا. لكن هذه الرحلة كانت مزعجة بقدر ما كانت محرجة بالنسبة لبحارة السفينة وبخاصة الضباط الصغار الذين اضطروا لإخلاء غرفهم والتنازل عنها لضيوفهم المدنيين.

وعلى متن السفينة التقينا عزيز على المصرى الذى ترك الجيش التركى، وكان برتبة كولونيل، والتحق بالجيش العربى. وقد كان عزيز فى طريقه إلى مكة ليبحث مع الأمير فى مسألة تسليح الجيش النظامى، وقد تعرفنا إلى بعضنا وما لبث الضابط الشركسى المستعرب أن تحدث بلغة ألمانية طليقة.

وكان الجو هادئًا طيلة الرحلة إلى جدة. ولم يكن الطقس الجميل فى منطقة البحر الأحمر شديد الحرارة. وكنا نستظل بالظل أثناء النهار، وفى الليل نتمشى على ظهر السفينة تحت النجوم المتلألئة. وأخيرًا لاحت لنا جدة وشعرنا فجأة بأشعة الشمس اللاهبة كأنها سيف مسلط، وبينما كانت السفينة تتقدم لترسو فى الميناء، والرياح المتقطعة تحمل بين طياتها الحرارة وتقذف بها إلى السماء ظهرت فى شمال جدة مجموعة من البيوت البيضاء والسوداء تتحرك فى السراب كأنها المداخن فى صعودها وهبوطها، وكان كل شىء حولنا يبدو مخيفًا فى مظهره وبدأ يخالجنا الشعور بالألم من الطبيعة.

وبينما نحن على هذه الحال وصل اليخت الخاص بالكولونيل ولسن، ممثل بريطانيا لدى الدول العربية، حيث نقلنا إلى الشاطئ. ولم يمض على نزولنا إلى الشاطئ نصف ساعة حتى جاء روحى بك عبد الهادى وهو المستشار الشرقى وما إن رأى ستورز حتى عانقه بحرارة باعتباره رئيسه القديم، بينما كل ضباط البوليس السوريين المعينين مؤخرًا فى الخدمة حرس شرف لاستقباله والترحيب بعزيز المصرى وأداء التحية له.

وبعد استراحة وجيزة، علمنا أن عبد الله وهو النجل الثانى للشريف حسين قد غادر مكة فى طريقه إلينا، وكان عبد الله هو الشخص الذى يتوجب علينا الاجتماع به، لذلك اعتبر وصولنا توقيتًا ممتازًا.

بعد نزولنا من اليخت ذهبنا عن طريق السوق فى طريقنا إلى القنصلية. وعند وصولنا القنصلية رأينا ولسن يجلس فى حجرة مظلمة بالقرب من نافذة مفتوحة على وسعها ليلتقط نسمات البحر المنعشة، وقد كانت مقابلته لنا جامدة شأنه شأن كل جنتلمان إنجليزى، ولكنه مع ذلك قام بالمهمة التى كلف بها خير قيام، فقد أجرى الترتيبات اللازمة لمحادثاتنا مع عبدالله وأبدى كل رغبة فى التعاون معنا لإنجاز المهمة التى جئنا من أجلها.

وعند وصول عبدالله رأيناه يمتطى فرسًا أبيض اللون يواكبه العبيد المسلحون تسليحًا كاملاً، وكان يبدو مزهوًا بالنصر الذى أحرزه فى الطائف. وكانت هذه هى أول مرة أقابله فيها. أما ستورز فقد كان صديقًا حميمًا له تربطه إليه روابط ود قوية. وكنت أتفرس فى وجهه وهو يتحدث إلى ستورز فلمست فى خلقه مرحًا دائمًا. وكان يغمز بعينيه أثناء حديثه، وكان فى ذلك الحين لا يتجاوز ربيعه الخامس والثلاثين وكان سمينًا ضخم الجثة. وربما كان هذا بسبب خلقه المرح واكثاره من الضحك، فقد كانت الحياة بالنسبة له تبدو بهيجة دومًا. وقد لاحظت أنه قصير القامة قوى البنية بشرته بيضاء، تحلى وجهه لحية صغيرة شذبت بعناية مفرطة. أما طبيعته فكان يغلب عليها الصراحة وكان جذابًا ساحرًا فى كسب الأصدقاء.

وعند بدئنا بحث المواضيع الخطيرة، بان عليه الحذر وراح يتمهل فى حديثه ليختار كلماته بكل دقة وروية. فقد كان العرب يعتقدون بعبدالله رجل الدولة البعيد الأفق

بالإضافة إلى أنه سياسى داهية. وقد جعلته الإشاعات العديدة العقل المفكر لوالده الشريف حسين وللثورة العربية. ولكنه فى الحقيقة كان أقل مما صورته الإشاعات من حيث الرتبة والمركز.

وكنت خلال الحديث أقوم بدور المراقب الناقد، إذ إن ثورة الشريف حسين كانت أثناء الأشهر الماضية لم تحقق أى عمل فعال. وكانت شكوكى تنحصر فى أن الثورة لا ينقصها إلا الزعامة القوية ولا تنقصها المواهب أو الحنكة السياسية. وبكلمة موجزة كانت الثورة بحاجة إلى الحماس أو الشعلة اللاهبة التى تحرق الصحراء وتحولها إلى نار متأججة. وكان إيمانى القوى بأن عبد الله لا يصلح ليكون زعيمًا أو قائدًا لهذه الثورة وذلك لبرودته المفرطة ومزاحه الكثير ومنطقه القوى، وكنت أزداد إيمانًا بهذا الرأى كلما امتد بنا الحديث فى ذلك الاجتماع.

كان حديثنا مع عبد الله فى بدايته عن الأوضاع فى جدة والإدارات العامة فيها. وقد قال عبدالله فى ذلك إن الحرب ومشاكلها لا تترك لهم فى الوقت الحاضر الفرصة لمعالجة قضية الحكومة المدنية. فهم ورثوا عن الأتراك نظامهم فى تسيير الشئون فى المدن وهم لا يزالون يتبعون هذا النظام ولو أنه أصبح أكثر بساطة.

وقد لاحظت من مجرى الحديث أن الرأى العام فى مكة وجدة كان ضد الحكومة العربية. والسبب فى هذا يعود إلى أن الأغلبية فى تلك المدينتين هم من الهنود والإفريقيين والجاويين وبعض العناصر الأخرى، لذلك لم يكن فى إمكان عناصر كهذه أن تتفهم مشاكل العرب وآمالهم ولا سيما بالنسبة للقائمين عليها من رجال القبائل الذين يكنون لسكان المدينة الكراهية والحقد.

ومما يجدر بالذكر أن أبناء العشائر كانوا الوحيدين المحاربين فى جيش الشريف حسين، وكان عليهم وحدهم يتوقف مستقبل الثورة ومصيرها. وكان الشريف بدوره يدفع لهم رواتبهم ويقدم لهم الأسلحة ويرعى شئون عائلاتهم أثناء غياب الرجال، وكان يستأجر منهم الجمال ووسائل النقل لتزويد جيشه المتمركز فى مختلف الجبهات بالمؤن والاعتدة

الحربية. ونتيجة لهذا كله فقد عم الرخاء البادية فى الحجاز بينما كانت الحالة فى المدن على نقيض ذلك تمامًا.

ثم انتقل الحديث بعد ذلك إلى الوضع العسكرى، وهنا أدخلنى ستورز فى المناقشة كى أتمكن من اطلاع القيادة العامة فى مصر عليها. وفجأة لاحظت أن الجد قد ارتسم على وجه عبد الله وقال: «إن اهمالنا مسألة قطع سكة الحديد قد أتاح للأتراك فرصة زيادة قوة حاميتهم فى المدن وتزويدها بالأسلحة والمواد الغذائية، وهم الآن يعدون فرقة مجهزة بمختلف الأسلحة لغزو رابغ».

إن العرب المعتصمين فى التلال فى وضع متزايد من الضعف بسبب توقفنا عن تزويدهم بالسلاح وبخاصة بالمدافع الرشاشة. وقد التحق آل حرب بالأتراك وهم الآن على استعداد لمعاونتهم فى غزو رابغ. وإذا هم تمكنوا من احتلال رابغ واستأنفوا زحفهم نحو مكة فلن يبقى أمام الشريف حسين إلا أن يدافع حتى الموت ويستشهد فى سبيل الدفاع عن المدينة المقدسة... وفى هذه اللحظة رن جرس التليفون، وكان الشريف حسين يطلب نجله عبدالله الذى قدم له تقريرًا موجزًا عما توصل إليه حديثنا.

وعند انتهاء محادثته التليفونية مع والده، عاد عبدالله وعلى شفتيه ابتسامة خفيفة وقال إنه علينا أن نبذل جهدنا لمنع وقوع مثل هذه الكارثة، وأن نبدأ بتجهيز فرقة بريطانية مؤلفة من جنود مسلمين نأتى بها من السويس مع كل ما يلزمها من وسائل النقل. وأن تبقى هذه الفرقة على أهبة الاستعداد للتقدم إلى رابغ حال انطلاق العدو من المدينة إلى احتلال مكة المكرمة.

فرددت بقولى إن اقتراحه هذا تكتنفه الصعاب الكثيرة، إذ إن النقل البحرى فى هذا الوقت قد أصبح بالغ الأهمية ونحن لا يمكننا أن نبقى السفن الفارغة فى وقت غير محدود. هذا بالإضافة إلى أن جيشنا لا يضم أى جنود من المسلمين، لذلك فمن الأفضل الاعتماد على العرب فى هذا الصدد.

وكان عزيز المصرى يجهز المتطوعين السوريين والعراقيين ويؤلف منهم أفواجًا نظامية فى رابغ. وإذا نحن أضفنا إلى هؤلاء ما لدينا من أسرى الحرب العرب المعتقلين فى الهند

ومصر، فعندئذ سيتجهز لدينا من الجنود العدد الكافى للواء المنشود. ولكن عبدالله رفض اقتراحى هذا، عند ذلك قلت له إننى سأحمل رأيه السابق إلى القيادة العليا وأعرضه عليها فى مصر.

وتدخل ستوزرز حيث قال: «إنه لمن الضرورى أن أكوّن فكرة شاملة عن الأوضاع فى رابغ، ولا بد لى من السفر إلى هناك لتحقيق ذلك». عند ذلك هب عبدالله من مقعده واتجه إلى التليفون ليتصل بوالده وليستحصل لى على إذن للتجوال فى البلاد.

وبعد حوار طويل تدخل فيه ستورز نفسه وافق الشريف حسين على سفرى، وطلب من ابنه عبدالله أن يكتب إلى شقيقه على بهذا الخصوص وأن يرسل معى حراسًا أمناء يثق بهم شخصيًا. وبعد ذلك انتقلنا مع عبد الله إلى غرفة الطعام لنتناول الغداء.

●●●

(2)

حين انتهينا من تناول طعامنا كان الطقس قد أصبح أقل حرارة، فخرجنا من القنصلية لمشاهدة جدة والتجول فى أسواقها وأحيائها. وقد رافقنا أحد مساعدى ولسن فى هذه الجولة وقام بمهمة الدليل خير قيام. وفى الحقيقة أن مدينة جدة عجيبة للغاية، فشوارعها ضيقة أشبه بالأزقة أما سوقها الرئيسية فمسقوفة بالخشب، ومنازلها مؤلفة من أربعة أو خمسة طوابق مبنية من الحجارة المرجانية تزينها نوافذ خشبية ضخمة واسعة ترتفع من الأرض حتى السقف.

لقد بدت مدينة جدة بالنسبة لنا كمدينة ميتة، فهى هادئة هدوءًا عجيبًا، وقد كست الرمال الضحلة شوارعها بفعل الرياح الصحراوية وتراكمت طبقات فوقها بمرور الزمن حتى أصبحت بالنسبة للذى يسير عليها كأنه يسير على بساط من الصوف. وكانت الشبابيك المصنوعة من الخشب تخفى كل انعكاس للصوت ولم يكن هناك عربات تمشى فى الشوارع لأنها لا تتسع لمرورها، وكانت الأبواب تغلق بكل لطف وهدوء حين كنا نمر بها.

أما الناس القلائل الذين مررنا بهم، فكانوا نحيلى الأجساد كأنهم أصيبوا بمرض عضال تمكن منهم وأحالهم على هذه الصورة، فبشراتهم خالية من الشعور ومشوهة

بندبات عميقة. وبعد جولة قصيرة فى السوق عدنا إلى القنصلية ولم نجد سلعة واحدة نشتريها.

وعند المساء اتصل الشريف بنا وطلب التحدث إلى ستورز وسأله إذا كنا نريد الاستماع إلى جوقته الموسيقية التى استولى عليها من الحامية التركية فى الطائف، وقد وافق ستورز على هذه الفكرة. فلم يكن من الشريف إلا أن وضع سماعة التليفون على الطاولة لتنقل إلينا، ونحن فى جدة، الألحان التى كانت تعزفها الجوقة فى قصره فى مكة. وكنا نتبادل الإصغاء والاستماع الواحد تلو الآخر من سماعة الهاتف.

وفى اليوم التالى لوصولنا ذهب ستورز لزيارة عبدالله فى خيمته المضروبة قريبة من قبر «أمنا حواء» ثم قاما بجولة تفتيشية تفقدا فيها المستشفى والمعسكرات ومراكز الإدارات فى المدينة. وقد تحدثا فى أمور عديدة ولكننى لم أشارك فى أى منها وذلك لأنى قد أصبحت مقتنعًا تمام الاقتناع منذ حديثنا السابق بأن عبدالله لا يصلح لأن يكون قائدًا للثورة.

وفى المساء جاء عبدالله ليتناول طعام العشاء والكولونيل ولسن فى دار القنصلية حيث استقبلناه فى الباحة، ورأينا عبيده وخدمه يسيرون وراءه يتبعهم رجال هزيلو الأجساد، ملتحون، بانت الهموم على وجوههم بشكل يلفت النظر يرتدون لباسًا عسكريًا ممزقًا ويحملون الأبواق النحاسية والطبول. فأجلسناهم فى الباحة وقدم لهم ولسن لفائف التبغ ثم صعدنا إلى قاعة الطعام. وما إن جلسنا لتناول الطعام حتى بدأت الجوقة، تحت تهديد عبدالله، تعزف ألحانًا تركية مزعجة خالية من أى انسجام أو تناسق، تؤذى الأذن والقلب معًا، وراح عبدالله ينظر إلينا جزلاً وهو يقول: «هذه موسيقاى».

لقد كان مجلسنا فى هذه الليلة مجلسًا عجيبًا، يضم جمعًا غريبًا من الرجال. فعبدالله، وهو النائب السابق لرئيس مجلس المبعوثين التركى ووزير الخارجية الحالى للدولة العربية الثائرة. وولسن حاكم منطقة البحر الأحمر السودانية والوزير المفوض لحكومة جلالته لدى شريف مكة، وستورز السكرتير الشرقى فى القاهرة. والسيد على

فهمى وهو اللواء فى الجيش المصرى الذى جاء من قبل السردار يقود فوجًا عسكريًا لمعاونة الشريف فى بداية الثورة. كذلك كان هناك عزيز على المصرى رئيس أركان حرب جيش الشريف وهو منافس أنور باشا سابقًا فى القيادة العليا للسنوسيين فى الثورة ضد الطليان، وزعيم الضباط العرب الذين تآمروا على جمعية الاتحاد والترقى التركية.

انتهت الجوقة من عزف الألحان التركية، فطلبنا الاستماع إلى بعض الألحان الألمانية. وقام عزيز على المصرى ليطلب من الجوقة تنفيذ مطلبنا هذا، وفوجئنا بعد قليل بسماع النشيد الوطنى الألمانى «ألمانيا فوق الجميع» وكان ذلك عندما طلب الشريف من مكة الاستماع إلى الجوقة عن طريق التليفون...

وهكذا مضت السهرة بين ألحان الموسيقى الألمانية والتركية. وفى صبيحة اليوم التالى غادرت جدة متجهًا إلى رابغ.

●●●

(3)

فى ميناء رابغ كانت ترسو السفينة الهندية «نورث بروك» وعلى متنها الكولونيل باركر، وهو ضابط الاتصال بين حكومتنا والأمير على (وقد زودنى عبدالله بكتاب موجه له يطلب منه تدبير أمر سفرى على الفور إلى معسكر فيصل). وقد استغرب على من طريقة الرسالة الشديدة الحرص على تنفيذ الأوامر، ولكن لم يعارض ما جاء فيه بل نفذ كل مطالبى. والسبب فى ذلك أن أى اتصال تليغرافى بمكة سيتم عن طريق السفينة التى نملكها، لذلك فقد خجل من إرسال برقية تتضمن شئونا عائلية خاصة يطلع عليها الغرباء لذلك اكتفى بتنفيذ الأوامر المرسلة إليه على أكمل وجه، فقدم لى ناقته الخاصة وأسرجها بسرجه الخاص كما غطى السرج «شرشف» جميل وطلب من ولده أن يرافقنى مع جندى آخر يدعى (طفس الرشيد).

وقد قام على بكل هذه الخدمات الإضافية بتأييد من نورى السعيد، الضابط الركن العراقى، الذى تعرفت إليه مؤخرًا فى القاهرة، حيث كان يتعالج فى احد مستشفياتها.

وكان نورى السعيد الرجل الثانى بعد عزيز على المصرى فى قيادة الجيش العربى. وقد التقيت صديقًا آخر فى بلاط الشريف على وهو (فايز الغصين) أحد مشايخ القبائل فى حوران، والموظف السابق فى الحكومية التركية. وقد هرب من مركز عمله وسافر عن طريق أرمينيا إلى أن وصل بغداد حيث تصل بالآنسة «جرترودبل» التى أرسلته مع رسالة توصية حارة.

لقد أعجبت إعجابًا كثيرًا بعلى المربوع القامة، الواسع العينين، أنفه دقيق وشفتيه رقيقتان حزينتان ويداه ناعمتان لحد الإفراط. أما أخلاقه فكانت هادئة رزينة. وبالإضافة إلى ذلك فقد كان الأمير على مولعًا بالقراءة عالمًا بالدين والقانون، وكان مندفعًا إلى حد التعصب. لذلك فقد وجدت أن الثورة ستخطو خطوات كبيرة إلى الإمام تحت قيادته، إذا ما تبين لى عجز الأمير فيصل عن القيام بدور القائد. فعلى بنظرى كان أكثر أصالة فى عروبته من أخويه عبدالله وزيد.

جاء على وزيد ونورى السعيد وعزيز إلى بساتين النخيل. وكان زيد خجولاً هادئًا، مترددًا، فى ربيعه التاسع عشر. وقد لاحظت على الفور أنه غير متحمس للثورة. وقد علمت بعد ذلك أن والدته كانت تركية.

لم يأذن لى الأمير على بأن أبدأ سفرى قبل غروب الشمس، كى لا يرانى أحد من رجاله حين أغادر المعسكر، وطلب منى أن أبقى أمر سفرى سرًا حتى عن عبده. وقد زودنى بلباس عربى وعباءة وعقالا عربيًا كى أرتديه فوق ردائى الرسمى. وطلب من مرافقى على طفس أن نتزود بالطعام من «بئر الشيخ» التى تبعد ستين ميلا عن رابغ، وقد أمره بألا يجيب على أى سؤال أطرحه عليه أثناء سفرنا، كما أوصاه بألا نقترب من مضارب البدو والعشائر والقوى.

كانت مهمة آل حرب المتمركزين فى قطاع رابغ تنحصر فى تزويد على بأخبار تحركات الأتراك والتجسس على قواتهم العسكرية. وكان ولاؤهم معقودًا على (حسين مبيرق) زعيم تلك العشيرة. وكان هذا شديد الغيرة من شريف مكة وقد بلغت به الغيرة حدًا جعله

يتخلى عن مؤازرة القضية ويلجأ إلى التلال الشرقية. وإذا كان من سبب فى عطف أبناء عشيرته على الأتراك فهو لشدة ولائهم لرئيسهم هذا. ولو علم الشيخ بنبأ رحلتى لأمر أبناء عشيرته بإيقافى.

كان طفس ينتمى إلى عشيرة «الحازم» لذلك لم يكن على وفاق مع آل «حرب» وهذا ما جعله أهلاً للثقة بالنسبة لنا. والثقة فى الصحراء من الأمور الضرورية البالغة الأهمية. ومما يروى أن أحد ابناء عشيرة حرب كان قد وعد أحد الرجال الإنجليز ويدعى (هوبر) بمرافقته إلى المدينة المنورة. وأثناء السفر اكتشف الرجل أن هوبر هذا مسيحيًا فقتله ودفنه فى الصحراء، وعندما علمت عشيرته بما فعله الرجل غضبت منه ونبذته، على الرغم من أن القتيل كان مسيحيًا، وقضى الرجل المنبوذ بقية حياته وحيدًا فى التلال.

ابتدأنا رحلتنا واجتزنا بساتين النخيل التى كانت تبدو لنا كالعقد الذى يطوق بلدة رابغ، وتركناها لندخل فى ساحل تهامة حيث كانت النجوم تتألق فوق رؤوسنا وكانت هذه المنطقة الصحراوية فى الأرض العربية قاحلة خالية من أى شىء يسر العين. ولم يكن أمامنا غيرها للسير، لأن اجتياز الطريق من ناحية الشمال أو الجنوب أمر صعب للغاية.

كان الهواء منعشًا بعد المحادثات الطويلة التى أجريتها فى رابغ، وكان مرافقى طفس يقود الجمال على الرمال الناعمة المنبسطة صامتًا لا يتكلم بأى كلمة. وكانت أفكارى تجول فى هذه الطريق التى نسير عليها، فهى طريق الحجاج الآتين من الشمال طوال أجيال عديدة لزيارة المدينة المقدسة، حاملين معهم هدايا الإيمان إلى الحرم الشريف.

أمضينا ساعات طويلة ونحن نسير سيرًا رتيبًا، وتوقفنا قبل منتصف الليل، وترجلنا عن ظهور مطايانا وتلفحت بعباءتى واخترت حفرة رملية مناسبة لجسدى حيث استلقيت فيها ورحت فى سبات عميق حتى مطلع الفجر. وما إن شعر طفس ببرودة الهواء حتى هب واقفًا، وبعد برهة كنا على ظهور جمالنا مستأنفين سيرنا مجتازين رابية بركانية. وفيما نحن كذلك رحنا نتحدث معًا، وقال طفس إن على مسافة ساعتين من التلال

الصوانية قرية تدعى «خريبة» وأن الماء متوافر فيها، وأن أهلها من العبيد الطلقاء الذين يعيشون من الزراعة التى تنبت فى تلك المنطقة من الصحراء.

لقد كانت تلك الكلمات تشكل بالنسبة لى معلومات مهمة، لأننى لم أكن أعلم أن مجرد «وادى فورة» يشكل طريقًا مباشرًا يبدأ من جوار المدنية ويسير حتى ضاحية رابغ. كما أن عبدالله لم يعلمنا عن وجود قرية «خريبة» مع العلم أن لهذه القرية تأثيرًا استراتيجيًا بالغ الأهمية على مواقع رابغ، بالإضافة إلى أنها تزود العدو بمورد للماء بعيد عن تدخلنا وبعيد عن مدى مدافعنا ومدافع سفننا. وفى هذه القرية يستطيع الأتراك أن يحشدوا فرقة عسكرية كبيرة ويهجموا بها على اللواء البريطانى الذى اقترح عبدالله انزاله فى رابغ.

وقد أجابنى طفس عن سؤال آخر كاشفًا بذلك عن سر جديد، وهو أنه فى موقع «الحجر» القائم بين التلال الشرقية يوجد مورد آخر للماء يسيطر عليه آل المصروع (فخذ من عشيرة حرب). وهذا يعنى أن بإمكان الأتراك الإنطلاق من المدينة إلى مكة تاركين رابغ وحدها دون أن يكون فى استطاعة القوات العربية إلحاق الضرر بها. لذلك فالأمر يقضى بوجود قوات عسكرية كافية لحماية مكة باستطاعتها القيام بعمليات مساحتها عشرون ميلاً حتى تمنع القوات التركية من التزود بالماء الموجود فى المواقع المذكورة.

استمرت الجمال فى سيرها بينما كانت الشمس تشرق مرسلة خيوطها الأولى، واجتزنا المساكب الرملية وسرنا إلى بئر المستراح الذى يعتبر المرحلة الأول لطريق الحج الممتدة من رابغ - ووصلنا بعد ساعات قليلة إلى بئر تقع على الضفة الشمالية للمستراح، وبقرب البئر وجدنا حائطًا حجريًا لبناء متنوع تقابله مظلات صنعت من سعف النخل يستظل بظلها رجال من أبناء البادية. وتقدمنا بالقرب منهم دون أن نلقى عليهم السلام وترجلنا قرب الكوخ حيث أخذ طفس الجمال إلى البئر ليسقيها وليشرب ووالده ويأتينى بجرعة ماء. وبعد ذلك جلسنا فى الظل نستنشق نسمات الهواء الآتية من البحر، وأشعل

طفس سيجارة وجلس يدخنها بهدوء واستمتاع. وما لبث أن وصل رجال من قبيلة حرب يسوقون عددًا من الجمال إلى البئر. ورحنا نراقبهم بحذر واحتراز يشوبه القلق، إذ إنهم من فخذ المصروع ورفيقى من فخذ بنى سالم، وبالرغم من أن السلم موجود بين الفخذين ويمكن لأبناء كلّ فخذ أن يتجول فى أرض الفخذ الآخر، لكن هذا السلم يعتبر سلمًا مؤقتًا فرضه الشريف بسبب حربه مع الأتراك.

بينما كنا نراقب هؤلاء البدو وجدنا رجلين يركبان جملين قادمين من الشمال نحونا. وما إن اقتربا حتى وجدنا أنهما رجلان شابان الأول يرتدى ثوبًا من الكشمير الغالى الثمن ويعتمر عقالاً مذهبًا، والثانى يلبس ثوبًا من القطن الأبيض وكوفية من القطن حمراء اللون. وتوقف الرجلان قرب البئر، ثم ترجل الأول عن جمله دون أن ينيخه ورمى برسن الجمل إلى رفيقه قائلاً له بلهجة الآمر: «اسق الجمل بينما ارتاح قليلا فى الفىء».

وسار إلى الحائط حيث جلس فى الظل بعد أن ألقى علينا نظرة عابرة. وبعد قليل قدم لى سيجارة بعد أن لفها باعتناء وقال لى:

- هل أنت قادم من سوريا؟

- لا بد أن تكون أنت من أهالى مكة.

لكنه لم يجب عن سؤالى هذا. ثم بدأنا حديثًا عن الحرب وأخبارها وعن هزال نوق فخذ «المصروع» بينما وقف رفيقه جامدًا فى مكانه ممسكًا برسنى الجملين. وصاح به السيد الشاب قائلاً:

- مالك يا مصطفى؟ اسق الجملين.

وأجابه الخادم بلهجة أسى:

- أنهم لا يسمحون لى بذلك.

عند ذلك قفز الشاب من مكانه وضرب رفيقه بعصاه على رأسه وكتفيه وهو يصيح به:

- اذهب واطلب منهم.

وحدجه مصطفى بنظرة غاضبة، وتقدم خطوة كأنه يريد أن يضرب السيد الشاب لكنه تراجع عن ذلك وأخذ بالجملين إلى البئر. وما إن عرفه البدو حتى وقفوا خائفين وأفسحوا الطريق له ثم قدموا الدلاء ليسقى الجملين. وأخذوا يتساءلون عن شخصية السيد الشاب فقال لهم مصطفى إنه قريب لشريف مكة. وما إن سمعوا منه هذا القول حتى ركضوا إلى جانب الخابية واحضروا حزمة من العشب وضعوها أمام الجملين، وكان الشريف الشاب يراقبهم بطرف عينيه بارتياح. وعندما انتهى الجملان من أكل العشب قام الشريف وأمسك برقبة جمله وقفز عليه ثم حيانا بتحية باردة وغادرنا وهو يدعو إلى الله تعالى أن يعيد الهدوء والسلام إلى أرض العرب. وقام بعد ذلك رفيقى باحضار الجمال فامتطيناها وسرنا باتجاه الشمال، وبعد قليل سمعت رفيقى طفس يضحك بصوت عال فسألته:

ـ ما بك يا طفس؟

ـ هل رأيت ذانك الرجلين قرب البئر؟

ـ أتقصد الشريف وخادمه؟

ـ نعم إن الشاب هو الشريف على بن مرهج أما الثانى فابن عمه. وهما من أمراء آل حارث أعداء فخذ بنى «المصروع» وقد خافا أن يطردهما الأعراب فيما لو عرفا حقيقتهما. ولذلك تظاهر أكسيد وخادم من سكان مكة. ألم تلحظ أن محسن غضب غضبًا شديدًا عندما ضربه ابن عمه. ان عليًا هذا لشيطان. حيث لجأ إلى خاله الذى كانت مهنته سلب الحجاج، واستمر يعاون خاله فى هذه المهنة إلى أن قبض عليه والده... إن آل حارث هم أبناء الحروب!

●●●

(4)

كانت الأرض التى نسير عليها طبقة رملية صلبة من الصخر والحجارة، وأمامنا على بعد ثمانين ميلاً لاحت لناظرينا القمة الهائلة لجبل (رضوى) القابع وراء بلدة «ينبع»

وبالقرب من السهل الذى نسير عليه انتصبت تلة تدعى «حسناء» بدت وكأنها تقطع علينا الطريق. وعلى يميننا كانت هضبة «النبى أيوب» الشديدة الانحدار، وهى الجزء الأول من سلسلة الجبال الممتدة بين نجد والمدينة المنورة.

وبعد ساعة من الزمن اتجهنا إلى اليمين حيث تركنا طريق الحج إلى طريق مختصرة تخترق هضبة دفنت تحت الرمال الحجار الصوانية. وبدت أمامنا الوديان فى خطوط واضحة محددة تكسوها الرمال والحجارة النظيفة. ونزلنا إلى تلك الوديان ثم أخذنا طريق الحج الرئيسية بعد ذلك، واستأنفنا سيرنا على هذه الطريق حتى غروب الشمس ورأينا على مبعدة منا مزرعة «بئر الشيخ». وعند هبوط الظلام شاهدنا ألسنة النيران تشتعل من داخل المزرعة، فأسرعنا السير حتى وصلناها. وترجل طفس عن جمله، وتقدم من أحد الأكواخ وانحنى فوق أحد الرجال وهمس فى أذنه بضع كلمات ثم عاد يحمل طحينًا عجنه وصنع منه كعكة دفنها فى رماد نار خابية. وبعد قليل نضجت الكعكة فالتقطها طفس ونفض الرماد عنها وعاد لنقتسمها فيما بيننا، وكان رفيقنا الثالث يفتش عن شىء من التبغ يدخنه. وتحدثت مع السكان وعلمت منهم أن هنالك بئرين حجريتين فى جنوب المزرعة. وبعد ذلك شعرت بالتعب فانتحيت جانبًا هادئًا قبعت فيه لساعتين استعدت بعدهما نشاطى واستأنفنا السير فى برودة الليل المنعشة. وبعد منتصف الليل توقفنا عن السير وترجلنا عن ظهرى جملينا واستغرقنا فى نوم عميق.

بعد ثلاث ساعات عدنا إلى السير من جديد، وكان القمر لا يزال يضىء المكان بأنواره الأخيرة، فاجتزنا «وادى مارد» إلى أن سطعت الشمس فرأينا رجلاً هرمًا يمتطى جملاً انضم إلينا وقال إن اسمه «خلاف» وهو اسم محبب. وقد حاول الرجل أن يستدرجنا بالحديث لكن طفس لم يوافق على صحبته لنا. لذلك كان يجيبه عن أسئلته بحذر واقتضاب غير أن خلافًا هذا أصر على التحدث معنا، وكى يجعلنا نطمئن له أخرج من خرجه كعكة معجونة بالسكر والسمن قدم لكل واحد منا قطعة.

وهكذا صرنا رفاق الرحلة مع خلاف الذى قص علينا حكايات المعارك الأخيرة بين العرب والترك، ثم أخبرنا عن الهزيمة التى لحقت بفيصل أول من أمس. وعلمنا من حديثه

أن فيصلاً قد طرد من موقعى «الخيف» فى وادى صفرا، وعلمنا أيضًا أنه يخيم الآن فى موقع معروف باسم «حمرا» القريب منا. واستطرد خلاف بقوله إن المعارك لم تكن شديدة، وان الاصابات التى لحقت بالرجال كانت محصورة برجال عشيرتى طفس وخلاف.

وراح يخبرنا بأسماء الجرحى والقتلى، وكنت أنا أثناء حديثه أجول بنظرى مستطلعًا الصحراء حولى وأشعر بلذة حين أجد نفسى فى أرض جديدة. فالرمال التى مررنا بها يوم أمس فى (بئر الشيخ) قد تبدلت الآن ونحن نخترق واديًا يبلغ عرضه بين ٢٠٠ و٥٠٠ ياردة أرضه مفروشة بالحصباء، وعلى جانبيه أشجار كثيرة من أشجار السنط المخشوشبة الشاهقة الطول، وخلنا أننا نجتاز حديقة غناء فى هذا الصباح المبكر.

تقدمنا فى ذلك المكان الجميل مسافة سبعة أميال وخلاف لا يزال يحدثنا، وعلمت منه أنه سبق له أن سافر إلى دمشق والأستانة والقاهرة، وقال أنه له فى القاهرة أصدقاء كثيرون معظمهم من الشخصيات البارزة. ثم راح يستجوبنى عما إذا كنت أعرف أحدًا هناك من الإنجليز، وأخذ يردد بعض العبارات باللهجة المصرية، آملاً أن اطمئن له وأكشف له عن حقيقة شخصى. وعندما رددت عليه بلهجة حلبية راح يتحدث عن بعض الرجال السوريين المرموقين. ثم وجه لى بعض الأسئلة الحذرة الدقيقة بطريقة غير مباشرة عن الشريف وعن أولاده، وما سيفعل فيصل من أعمال فى المستقبل، لكننى كنت أقل علمًا من هذا الموضوع وتقدم طفس ليخلصنى منه، وغيرنا إلى حديث آخر. وقد علمنا فيما بعد أن هذا الرجل كان جاسوسًا للقيادة التركية فى المدينة وقد كان يرسل التقارير إلى الأتراك عما يمر من امدادات ببئر حسنة إلى القوات العربية.

وبعد مدة وصلنا إلى بقعة خضراء خصبة من منطقة «وادى صفرا» وهى منطقة خضراء شاسعة، وبدت لنا إلى الغرب بساتين النخيل، وعلمت أن هذه البساتين الواسعة تخص سكان قرية «الجديدة» إحدى قرى العبيد فى «وادى صفرا». وبعد أن اتجهنا إلى اليمين واجتزنا بضعة تلال وجدنا أنفسنا فى وادى صفرا، الوادى الذى كنا نبحث عنه ونقصده، وفى وسط الوسط كانت أكبر قرية فيه وهى قرية «الواسطة».

بدت «الواسطة» لنا مؤلفة من بيوت متلصقة إلى جانب التلال، وتابعنا سيرنا حول الجدار الطينى للقرية وسرنا فى ظلال أشجار النخل، حتى وصلنا إلى أكواخ لا يربط بينها رابط، وتقدمنا طفس ليقودنا عبر أزقة ضيقة ثم توقف بنا أمام أحد الأكواخ وترجل عن جمله ثم قرع باب الكوخ ففتح له أحد العبيد. ودخلنا إلى الكوخ بكثير من الحذر حيث قادنا العبد الخادم إلى غرفة الضيوف. وكانت هذه الغرفة نظيفة لكنها صغيرة من الغرف المبنية من الطين وسعف النخل. فجلسنا على حصيرة على الأرض، وكان النهار شديد الحرارة فاستلقينا قليلاً طلبًا للراحة.

●●●

(5)

عندما استيقظنا من غفوتنا، كان أهل المنزل قد جهزوا لنا وجبة من الطعام مؤلفة من الخبز والثمر. وكان الثمر طازجًا يذوب كالسكر فى أفواهنا، وقد استمتعت به كثيرًا. وكان صاحب البيت وجيرانه من عشيرة حرب غائبين عن الدار بعد أن التحقوا بجيش فيصل، وكانت النساء تعتنى بالمواشى من جمال وماعز وأغنام. وكان من عادة رجال العشائر ألا يقيموا فى ديارهم فى القرى أكثر من خمسة أشهر فى السنة. وكانوا يتركون بساتينهم للعبيد يعتنون بها أثناء غيابهم. وكان هؤلاء العبيد غليظى الشفاه، أقوياء، داكنى البشرة والسواد، يختلفون كثيرًا فى مظهرهم عن العربى الذى يبدو كالعصفور لخفته ورشاقته. وقد قال لى طفس: إن هؤلاء العبيد قدموا من إفريقيا، وقد جاء بهم الأتراك وهم أطفال إلى الحجاز بحجة تبنيهم، ثم باعوهم فى أسواق مكة فى أثناء مواسم الحج.

وكان عددهم كبيرًا، فقد كانوا يقطنون ثلاث عشرة قرية من قرى وادى صفرا، وبذلك أوجدوا لأنفسهم مجتمعًا خاصًا بهم وعاشوا حياتهم وفق طريقتهم الخاصة. وكان عملهم شديدًا مرهقًا، لكن الرقابة عليهم كانت ضعيفة وكانت فرص الهرب والإفلات متيسرة وسهلة. وكان الكثيرون منهم يملكون أراضى يزرعونها بطيخًا وشمامًا وخيارًا وعنبًا لحسابهم الخاص، بالإضافة إلى النخيل الذى كانوا يصدرون منه إلى السودان ويستوردون الحبوب والأقمشة من إفريقيا وأوروبا.

وعند الأصيل بردت الشمس قليلا، فركبنا جمالنا وتقدمنا بمحاذاة الجدول الصغير وواصلنا طريقنا داخل القرية ومررنا بسوقها الرئيسية، ولم تكن الحوانيت تحوى إلا القليل من السلع. وكان كل شىء يبدو متداعيًا. فمنذ جيل واحد كانت هذه القرية آهلة بالسكان (لقد علمت من أحد السكان أن عدد المنازل قد بلغ ألف منزل) وحدث فى أحد الأيام أن داهمت تلك القرية الوادعة سيول وادى صفرا فهدمت البيوت وأسوار البساتين وأقتلعت أشجار النخيل كما أغرقت بيوتًا أخرى وغمرتها بالوحول، وقد قتل الكثير من العبيد من سكانها.

وكان ممكنا التعويض عن تلك الخسارة فى الرجال والبساتين لو بقيت الأرض صالحة للزراعة، لكن معظم الأراضى التى بذل أهلها المستحيل لإصلاحها قد ملئت بالحجارة والحصى.

بعد أن خرجنا من القرية وصلنا بعد مدة بسيطة إلى واحة «خرما» وبعدها لاحت لنا «حمرا» ذات الصخور الحمراء الأخاذة بمنظرها. ورأينا هناك ارتالا من قوات فيصل وقطعانا من الجمال ترعى فى المروج. وما إن رأى الجنود رفيقى (طفس) حتى راحوا يحيونه باحترام، وشعرت بأن الحياة قد بدأت تدب فى جسده. وصعدنا إحدى الروابى المجاورة وتوقفنا أمام باب أحد المنازل الذى يحرس بابه عبد يحمل سيفا مذهبا، فاقترب منه طفس وأسر إليه كلاما، ففتح لنا الباب وتقدمنا داخل قاعة كبيرة، وتبعناه فرأينا رجلاً طويلاً أبيض يقف قرب باب أسود ينتظر وصولى بفارغ صبر.

وما إن وقع نظرى عليه، حتى تأكد لى أن هذا الرجل هو الشخص الذى جئت إلى بلاد العرب لأبحث عنه. وأيقنت ما إن رأيته أنه هو الزعيم الذى سيقود الثوار والثورة العربية إلى هدفها.

كان فيصل طويل القامة كالعمود، نحيفًا مفرط النحافة، يلبس ثيابًا حريرية بيضاء، يضع على رأسه كوفية رمادية اللون فوقها عقالاً مذهبًا. والقيت التحية، فأفسح لى الطريق إلى الغرفة وجلس على حصير فرش قرب الباب. وكان فى الغرفة رجالا غيرنا جالسين هادئين صامتين ينظرون إلى والى فيصل. وبقى فيصل خافض النظر يحدق فى

يديه اللتين كانتا تمسكان بخنجره. وأخيرًا التفت إلى ليسألنى بصوت ناعم عن سفرى فأخبرته عن المصاعب التى صادفتها، ثم سألنى:

- هل أعجبك مكاننا هذا فى وادى صفرا؟

- إنه جميل، إلا أنه بعيد عن دمشق.

وشعرت أن كلمتى نزلت كالصاعقة على القوم، وبعد فترة من الصمت المخيف نظر فيصل إلى وهو يبتسم وقال:

- نشكر الله، لأن هناك أتراكًا أقرب إلينا من دمشق.

وشاركناه جميعًا الابتسام، ووقفت مستأذنا لفترة وجيزة.

●●●

(6)

كان معسكر الجنود المصريين بقيادة الماجور نافع بك، فى مرج كبير أخضر. وكان الجنود قد أرسلهم السير «ريجالد وينجيت» من السودان ليساعدوا الثورة العربية. وقد غمرنى نافع بك بكرمه وحسن ضيافته رغمًا من سوء صحته وحنينه إلى وطنه.

أتى الأمير فيصل ومعه (مولود مخلص) وهو عربى متطرف من العراق ومن بلدة تكريت. كان فى الجيش التركى وقد عرف عنه شدة تعصبه لقوميته فأنزلت رتبته العسكرية مرتين، وقد أمضى سنتين فى المنفى فى (نجد) وعمل كسكرتير لابن الرشيد. وبينما كان يقود فرقة الخيالة التركية فى إحدى المعارك فى «شعيبة» بالعراق وقع أسيرًا بين أيدى القوات الهندية. وعندما علم (مولود مخلص) بخبر نشوب الثورة العربية التى أشعلها الشريف تطوع على الفور وكان أول ضابط نظامى يلتحق بجيش فيصل. وهو الآن يعمل مرافقًا خاصًا له.

راح مولود مخلص يشكى سوء التسلح بشدة ومرارة، وفى الحقيقة كانت هذه من أبرز المشاكل التى تشغل بال العرب. فالشريف يدفع للجيش شهريًا ثلاثين ألفًا من الجنيهات مقابل كميات ضئيلة من الطحين والأرز والشعير، وعدد من البنادق والذخيرة.

وهنا قاطعت مولود مخلص بقولى:

- ان السبب الرئيسى لمجيئى إلى هنا هو للاطلاع على ما ينقصكم، ثم التوجه بتقرير شامل عن هذا الأمر إلى رؤسائى، وأنا على أتم الاستعداد للتعاون معكم شرط أن تخبرونى بتفاصيل الحالة العامة.

وقد وافق الأمير فيصل على ما قلت وراح يصور لى وضع الثورة منذ نشأتها. فقد كان الهجوم الأول على المدينة عملاً يائسًا، فالعرب كانوا مسلحين بشكل ردىء للغاية، ومن الناحية الثانية كانت القوات التركية ضخمة خاصة فرقة فخرى باشا المولجة بمرافقة «فون ستاتسنيجن» إلى اليمين التى كانت لا تزال متمركزة فى المدينة. وبلغت الخسائر حدًا فادحًا فقد خلقت المدفعية التى استعملها الأتراك الرعب فى نفوس العرب، كما لم يتورع جنود فخرى بك عن ارتكاب أفظع الجرائم الوحشية بعد أن انهزمت القبائل. وانسحب العرب من السهل الممتد حول المدينة إلى التلال عند الطريق «السلطانى» وتمركزوا حول قرى «عار» و«رحا» و«بئر عباس» وبدأ الأمير فيصل يبعث بالرسل الواحدة تلو الآخرى إلى رابغ لتسقط أخبار السلاح والمال.

لقد كانت بداية الثورة العربية مرتجلة، وكان الشريف حسين مرتجلاً حين أعلنها ولم يتشاور مع أبنائه لرسم الخطط لها. لذلك كان الجواب الوارد من رابغ بواسطة الرسول عبارة عن كمية قليلة من الطعام تلاها بعد ذلك بوقت قليل شحنة ضئيلة من البنادق اليابانية الصنع، وكان معظمها معطلا غير صالح للاستعمال. وقد اضطر الأمير فيصل إلى ملىء صندوقه الحديدى بالحجارة ووضع حراسة مشددة حوله ليوهم رجال العشائر بأن المال لا يزال متوفرًا لديه.

واضطر فى آخر الأمر إلى أن يسافر الأمير على إلى رابغ ليبحث الأمر بنفسه ويستطلع السبب فى عدم ارسال المال، فوجد، أن حسين مبيرق زعيم المنطقة قد انضم إلى صفوف الأتراك واستولى على جميع الإمدادات البريطانية، فطارده على وهاجم قراره وراح يبحث فى المنازل، فوجدت كميات ضخمة من الأسلحة والطعام تكفى القوات العربية مدة شهر كامل.

وفى هذه الأثناء كان يتصل فيصل بالكولونيل ولسن الذى وصل إلى «ينبع» فطلب منه تزويده على الفور ببعض الإمدادات فقدم له بطارية من المدافع الجبلية. وقد بعثت تلك البطارية من المدافع الحماس فى صدور العرب معتقدين بأنهم بذلك سيصبحون فى قوة الأتراك. لكن المدافع تلك كانت من النوع القديم صنعتها مصانع «كروب» منذ ربع قرن، وكان مداها لا يصل أكثر من ثلاثة آلاف ياردة إلا أن الجيوش العربية استطاعت بواسطتها اقتحام المراكز الأمامية للقوات التركية، وبدأت تحرز الانتصار تلو الانتصار ما جعل فخرى باشا يقوى حاميته فى بئر عباس وازداد عددها إلى أن بلغ ثلاثة آلاف مقاتل ثم زودها بمدافع ذات مدى بعيد. وقد سقطت إحدى القنابل قرب خيمة الأمير فيصل بينما كان هو فى داخلها مجتمعًا مع بعض الرجال والقادة. وطلب الأمير من جنوده الرد على المدفعية التركية، لكن الرجال أخبروه بأن مدافعنا لا تصل إلى مسافة تسعة آلاف ياردة حيث كانت الحامية التركية.

واضطرت جيوش فيصل إلى التراجع مرة أخرى عن المواقع التى احتلتها ومن ثم تدهورت معنويات العرب واضطرب الأمير فيصل لتحمل عبء الحرب وحده، بينما كان عبدالله يلهو فى جدة وزيد وعلى يستمتعان فى الحياة الهادئة فى رابغ. وما لبث فيصل أن سحب قواته من بئر عباس وأبقى بعض الفرسان من آل حرب فى التلال المجاورة وطلب منهم الاستمرار فى الإغارة على خطوط مواصلات الأتراك.

سألت فيصل عن مشاريعه المستقبلة على ضوء التطورات السابقة، فأجابنى بأنه سيبقى فى الحجاز لحين استرجاع المدينة المنورة. وكان فيصل يظن أن الأتراك سيقومون بعد ذلك باحتلال مكة لأن قواتهم الآن تعتبر قوات متحركة، وفى امكانهم ارسالها إلى رابغ. وقد تبين من معركة تلال صبح ذات الطابع السلبى للدفاع أن العرب لم يقوموا بمهمة الدفاع كما يجب، فلا بد - والحالة هذه - من الهجوم على المدينة. وقال فيصل إنه سيقود المجندين الجدد باتجاه الشرق نحو الخط الحجازى خلف المدينة، بينما يزحف عبدالله مع جيشه فى الصحراء البركانية ليهاجم المدينة من الشرق. ويقوم زيد بشغل القوات التركية فى بئر عباس ليمنعها من الاشتراك فى المعركة الرئيسية. وبهذه الخطة

تصبح المدينة مطوقة من جهاتها الثلاث، ومهما تكن نسبة النجاح لهذه العملية الهجومية فإن حشد الجيوش هذا سيحطم الهجوم التركى المنتظر، وقد يفسح المجال للجنوب ليستعيد نشاطه ويعيد تسليح ابنائه وتهيئتهم للقتال والدفاع والهجوم.

كان مولودز مخلص يصغى إلى حديثنا الطويل وهو قلق نافد الصبر. وأخيرًا لم يستطع أن يتمالك نفسه فصاح بى:

- نحن لا نطلب منك أن تكتب تاريخنا. إن ما نريده هو الحرب، والحرب فقط حتى نقضى عليهم! أعطنى بطارية من مدافع شنايدر الجبلية وبعض الرشاشات. وأنا أكتب لك نهايتهم بيدى. ونحن لا نتكلم كثيرًا ولا نفعل شيئًا.

* * *

كان حديثى مع الأمير فيصل بمثابة الراحة والترفيه له. فقد شغل حضورى الذى لا قيمة له، قلبه يقينًا. وكانت عيناه السوداوان منهكتين من الإجهاد، ومع هذا بدا عليه الهدوء والرصانة. ولا عجب فى ذلك، فقد صقلته الأحداث والتجارب فى دمشق والأستانة وجعلت منه القائد المنتظر للعرب. وفى سبيل عقيدته كانت الصعاب تهون. وقد أخبرنى أحد مرافقيه بأنه بينما كان يحارب فى أحد المواقع مع رجاله، ويشجعهم ويحثهم ويرفع من معنوياتهم، خانته القوة فأغمى عليه ونقله الرجال وسط المعركة والزبد يتدفق من شدقيه.

لقد كان أكثر مما توقعنا، وها قد تحققت الغاية التى جئت من أجلها، ولم يعد أمامى إلا أن أسلك أقصر الطرق إلى مصر لأحمل إلى القيادة هناك الأخبار والمعرفة التى حصلت عليها فى تلك الليلة لنبدأ ما عزمنا على تنفيذه.

وما كاد الظلام يخيم علينا حتى جاء العبيد يحملون المصابيح يسيرون بين جذوع النخل، فنهض فيصل ورفاقه، وعدنا إلى الدار الصغيرة حيث شاهدنا القاعة تغص بالرجال. فدخلنا إلى الغرفة الخاصة بالمقربين إلى الأمير فوجدنا فى منتصفها صينية كبيرة تحوى ما لذ وطاب من اللحم والأرز.

●●●

(7)

كان مجلسنا يضم جمعًا غريبًا. فقد كانت تضم نفرًا من الأشراف ووجهاء وشيوخ القبائل من «جهينة» و«عتيبة» ورحت أتطرق إلى مواضيع الخلافات فيما بينهم وأحاول إثارتها كى ألمس عقائدهم وآراءهم. وقد كان الأمير فيصل الذى يدخن بكثرة يقود المحادثات ويسيطر عليها حتى حين تبلغ ذروة حدتها، مظهرًا أسلوبًا عظيمًا فى السيطرة وضبط مشاعر الرّجال.

لقد كان فيصل فى الحقيقة رجلاً محبوبًا من الجميع. فقد أعد إعدادًا لائقًا وأنشئ تنشئة صالحة من والده. وإذا كان والده الشريف حسين يخفى نفسية متناقضة لأن أمه شركسية وقد نشأ تنشئة تركية، أما هو فقد كان على العكس من ذلك. فقد حاول الشريف حسين أن تبقى ثقافة أولاده عامة حسنة، وعندما رجع أولاده كأفندية يرتدون الملابس الأوروبية وقد تطبعوا بالأطباع التركية، أمرهم بارتداء الملابس العربية كما عين لهم مرافقين من أهل مكة وأرسلهم إلى البادية مع رجال الهجانة ليقوموا بدور الحماية للحجاج، وكان يقصد من ذلك أن يتعلموا اللغة العربية بإتقان.

كان الحديث بعد العشاء حديثًا لطيفًا ممتعًا. وبوصفى «سوريًا» رحت أظهر حزنى على الزعماء السوريين الذين أعدمهم السفاح جمال باشا فى دمشق. وهنا هبت فى وجهى عاصفة عاتية، فقد نشرت بعض الصحف أن هؤلاء الرجال قد اتصلوا ببعض الجهات الأجنبية وهذا يشكل خيانة للقومية العربية واضحة.

وابتسم فيصل والتفت إلى وهو يغمز بعينيه، وقال:

ـ ألا تعتقد أن الضرورة تدفعنا إلى بريطانيا؟ ونحن يسرنا أن نكون أصدقاءهم مشاركين لهم مساعدتهم. لكنا لسنا من الرعايا البريطانيين، وكم نكون سعداء لو كان هناك توازن فى القوى بيننا وبين بريطانيا.

لقد أدهشنى رجال العشائر ذوو الألبسة المهلهلة بسعة اطلاعهم وتفهمهم العميق للمفاهيم القومية التى يصعب حتى على الطبقات المثقفة هضمها. وطرحت عليهم هذا السؤال محاولا فهم حقيقة مشاعرهم:

- ترى بعد أن تنتصر الثورة، من سيحكم الآخر دمشق أم الحجاز؟

وكان الجواب أن هذا الأمر لا يعنيهم كثيرًا، فالمهم أن يتخلصوا من هؤلاء المتطفلين الذين يتحكمون بهم.

أما بالنسبة للعراقيين والسوريين المنضمين للجيش العربى فقد كانوا يؤمنون بضرورة المشاركة فى ثورة الحجاز لأنها تقدم كل الأسباب للحقوق العامة للعرب فى خلق الوجود القومى للعرب. والأمر بالنسبة لهم سيان أكانت الدولة العربية المنتظرة دولة وحدوية أو اتحادًا كونفيدراليًا، وكانوا ينظرون إلى دمشق وبغداد برغبة ادخالهما إلى الأسرة العربية.

لم أجد لدى العرب سوى أثر ضعيف للتعصب الدينى. فقد رفض الشريف مرات عديدة أن يصبغ ثورته بالطابع الدينى فحقيقة ثورته كانت قومية. والعشائر كانت تدرك أن الأتراك من المسلمين وأن الإنجليز مسيحيون، ولكن بالرغم من ذلك فقد ثاروا على الأتراك وارتضوا صداقة المسيحيين ومحالفتهم.

فالعرب يريدون حكومة مستقلة تدافع عنهم وعن حقوقهم وقوميتهم وتفسح لهم مجال العيش بسلام.

●●●

(8)

نهضت باكرًا فى صباح اليوم التالى ورحت أتفقد قوات الشريف المعسكرة فى (الحيف) وحاولت أن أجس نبض تلك القوات ببعض المناورات التى أجريتها فى الليلة السابقة مع وجهاء القبائل. وكان الوقت عاملاً أساسيًا لى إذ كان على أن أكوّن فكرة عامة فى مدة لا تتجاوز الأيام العشرة، وأشياء لا يمكن معرفتها خلال أسابيع طويلة إذا عمدت إلى التدقيق والبحث.

لقد كنت مؤمنًا بالحركة العربية إيمانًا عميقًا، وكنت متأكدًا قبل أن آتى إلى الحجاز أن هذه الفكرة ستمزق تركيا وتقضى على امبراطوريتها. لكن الآخرين فى مصر كانوا بحاجة إلى مثل هذا الإيمان، وهم لم يعلموا شيئًا طيبًا عن العرب، فإذا تمكنت من

استثارة مشاعرهم فسيصبح فى مقدورى أن أكسب عطفهم على مشاريعى الهادفة إلى مساعدة العرب.

استقبلنى الجنود بالترحاب والحماس.. وكانوا متفرقين جماعات جماعات يتمددون فى الظل باسترخاء. وقد اعتقدوا أننى ضابط هارب من الجيش التركى، حين رأوا ملابسى (الكاكية). لذلك فقد سروا كثيرًا لمشاهدتى بينهم إلا أنهم حاروا فى الطريقة التى يعاملونى بها. كان معظمهم من الفتيان فى مطلع العمر. ومع ذلك فقد كانت أسارير وجوههم تدل على القساوة والخشونة، وأجسادهم ضامرة نحيلة، لكنها مليئة بالقوة والمرونة. وكان يلذ للمرء أن يستمتع بمشاهدتهم وهم يتحركون، وللحقيقة لم يكن فى الإمكان إيجاد رجال أصلب من هؤلاء الرجال وأقوى عودًا وشكيمة. فهم يجتازون المسافات الشاسعة على ظهور خيولهم وجمالهم لأيام عديدة، ويسيرون حفاة الأقدام على الرمال المحرقة والصخور الحادة المدببة ويتسلقون التلال كأنهم الماعز، وكانت ملابسهم مؤلفة من ثوب فضفاض وكوفية تغطى رأسهم كمنشفة وفى بعض الأحيان تستعمل كيسًا.

وكانت الحرب بالنسبة لهؤلاء الرجال أمتع الأوقات وأشدها رخاء، فالشريف كان يدفع لهم بسخاء بالإضافة إلى طعامهم، وكان كل واحد منهم يقبض جنيهين ذهبيين راتبًا شهريًا، ثم يستأجر الجمل منهم بأربعة جنيهات. وكانت هذه الطريقة الوحيدة لإبقاء رجال العشائر لأشهر طويلة فى ميادين القتال. لقد كنا فى السابق نسخر من حب الشرقيين للمال والرواتب، لكن حملة الحجاز كانت دليلاً قاطعًا على خطأ اعتقادنا هذا، إذ إن الأتراك كانوا يدفعون الرشاوى الكبيرة ليحصلوا على خدمات لا تذكر. وكانت العشائر ترضخ للرشاوى وتقبلها وتشكر معطيها ثم تذهب لجيش فيصل لتقاتل فى صفوفه لقاء حفنة من الدريهمات. وكان الأتراك يذبحون أسراهم ذبح النعاج بينما كان فيصل يدفع جنيهًا واحدًا ذهبيًا لكل من يأتى بأسير على قيد الحياة. كما كان يدفع جوائز عن الخيول والأسلحة التى يستولى عليها الجنود. وكان الوالد وولده يتبادلان الخدمة فى جيش فيصل، والبندقية الواحدة التى تملكها العائلة يقدم على استعمالها جميع أفراد العائلة من الشباب. وكان المتزوجون يقسمون أوقاتهم بين المنزل والمعسكرات.

وكانت السياسة تقضى بأن يدفع فيصل رواتب إلى رؤساء العشائر أيضًا. وكانت هذه الرشوة تقدم بطريقة مهذبة كدليل على الود والصداقة.

ومع أن جميع الرجال كانوا يحاربون الأتراك بعزم صادر عن عقيدة ثابتة، فإن هذا لا يمنع أحد رجال العشائر من أخذ ثأر قديم إذا سنحت له الظروف بذلك. ولهذا تبين لى أن رجال العشائر لا يصلحون إلا للدفاع. وكانت جرأتهم البالغة حد التهور تجعلهم بارعين فى نسف الخطوط الحديدية وسلب القوافل. لكنهم كان من المستحيل عليهم أن يرضخوا لأوامر قيادة عامة. وكان هؤلاء الأبطال غير مهيئين للتدريب. وقد كوّنت الرأى على أننا إذا زودناهم بالسلاح الرشاش من طراز «لويس» وعلمناهم طريقة استعماله فبإمكانهم أن يجعلوا سدًا منيعًا من التلال المجاورة ونتمكن نحن بعد ذلك من بناء قواتنا وراءه، كما يمكن للواء نظامى متحرك فى رابغ انزال الهزيمة بلواء تركى يماثله.

فالحرب فى الحجاز كانت من الحروب البسيطة غير المعقدة. فهى عبارة عن قتال تدور رحاه على سفوح الجبال الصخرية والأراضى المجدبة. وكانت التلال تعتبر مكانًا مهمًا جدًا بالنسبة للقناصة، ولا يخفى أن العرب قناصة مهرة. فبإمكان ٢٠٠ أو ٣٠٠ قناص من العرب إن يوقفوا طابورًا تركيًا، ذلك أن التلال كانت منحدرة بشكل يجعل من المستحيل على الأتراك تسلقها. والصخور الصوانية القاسية كأنها المعدن حادة كالموسى. وتأكد لى أن لا شىء يمكن القوات التركية من اختراق تلك التلال، عدا الخيانة أو خيانة العشائر. وحتى لو حدثت الخيانة فإن اجتياز تلك التلال يعتبر مغامرة خطيرة، فالعدو لن يكون متأكدًا من أن السكان المنقلبين لن ينقلبوا عليه حين وصوله إلى تلك المناطق الخطرة.

أما ما أزعجنى فهو خوف العرب الشديد من المدفعية التركية. وقد لاحظ عزيز على المصرى هذه البادرة المزعجة فى أثناء حربه فى ليبيا ضد الطليان. فقد خيل لهؤلاء القوم من البدو أن قدرة السلاح على التدمير تقاس بشدة الدوى الذى يحدثه هذا السلاح فكانوا لا يخافون الرصاص ولا يهابون الموت، لكن منظر الموت بواسطة القنابل كان غير

ممثل بالنسبة لهم، لذلك فقد كانت الطريقة الوحيدة لرفع معنوياتهم هى الحصول على مدافع ذات دوى هائل أشد من دوى المدفعية التركية.

وما إن أخبرتهم بأن مدافع هاوتزر قد وصلت إلى رابغ حتى هللوا وفرحوا كلهم لهذا الخبر المهم.

لقد أحدثت ضخامة الثورة العربية فى نفسى أثرًا بالغ الشدة، لأننى شعرت بالعزم الأكيد لدى العرب على طرد الأتراك من بلادهم وإلحاق الهزيمة بهم. ومع أن سكان الصحراء لم يكونوا يحاربون حسب الأساليب والخطط التى نحارب بها نحن، فإن قتالهم لم يقل ضراوة أو شدة وعزمًا عن قتالنا نحن.

رجعت بعد ذلك لأقابل فيصلاً مرة ثانية ولأعده وأؤكد له بأن أبذل جهدى وأعمل كل ما بوسعى عمله من أجله، كما اخبرته بأننا سنقيم قاعدة فى «ينبع» لتخزين المواد اللازمة والتى سنضعها كلها تحت تصرفه. كما أننا سنرسل له ضباطًا عربًا من الأسرى الذين وقعوا فى أيدينا فى معارك العراق والقنال، وسنجهز وحدات للمدافع وللمدافع الرشاشة من بين الأسرى العرب وسنزودهم بكل ما يصل إلينا من مدافع جبلية ومدافع رشاشة، وسأنصح القيادة البريطانية بإرسال الخبراء من الضباط الإنجليز ليكونوا ضباط ارتباط بيننا وبينه.

ووجدت أن حديثى كان له وقع طيب فى نفس فيصل الذى شكرنى بحرارة، ووجه إلى دعوة لزيارته مرة أخرى. وقد شرحت له أن وظيفتى فى القاهرة لا تتعلق بأعمال الميدان. ولكن إذا سمح لى رؤسائى بذلك فسأعود لزيارته.

وقبل أن ننهى حديثنا جهز لى حرسا مؤلفًا من أربعة عشر رجلاً كلهم من أقارب محمد على بن بيضاوى أمير جهينة ليرافقونى فى طريق عودتى، وكان عليهم أن يوصلونى إلى ينبع ويسلمونى إلى حاكمها عبد القادر العبدو.

●●●

غادرنا الحمرا قبل حلول الظلام، وأخذنا ننحدر فى وادى صفرا فى طريق عودتنا وقد استغرقت رحلتنا يومًا وليلة حتى شارفنا أبواب المدينة «ينبع». ودخلنا فى طريق متهدمة خالية، فقد هجرها معظم سكانها بعد توقف الخط الحديدى الحجازى. ووصلنا بعد قليل إلى منزل (عبد القادر) عامل الأمير فيصل فيها، وكان هذا رجلاً واسع المعرفة هادئ الطبع رزينًا يفرض الاحترام على كل من يجالسه. وقد سبق لنا أن تبادلنا الرسائل معه حين كان موظفًا مديرًا للبريد فى مكة. وكنا نحن فى ذلك الوقت نقوم بتجهيز الخرائط للدولة الجديدة.

بقيت فى منزل عبد القادر مدة أربعة أيام منتظرًا وصول السفينة التى بدا لى أنها لن تأت فى الموعد المحدد. وأخيرًا وصلت السفينة «سيوى» وكان يقودها القبطان «بويل» الذى أبحرت معه إلى جدة. لقد كانت هذه هى المرة الأولى التى أقابل فيها القبطان «بويل» الذى أسهم فى كثير من المهام فى بداية الثورة. لهذا كانت مقابلتى له فاترة، لا سيما حين رآنى أرتدى اللباس العربى الأمر الذى لم يعجبه.

حين وصلنا ميناء جدة رأينا السفينة «يوريال» ترسو فى المرفأ وعلى متنها أميرال البحر (ويمس الذى كان متجهًا إلى السودان) لزيارة السيد «ريجالدو ينجيت» فى الخرطوم. وقد كان وينجيت يشغل منصب سرادار الجيش المصرى، وقد كلف مؤخرًا - بالإضافة إلى عمله - أن يدير الأمور العسكرية المتعلقة بالثورة العربية، بينما انحصرت واجبات مكماهون فى التخطيط للشئون السياسية لهذه الحركة.

لذلك وجدت من الضرورى جدًا أن أجتمع بالسير وينجيت وأتحدث معه بشأن الثورة العربية، واغتنمت هذه الفرصة ورجوت الأميرال أن يسمح لى بالانضمام إلى رجاله والسفر معهم إلى السودان. وقد وافق الأميرال على طلبى هذا بعد أن استجوبنى بنفسه، وقد لاحظت أن الأميرال شديد الاهتمام بالثورة العربية، فقد زار جدة عدة مرات ليقدم كل مساعدة ممكنة للعرب فى ثورتهم ضد الأتراك. وقد قام بهذه المهمات أكثر من عشرين مرة علمًا بأن هذه المهمات كانت من واجبات الجيش والبحرية. فقد زود العرب

بالمدافع والرشاشات وزودهم بالمساعدات الفنية، كما طلب من الأسطول أن يبذل كل ما يمكنه لمساندة العرب وتقديم كل عون لهم. ولولا المساعدات الممتازة التى قدمها الأميرال ويمس والكابتن بويل للعرب لكانت غيرة (السير ارشيبالد مورى) القائد العام للقوات فى مصر على ثورة الشريف قد قضت عليها حال نشوبها.

عندما وصلنا بورسودان رأينا ضباطًا بريطانيين ملحقين بالجيش المصرى ينتظرون سفينة تقلهم إلى رابغ. وقد كلف هؤلاء الضباط بقيادة القوات المصرية العاملة فى الحجاز وتقديم المساعدات اللازمة لعزيز على المصرى والإشراف على تدريب القوات العربية النظامية. وكانت هذه المرة الأولى التى أقابل فيها كلا من الضابطين جويس ودافنبورت اللذين شاركا فى ثورة العرب بأدوار مهمة للغاية.

كان جو الخرطوم رطبًا بالمقارنة إلى جو الحجاز، وقد شعرت بنشاط زائد لأطلع السير وينجيت على التقارير التى كتبتها فى أثناء اقامتى فى ينبع، وقمت بذلك مؤكدًا أن الوضع العام يبشر بالخير. وأعلمته أن أهم ما يلزم العرب هو المساعدات الفنية، وأن الثورة العربية سيكتب لها النجاح إذا انضم إليها الضباط البريطانيون من الذين يتكلمون العربية ليزودوا القادة العرب بالنصائح اللازمة.

وقد أعجب وينجيت بنظرتى المتفائلة هذه، فالثورة العربية كانت أمله الأكبر منذ سنوات عديدة. ولحسن الحظ لعب القدر لعبة مهمة، إذ نقل مكماهون من القاهرة بسبب الدسائس التى خيكت حوله فاستدعى إلى بريطانيا وعين مكانه وينجيت. وأمضيت فى الخرطوم ثلاثة أيام فى الراحة والاستجمام أطالع فى كتاب «موت آرثر» ثم عدت إلى القاهرة وكلى ثقة بأن الرجل المسئول قد أطلع على جميع ما لدى من أنباء وتقارير.

كانت القيادة فى مصر منهمكة كعادتها بمسألة رابغ. فقد أرسلت بعض الطائرات، وتلا إرسالها مناقشات حادة عما إذا كان من الأفضل ارسال لواء بريطانى إلى هناك. وكان رئيس البعثة العسكرية الفرنسية فى جدة الكولونيل (بريموند) يشدد على وجوب إنزال القوات الخلفية فى الحجاز. وكى يكسب رأينا أحضر معه إلى السويس المدافع والرشاشات وقسمًا من جنود الخيالة والمشاة، وهم من الجنود الجزائريين المسلمين تحت قيادة ضباط فرنسيين. ولو ألحقت هذه القوات بالقوات الإنجليزية لأضحى للقوة المشتركة لونًا دوليًا.

وقد أثرت تقارير بريموند فى نفس وينجيت تأثيرًا بالغًا، فقد وصف الأوضاع العامة فى الحجاز بأنها شديدة الخطورة، وكان يقترح التدخل المباشر. ولما كانت خبرتى الشخصية فى شعور العرب فى منطقة آل حرب قد زودتنى بمعلومات كافية، لذلك قدمت للجنرال كلايتون الذى كان يدير المكتب العربى مذكرة تتعلق بجميع الأمور حول هذا الموضوع.

وقد أعجب كلايتون بما قلته من أن العشائر تستطيع الصمود والدفاع عن رابغ لمدة شهور عديدة إذا هى زودت بالمدافع والأسلحة بالإضافة إلى بعض النصائح لقادتها. وقلت إنه من الخير أن نترك لها هذا الأمر لأنها ستنسحب إلى مضاربها حال سماعها بوصول قوات أجنبية إلى البلاد.

وحملت هذه المذكرة إلى السير (مورى) الذى أعجبته لهجتها العنيفة. وسرعان ما أبرق بها بعد أن اعتبرها دليلا قويًا على أن الخبراء البريطانيين الذين يقولون بحرمانه من القوة العسكرية التى هى فى أشد الحاجة إليها قد انقسموا فيما بينهم حول هذا الموضوع بالذات. واستدعانى بعد ذلك القائد العام لمقابلته. وقبل أن أصل إلى مكتبه كان بانتظارى أحد المرافقين حيث أدخلنى مكتب رئيس الأركان الجنرال (ليندن بل). وما إن رآنى حتى هب واقفًا على قدميه وتقدم نحوى ومال نحوى ممسكًا بكتفى قائلاً لى:

ـ يجب عليك ألا تخيفه، ولا تنسى ذلك أبدًا.

وذهلت للمفاجأة وبدت الحيرة فى وجهى حين رأيت اللطف يشع من عينه الوحيدة. ثم طلب منى أن أجلس عنده قليلا وراح يحدثنى عن الحياة الجامعية فى أكسفورد، وعن الأهمية الكبرى للتقرير الذى أرسلته عن فيصل وجنوده، وأعرب لى عن أمله فى أن أرجع مرة ثانية إلى الجزيرة العربية لأتابع ما بدأته بنجاح. وكان يردد بعض الأقوال عن حالة الإرهاق التى تسيطر على القائد العام.

لقد وجدت حديث رئيس الأركان مسليًا جدًا ووعدته بأن أكون رفيقًا مع القائد العام. لكننى أفهمته بوضوح أن هدفى هو الحصول على كل ما يحتاجه العرب من معدات

اضافية وأسلحة وخبراء. وهنا أجابنى الجنرال ليندن بل بقوله المفاجئ: إن الأسلحة والإمدادات متعلقة به شخصيًا، وهو سيعمل حالاً على إجابة طلبى هذا. وللحقيقة لقد حافظ الرجل على وعده وأحسن معاملتى. وبذلك أصبحت رجلاً لطيفًا للغاية بالنسبة للقيادة العامة.

■■■

2
التقـدم إلـى الشـمال

■ ■

(1)

بعد بضعة أيام من اجتماعى مع القائد العام استدعانى كلايتون إلى مكتبه حيث طلب منى أن أعود إلى الجزيرة العربية مرة أخرى وأبقى إلى جانب فيصل، ولما كان هذا الأمر لا ينسجم مع طبيعتى، لذلك فقد ناقشته فى عدم كفاءتى لهذه المهمة وقلت له بأننى أكره المسئولية وبخاصة أن مهمة المستشار تحمل مسئوليات كبيرة. فقد كنت طيلة حياتى أجد متعة خاصة فى دراسة الموضوعات أكثر مما أجده فى دراسة الأشخاص. وقد لمحت له أن السردار قد أبرق إلى لندن يطلب ارسال الضباط ليقوموا بدور المرشدين الناجحين وليوجهوا العرب هناك.

وكان جوابه أن الأمر لا يحتاج إلى السرعة، وقد تمضى أشهر قبل أن يصل هؤلاء الضباط، وعلينا أن نربط فيصلا بنا وأن نؤمن له الإمدادات التى يحتاج إليها. وهكذا ترتب على أن أعود إلى البلاد العربية متخليًا عن مهمة إصدار المجلة العربية الاسبوعية ورسم الخرائط التى كنت أريد أن أرسمها بنفسى. وكانت كل هذه الأعمال رائعة فى نظرى. ولكن الأمر الآن يقضى بأن أقوم بدور لا أرغب فيه، ولا أدرى ما الذى سأفعله.

كان على أن أذهب إلى «ينبع» التى أصبحت الآن القاعدة الأساسية لجيش الأمير فيصل، حيث كان «جارلند» يقوم بمهمة تدريب العرب على نسف الخطوط الحديدية بالديناميت، ويعلمهم كيفية المحافظة على مستودعات الجيش وابقائها مرتبة بشكل منظم. وللحقيقة كان جارلند كفوءًا لهذه المهمة بالإضافة إلى معرفته التامة باللغة العربية

وتحرره التام من النظريات. فكل هذه الأمور قد هيأت له النجاح فى مهمته ونال إعجاب تلامذته لأنهم وجدوا فيه الرجل الذى يحل كل مشكلة.

وقد طرأت بعض التعديلات على الحجاز خلال الشهر الذى تغيبت فيه، فقد تراجع فيصل إلى وادى ينبع حسب الخطة السابقة، وكان يبذل جهده للمحافظة على مؤخرة جيشه قبل أن يهاجم الخط الحديدى، كما توجه زيد من رابغ إلى وادى صفرا كى يخفف عن فيصل عبء قيادة عشائر آل حرب المتعبة، وكانت هذه القبائل المقيمة فى الخطوط الأمامية توجه ضربات شديدة إلى خطوط مواصلات الأتراك الممتدة بين المدينة وبئر عباس. كما كانت ترسل إلى فيصل يوميًا قافلة كاملة من الجمال والأسلحة التى تغنمها بالإضافة إلى الأسرى والفارين من الجندية.

وفى يوم ٧ تشرين الثانى، دب الذعر فى مدينة رابغ نتيجة لظهور الطائرات التركية وتلاشت معنويات السكان. ولكن لم تمض أيام معدودة حتى ظهرت فى السماء الطائرات البريطانية الأربع بقيادة الماجور «روس» الذى كان يجيد العربية بالإضافة إلى مزاياه كقائد بارع. وعادت المعنويات ترتفع وسكن روع السكان. وبعد ذلك بدأت المدافع تتدفق علينا أسبوعيًا حتى أصبح لدينا ثلاثة وعشرين مدفعًا منها، لكنها كانت جميعها من طراز بال.

كان الشريف على يقود ٣٠٠٠ مقاتل من المشاة، منهم ٢٠٠ من الجنود النظاميين يرتدون الزى الرسمى تحت قيادة عزيز المصرى، وترافقهم فرقة من الهجانة يبلغ عددها ٩٠٠ رجل، كما الحقت بهم قوة مصرية عددها ٣٠٠ جندى. أما الشريف عبدالله فقد غادر مكة فى يوم ١٢ تشرين الثانى وبعد أسبوعين وصل إلى المكان الذى قرر أن يصله فى السابق إلى المراكز الواقعة شمالى شرقى المدينة، حيث يتمكن من قطع الإمدادات القادمة من القصيم والكويت إلى القوات التركية. وكان عبدالله يرأس عددًا يزيد على الأربعة آلاف رجل، ولكن لم يكن لديه سوى ثلاثة مدافع رشاشة وعشرة مدافع جبلية قديمة مهترئة غنمها فى الطائف ومكة. لذلك فقد اعتبر غير مجهز تجهيزًا كافيًا لينفذ

الخطة الرامية إلى الاستيلاء على المدينة المنورة بمساندة على وفيصل. ولكن كل ما يمكنه القيام به هو محاضرة المدينة فقط.

واتخذ من «الحناكية» مقرًا له. وهى موقع صحراوى يقع على مسافة ٨٠ ميلا شمالى شرقى المدينة أما المستودعات فى قاعدة ينبع، فقد تم معالجة أمرها بحكمة، فقد أناط جارلند أمر الإشراف عليها إلى عبدالقادر حاكم ينبع الذى نفذ مهمته بكل دقة ومهارة، ما أتاح لنا فرصة التركيز على أمور أكثر أهمية من الالتفات لشئون التخزين والمستودعات.

وفى هذا الوقت عزم فيصل على احتلال (الوجة) وتخليصها من أيدى رئيسها المتقلب سليمان بن رفادة الذى منحه الأتراك لقب باشا بالإضافة إلى بعض الأوسمة، فقام ابن عمه حامد الذى كان يعمل فى خدمة الشريف واستولى على قافلة من الجمال يبلغ عددها ٧٠ جملاً محملة بالذخيرة والإمدادات إلى الحامية التركية الكائنة فى (الوجة). وعندما كنت فى طريقى إلى موقع «خيف حسين» لأعاون فيصلاً على احتلال (الوجة) وصلتنا انباء هزيمة الأتراك فى معركة دارت رحاها بالقرب من بئر حسين حين تقدمت فرقة تركية من الخيالة والهجانة إلى التلال وتوغلت فيها، فاحدقت فيها القوات العربية وقضت عليها.

●●●

(2)

كانت البداية لرحلتى طيبة مع وصول أنباء هذه الهزيمة. وكان رفيقى الشريف عبدالكريم البيضاوى شقيق محمد البيضاوى أمير جهينة. وقد أذهلنى شكل رفيقى الذى يشبه شكل الحبشى ولونه، ولكننى علمت بعد ذلك أن والدته كانت سوداء. وقد تزوج منها والده فى أواخر أيامه.

كان عبد الكريم هذا يبلغ السادسة والعشرين من العمر، مربوع القامة نحيل الجسد أسود اللون، سريع الحركة، قويًا نشيطًا. وكان يضمر للأتراك حقدًا وكرهًا شديدين لأنهم كانوا يحتقرونه بسبب لونه (العرب لا يحتقرون الإنسان بسبب لونه). ولكنه كان رفيقًا مرحًا للغاية، وكان يرافقه أربعة من رجاله المدججين بالسلاح.

كانت رحلتنا هذه تعتبر رحلة سريعة للغاية، فعبد الكريم من أسرع فرسان العرب. وكان يفاخر بأنه يجتاز ثلاث مراحل فى مدة يقطع فيها غيره مرحلة واحدة. ولم اعترض على إسراعه فى السير سيما والطقس كان رطبًا منعشًا، ولكن بعد مضى ثلاث ساعات من السير المرهق أحسست بالجوع ينهشنى، فترجلنا عن الجمال وتناولنا بعض الطعام وشربنا القهوة العربية، ثم ارتحت قليلاً حتى غروب الشمس، بينما كان عبدالكريم يمضى الوقت فى مصارعة أحد رفاقه أو فى التحدث والتفكه بالنكات والروايات المضحكة.

وقبل شهر تقريبًا عندما كنت فى طريق عودتى من «الحمرا» سرنا جنوبى تهامة، والآن فنحن نخترقها ونصعد وادى (عقيدة) وهو وادٍ رملى ضيق متعرج بين التلال المحيطة به. وقد اضطررنا للسير على مهل بسبب ليونة الأرض ما أغضب رفيقى عبدالكريم وسرنى كثيرًا. ولكن بعد مسيرتى ساعة واحدة على هذا المنوال بلغنا أرضًا سهلة ما لبث عبدالكريم أن هبط بنا بسرعة جنونية إلى منحدر التل، ولحسن حظنا كانت الطريق مغطاة بالرمال الناعمة، وبقينا على هذه الحال نصف ساعة إلى أن استوت بنا الطريق فوجدنا أنفسنا أمام بستان من بساتين النخيل التى تخص عشيرة جهينة. وما إن اقتربنا حتى شاهدنا ألسنة النيران تندلع من الأشجار وسحب الدخان ترتفع إلى السماء، وسمعنا صوت الرصاص يلعلع فى ظلام الليل، كما سمعنا أصوات الرجال يصرخون كأنهم ضلوا طريق رفاقهم. وبدا لنا الأمر شديد الغرابة، إذ إن هذا البستان قد هجره أهله منذ زمن طويل. فتقدمنا بهدوء حتى وصلنا إلى مجموعة من البيوت الهادئة، فدخل عبدالكريم أول بيت وصلناه ثم تبعناه حيث عقلنا الجمال. وجهز عبدالكريم البندقية وتسلل إلى مصدر الصوت ليستطلع لنا الأمر.

وقبعنا فى مكاننا ننتظره والليل البارد يلسعنا لسعًا. وبعد نصف ساعة عاد عبدالكريم ليخبرنا أن فيصل قد وصل منذ قليل مع جنود الهجانة، وعلينا أن نذهب لنلتحق به على الفور. فأخذنا الجمال وخرجنا إلى الباحة حيث امتطيناها وسرنا على طريق صغير أقيمت على جوانبه المنازل إلى أن وصلنا ساحة تعج بالرجال والجمال بشكل فوضوى والجميع يصيحون.

شققنا طريقنا وسط الجموع وانحدرنا فجأة إلى وادى ينبع، وهو واد عريض لا يعرف عرضه إلا بواسطة النيران التى شاهدناها تتصاعد فى الليل على شكل خطوط من جانبيه اللذين تفصل بينهما مسافة طويلة. وكان المنحدر رطبًا بسبب السيول التى غطته قبل أيام، وسارت الجمال ببطء وخوف، وكان رجال فيصل يملئون الوادى من جانبه إلى الجانب الآخر. وكانت النار تلتهم الأخشاب التى يجلس حولها بعض الرجال يحتسون القهوة ويعدون الطعام. بينما كنا نجد البعض الآخر قد التف بعباءته واستسلم لنوم عميق.

ورأينا الدوريات العسكرية تخرج للاستطلاع، وبغال الجيش المصرى تضرب الأرض بأقدامها غاضبة بينما كانت الجمال تطلق صيحات مخيفة، وتقدمنا خلال هذه الضوضاء العجيبة التى تصم الآذان. وفى مكان هادئ ساكن يقع قرب مجرى الوادى رأينا الشريف فيصل، فأوقفنا الجمال ونزلنا عنها فرأيناه يجلس متربعًا على بساط فرش على الحجارة، ويجلس بينه وبين مولود مخلص قائمقام الإمارة والطائف. وقد ركع قرب فيصل سكرتير يستمع إلى الأوامر التى يصدرها إليه، ووراءه رأينا سكرتيرًا آخرًا يقرأ بصوت عال تقريره بينما وقف قربه أحد العبيد حاملاً مصباحًا فضى اللون لينير له ما يقرؤه.

كان الليل ضعيف النسمات، والهواء الثقيل وألسنة النار تنتصب فى الهواء دون اهتزاز، وفيصل الهادى المطمئن كعادته يبتسم لى مرحبًا وهو يتابع إصدار أوامره للسكرتير. ثم ما لبث أن وقف ليصافحنى ويدعونى إلى الجلوس، يعتذر لى عن هذا الاستقبال، ثم يشير إلى العبيد بأن يغادرونا. وعندما انسحب العبيد أقبل علينا جمل هائج وهو يرغى ويزبد، فقفز مولود مخلص وأمسك برقبته ودفع به إلى الوراء، لكن الجمل طرحه أرضًا ووقع عن ظهره ما كان يحمله من علف للجمال، فما كان من الأمير فيصل إلا أن قال:

ـ نشكر الله على أن حمل هذا الجمل لم يكن ذهبًا...

ثم راح يشرح لنا الأحداث غير المتوقعة التى حدثت خلال الأربع والعشرين ساعة المنصرمة، فقال: إن الأتراك قد تسللوا من وراء الحاجز الذى أقامته قوات العشائر فى

وادى صفرا، وقطعوا طريق العودة على العشائر، ولما أدرك هؤلاء حقيقة وضعهم ذعروا أشد الذعر وانتابهم القلق. وتقسموا فرقًا صغيرة، وحاولوا الهرب غير عابئين بالخطر الذى سيصيبهم، فلحق بهم الأتراك من الخيالة ونزلوا الوادى الخالى من المقاتلين وسلكوا طريق دهفرين إلى موقع بئر سعيد، وباغت قائدهم غالب بك الشريف زيد وهو نائم فى خيمته. لكن الشريف زيد أُنذر فى اللحظة المناسبة فاستطاع بمعاونة الشريف عبد الله بن ثواب ـ المحارب الشجاع من آل حارث ـ أن يصد الهجوم، وأتاح للشريف زيد الفرصة للرحيل بخيامه ومتاعه. وبعد أن هرب زيد تشتت قواته وهامت على وجهها فى الصحراء باتجاه ينبع، وهكذا أصبح الطريق مفتوحًا الآن أمام الأتراك. وهذا ما حدا بالأمير فيصل أن يأتى إلى هذا المكان على جناح السرعة ومعه ٥٠٠٠ مقاتل كى يحول دون سقوط القاعدة فى ينبع ثم يعد خطوطه من جديد ويحصنها بقوة.

وقال فيصل: إن جهاز استخباراته قد فشل تمامًا، لأن عشيرة حرب قد فقدت قدرتها على التجسس ليلاً، وأفرادها يقدمون له التقارير المتعارضة ويزودونه بالمعلومات المتناقضة عن القوات التركية وتحركاتها ونواياها. وبات لا يعلم إذا كان الأتراك سيتجهون إلى ينبع أم سيكتفون بالمحافظة على الممرات التى تربط وادى ينبع بوادى صفرا، لذلك فقد وجد فيصل أن أحسن ما يمكنه القيام به هذه الأحوال هو أن يأتى بقواته إلى موارد الماء كى يجتذب القوات التركية ويعيقها بضعة أيام، حتى يتسنى لنا تحصين ينبع.

وكان هذا التدبير الذى ارتآه فيصل حكيمًا، وبدا وكأنه متفائلا. وهكذا جلست فى مكانى أستمع إلى أخبار العرب، أو بالأحرى أستمع إلى طلباتهم وشكاواهم ومتاعبهم. وكان الشريف شرف طيلة الحديث يمسك بالسواك وينظف به أسنانه، ولم يتكلم إلا مرة أو مرتين. أما بالنسبة لمولود مخلص فكان يمد رقبته من فوق فيصل ليعلق ببضعة كلمات التى قد تساعد على تهيئة الهجوم المضاد.

وطال بنا الحديث إلى الساعة الرابعة والنصف صباحًا، وشعرنا بالبرد القارس ينخر عظامنا. وراح الرجال المتعبون يغطون فى نوم عميق وبقربهم الجمال المنهوكة القوى. وهدأت الضجة رويدًا رويدًا إلى أن ساد الصمت المكان. وبعد أن انتهى فيصل من أعماله

المستعجلة تناولنا شيئًا من الثمر والتففنا بعباءاتنا واضطجعنا على البساط، وقد رأيت حرس فيصل عندما تأكدوا من استغراقه فى النوم ينشرون عليه عباءاتهم بلطف وعناية.

* * *

كان الرسل يقبلون على فيصل من الأماكن يحملون إليه الإشاعات والأقاويل بأن الأتراك بدءوا هجومهم الكبير. وساد المعسكر شىء من الرعب، وقرر فيصل أن ينتقل إلى مكان آخر. وأصبح رحيلنا أمرًا ضروريًا، فالوادى إذا ما سال فإنه سيغرقنا ويجرف متاعنا. وقرعت الطبول وأسرع الرجال إلى تحميل جمالهم وقفز كل منهم إلى جواده وامتطى فيصل صهوة جواده وتبعه الشريف شرف ومن خلفه على الجندى حامل اللواء ووجهه يشبه الصقر تتدلى ضفائره السوداء على وجنتيه ويغطى جسمه بعباءة زاهية مرتفعة الثمن.

وراح فيصل يبحث عن مكان يصلح لإقامة معسكره إلى أن اهتدى إلى مكان فى واد صغير مكشوف يقع إلى الشمال من بساتين نخل قرية «مبارك». وكان معظم بيوت القرية بين البساتين، فلم نتمكن إلا من رؤية القليل منها. وضرب فيصل خيمته على الضفة الجنوبية للوادى. أما الشريف شرف فكان له خيمة خاصة شاركه إياها بعض شيوخ العشائر. وتوزع الجنود حولهم فى نظام بديع.

●●●

(3)

بقينا فى ذلك المكان مدة يومين، وقد أمضيت معظم وقتى مع فيصل. وتمكنت بذلك من اكتساب مزيد من الخبرة وتعرفت إلى أساليبه الخاصة فى القيادة، وأحسست بالجهود الكبيرة التى يبذلها فى سبيل رفع معنويات رجاله. كان يشدد من عزيمة كل واحد منهم ويفتح بابه لكل طارق يريد مقابلته. وكان يستدعى الشريف شرف أو فايز ليساعداه فى حل بعض المشاكل المستعصية. وقد تعلمت منه دروسًا مهمة فى الصبر والجلد، وأفهمنى معنى الزعامة فى البلاد العربية. أما بالنسبة لتمالكه جماح نفسه فكان

أمرًا مذهلاً. وعندما أتاه مرزوق الكحيمى يحمل إليه نبأ هزيمة أخيه زيد الشائنة انفجر بالضحك أمام الجمع وطلب منه أن يخرج خارج الخيمة واستأنف حديثه الهادئ مع شيوخ عشيرة حرب وعقيل الذين كانوا المسئولين الوحيدين عن هذه الهزيمة. ولم يتعد حديثه معهم العتاب. لكن بعد أن غادر الشيوخ المكان استدعى مرزوق ثم أسدل ستائر الخيمة خلفه.

لقد فكرت وأنا أجلس قريبًا من فيصل بما يعنيه اسم فيصل، أى السيف القاطع بضربة واحدة، وخشيت هذا المنظر، لكن فيصل أفسح مكانًا لمرزوق على البساط وقال له:

- هيا، أخبرنا عن عجائب المعارك ورفه عنا قليلاً بحديثك.

وراح مرزوق، الجميل المحيا، الذكى، يسرد الأخبار حسب مشيئة فيصل، ويصف لنا بأسلوب عشيرة عتبة الطريقة التى هرب بها الفتى زيد. ثم وصف لنا الرعب الذى انتاب ابن ثواب، اللص المشهور، ومنظر حسين والد الشريف على الحارثى بعد أن فقد أباريق القهوة.

كان صوت فيصل ذا نغمة موسيقية عذبة. وكان يستعمل هذه النغمة الحلوة مع رجاله بعناية فائقة، وكان يتحدث إليهم بلهجتهم القبلية، وكان يتحدث بترو بطىء ويتعثر أحيانًا بين الجمل وهو يبحث عن الكلمة المناسبة التى تؤدى المعنى المطلوب. وكان فى بعض الأحيان يفيض بالمرح، وهى صفة بارزة فى خصال العرب. فقد تحدث ذات ليلة إلى بعض شيوخ عشيرة «رفاعة» الذين كان يريد أن يدفع بهم إلى احتلال سهل قرب (بئر الفقير)، وكان هذا السهل تحيط به احراج السنط وغابات الأثل. وقال لهم بلطف إن الأتراك سيتقدمون فى هذا السهل وعليهم أن يوقفوا تقدمهم وأن ينتصروا عليهم بإذن الله. وقال لهم: إن النصر لن يتم إن هم لم يدعوا إلى الله أن يمد فى عمره ويجعل حياته حافلة بالانتصارات. وبعد ذلك قاموا بمهمتهم خير قيام.

كان نظام حياتنا فى المعسكر بسيطًا. فعند الفجر يقوم الإمام ويصعد إلى تلة عالية وينادى بالجنود إلى الصلاة. وكان صوته الجهورى يوقظنا من النوم. وبعد أن ينتهى المؤذن من الآذان يتقدم من خيمة فيصل ويوقظه بطريقة مهذبة وبصوت عذب، ثم يأتى إلى

خيمتنا عبيد فيصل الخمسة (وهم من العبيد العتقاء، الذين رفضوا التخلى عن خدمة فيصل) وقد قال لى أحدهم إن خدمة فيصل عمل طيب. فيدخل هؤلاء إلى الخيمة ليقدموا القهوة.

وبعد ساعة من الزمن ترفع ستائر خيمة فيصل، وهذا يعنى ابتداء العمل، فيجتمع أربعة رجال أو خمسة وتتلى أنباء الصباح. وبعد ذلك يحضر العبيد طعام الإفطار، وكانت والدة فيصل الشركسية ترسل إلينا من مكة الكعك الشركسى المشهور الممزوج بالبهارات وأحيانًا أخرى يقدم لنا خادم فيصل الخاص بسكويتًا غريب الصنع والطعم. وبعد الانتهاء من الطعام تقدم القهوة المرة والشاى. وفى هذه الأثناء يملى فيصل على الكتاب بعض الرسائل والأوامر. وكان فايز الغصين المغامر أحد سكرتيريه، ورجل آخر يدعى إيمان، وهو رجل كئيب المنظر حزين الوجه عرف بين الرجال بالمظلة المتدلية من قبته. وفى بعض الأحيان يسمح لأحدهم بمقابلة خاصة مع فيصل، لكن هذا كان أمرًا نادر الحدوث ذلك أن خيمة فيصل كانت مخصصة لاستعماله الشخصى فقط.

وعندما ينتهى فيصل من أعماله قبل الظهر يغادر الخيمة الخاصة بالاستقبال ويعود إلى خيمته الخاصة، فنلحق به نحن رجال الحاشية مع بعض الضيوف، ثم يدخل علينا خادمه هجرس وسالم يحملان طبقًا وضع عليه طعام الغداء.

كان فيصل مدخنًا شرهًا إلى حد غريب ولا يأكل كثيرًا. بل كان يكتفى بأن يداعب الأرز والعدس واللحم بأصابعه منتظرًا حتى نشبع ثم يشير إلى الخدم بيده فيأخذوا الطبق ويأتى عبيد آخرون يحملون الأباريق لنغسل أيدينا أمام باب الخيمة. وكانت طريقة فيصل السريعة فى الأكل تثير شكوى بعض الرجال الشرهين أمثال محمد بن شفعة الذى يغادر الخيمة ليتناول الطعام مرة أخرى.

وبعد تناول الغداء نجلس لنتجاذب أطراف الحديث مع فيصل، بينما يقدم العبيد القهوة العربية وكئوس شراب له لون الشاى. وعند الساعة الثانية نغادر الخيمة، ويسدل الخدم ستائرها علامة أن فيصل ينام أو يطالع أو يقوم بعمل خاص. وعند رفع الستائر

يغادر فيصل خيمته ويذهب إلى خيمة الاستقبال ويستقبل زائريه. وطيلة اقامتى معه لم أجد عربيًا واحدًا يغادر خيمته غاضبًا أو متألمًا، وهذا يعود إلى ذاكرته القوية وحصافته، فهو لا يتردد أبدًا أو يتوقف بسبب نسيانه بعض الحقائق أو التفاصيل ولا يتخبط بأى عقبة.

وكان إذا تهيأ له بعض الوقت بعد جلوسه للمرة الثانية مع الناس، يخرج مع أصدقائه فى نزهة قصيرة.يتحدث معهم عن الخيل والنبات أو يتفقدون الجمال. وعند المغرب يذهب فيصل للصلاة حيث يؤديها جماعة مع أنه لم يكن ميالاً إلى المظاهر الدينية. وبعد الفروغ من الصلاة كان يجتمع بالأشخاص كل واحد وحده ويضع الخطط ويسيّر الدوريات، فقد كان يقوم بمعظم أعمال الحرب فى الليل.

وكنا نجلس معه ولم ألحظ مرة واحدة بادرة واحدة توجب استعجالنا لمغادرة خيمته. فمن طبيعته أنه كان أثناء الليل يخلد إلى الراحة ويبتعد عن كل عمل مشبوه، وكثيرًا ما كان يستدعى إلى خيمته فى الليل شيخ العشيرة المخيمة فى المكان الذى يعسكر فيه ويطلب إليه أن يحكى له حكايات عشيرته أو يقص عليه تاريخها وأنسابها، أو يطلب حضور شاعر العشيرة ويسأله أن ينشده قصائد العشيرة الحربية. فقد كان فيصل يعشق الشعر العربى ويصغى إليه بشغف وكان فى بعض الأحيان يقاطع الشاعر ليبدى رأيه فى بعض الأبيات الشعرية.

وكان فى بعض الأوقات يروى لى عما شاهده فى سوريا، بغية زيادة معلوماتى، ويسرد لى جزءًا من تاريخ تركيا السرى. كما يحدثنى ببعض الأمور العائلية. وقد علمت منه خفايا الكثيرين من رجال الحجاز وأحزابها.

وفى أحد الأيام سألنى فيصل إذا كنت أريد أن أرتدى الملابس العربية فى أثناء وجودى فى المعسكر. وطبعًا وجدت الفكرة مناسبة لأن الثياب العربية مريحة وتلائم نوع الحياة العربية.التى يترتب على أن أعيشها الآن. هذا بالإضافة إلى أن رجال العشائر قد اعتادوا على رؤية الثياب الكاكى يلبسها الضباط الأتراك فقط. فقد كانوا ينفرون من

هذه الثياب ومن مرتديها. وإذا ما ارتديت الثياب التى سيقدمها لى فإن رجال العشائر سيعاملوننى كأحد رؤسائهم وعند ذلك أتمكن من أن أتسلل إلى خيمة فيصل دون أن أثير انتباه الرجال وألفت أنظارهم، لذلك فقد وافقت على الفكرة فورًا وأنا مسرور بها.

وقد سر هجرس لما عرضه على فيصل. وراح يقدح زناد فكره ليصمم لى زيًا مناسبًا أنيقًا إلى أن اهتدى إلى ثوب من الحرير أبيض اللون كانت قد أهدته إلى فيصل عمته بمناسبة زواجه. فارتديت الثوب الفضفاض الجديد، ثم خرجت فى جولة حول بساتين نخيل قرية «مبارك» و«بورقا» لأعتاد على هذا الشعور الجديد الذى يبعثه فى نفسى هذا الثوب الجميل. وكانت تلك القريتان جميلتين تسران الناظر إليهما. وقد بنيت البيوت من الطين وتحيط بها البساتين الشاسعة من النخيل، وكانت قرية «مبارك» واقعة إلى الشمال يفصلها من الجنوب واد ملىء بالأشواك عن قرية «بورقا».

* * *

كانت إقامة فيصل فى القرية مؤقتة، لذلك قررت أن أسافر إلى بلده ينبع لأبحث جديًا فى مسألة الدفاع البحرى عن المرفأ. وقد وعدتنا وزارة الحربية بتقديم كل عون ممكن لنا. واتفقت مع فيصل أن أبحث مع الشريف الشئون وأن أتعاون معه على تنفيذ ما أرى مناسبًا تنفيذه.

وقد منحنى فيصل جملاً بديع اللون امتطيته فى سفرى إلى ينبع، وسرنا فى تلال «عقيدة» مجتازين طرقًا جديدة هى وادى «متراح» وذلك بسبب خوفنا من الدوريات التركية التى كانت تجوب المنطقة على الطرقات الرئيسية. وكان رفيقى فى هذه الرحلة هو بدر بن شفعة. وقد استمرت رحلتنا هذه نحو ست ساعات، ووصلنا ينبع قبيل الفجر. وقصدت منزل جارلند الخالى (كان يقطن على ظهر باخرة المرفأ) ولشدة تعبى نمت نومًا عميقًا على مقعد مستطيل، واستيقظت فى وقت متأخر على نبأ يقول أن قوات الشريف زيد تصل إلى المدينة «ينبع»، فأسرعت بمغادرة المنزل لأشاهد بعينى جنوده المهزومة. فرأيت نحو ٨٠٠ جندى يسيرون صامتين غير مهتمين كثيرًا بالعار الذى لحق بهم،

وشاهدت اللامبالاة المرتسمة على وجه الشريف زيد الذى كان يدخل المدينة غير عابئ بما جرى لجيشه، وما إن رأى عبدالقادر حتى صاح به:

- لماذا تبدو مدينتك مهجورة خربة؟ يجب أن أبرق إلى الوالد كى يزودك بالمعماريين ليعيدوا لك بناء المدينة.

وكان هذا ما فعله حقًا.

وأبرقت إلى الكابتن (بويل) لأخبره أن المدينة مهددة بشكل خطير، وأجابنى بأن الأسطول يصل فى الوقت المناسب، وربما وصل قبل ذلك. وكان فى هذا النبأ خير عزاء لنا، لكن اخبارًا سيئة وصلتنا فى اليوم التالى. فقد أرسل الأتراك قوة عسكرية اشتبكت مع فيصل فى (نخل مبارك) قبل أن يتمكن من إتمام استعداداته، فاضطر فيصل إلى التراجع إلى ينبع. وبدا لى فجأة أن حربنا هذه قد شارفت على نهايتها، وأخذت آلة التصوير والتقطت صورة جميلة للأخوين وهما يدخلان المدينة ورأيت الأمير فيصل يدخل المدينة على رأس جيش قوامه الفا رجل، لكن لم أجد أحدًا من رجال عشيرة جهينة. وسارعت على الفور لزيارة فيصل الذى أخذ يقص على ما جرى له، فقد هاجمته ثلاثة أفواج تركية وعدد من المشاة راكبى البغال والجمال. وكانت هذه الأفواج تحت قيادة غالب بك الذى سيّر المعركة بذكاء كبير تحت إشراف القائد العام للجيش التركى فى الحجاز فخرى باشا الذى رافق الهجوم. وكان مرشده ووسيطه بين رجال العشائر (دخيل الله) قاضى جهينة ومنافس الشريف محمد على البيضاوى والرجل الثانى فى العشيرة المذكورة.

وقد تمكنت هذه القوة التركية أن تدرك قرية «بورقا» فى أول اندفاع لها. وبذلك تكون قد هددت خطوط مواصلات فيصل إلى ينبع. وبعد ذلك راحوا يقصفون قرية (نخل مبارك) بالمدافع. ورد عليهم فيصل بأن أرسل المدفعية المصرية إلى جبل عقيدة كى يحول دون سقوط هذا المكان بين أيدى العدو، ثم راح يقصف قرية «بورقا» بالمدفعين اللذين يملكهما وهما من عيار ١٥ رطلا. وكان الضابط الطورى (راسم) الذى كان يعمل فى

الجيش التركي سابقًا هو الذي تولى إطلاق المدفعين. وقد أبلى في هذه المعركة بلاء حسنًا رغم أن المدفعين كانا عتيقين مهترئين.

وقد أسرف راسم في إطلاق المدفعين لعلمه الأكيد بأنه لن يتمكن من نقل ذخيرة المدفعين في حال تراجع فيصل. لذلك حاول أن يستنفد أكبر قدر ممكن من القنابل بصبه على العدو. ولما رأى رجال العشائر ما يفعله القائد وهو يبدو فرحًا مغتبطًا ارتفعت روحهم المعنوية من جديد، وراحوا يكرون على الجنود الأتراك بشدة وعنف وتحسنت الأمور من جديد وعاد الأمل إلى نفس فيصل بالنصر. وفجأة إذا بجناحه الأيسر يضعف وإذا برجال عشيرة جهينة يفرون من الأعداء عائدين إلى المعسكر. وركض فيصل إلى راسم وصاح به:

ـ إن رجال عشيرة جهينة قد خانونا، وعليك الآن أن تنقذ المدفعين مهما كان الثمن.

فانسحب راسم على الفور بالمدفعين إلى وادي عقيدة، واندفعت خلفه جموع من رجال عقيل وعتيبة وابن شفعة. كما شكل فيصل وأفراد حاشيته مؤخرة الجيش المنهزم وساروا إلى ينبع تاركين وراءهم رجال عشيرة جهينة والأتراك.

وبينما كنت أصغي إلى هذه النهاية المؤسفة، سمعت ضجة قرب الباب وإذا بعبد الكريم البيضاوي يدخل علينا ويقبل رأس فيصل محييًا ثم يجلس إلى جانبنا وراح فيصل ينظر إليه محدقًا ثم سأله:

ـ كيف الحال؟

وأخبره عبد الكريم عن استياء عشيرته من هربه المفاجئ، وروى له أخباره وكيف أنه قاتل ببسالة نادرة مع أخيه وكيف قضوا الليل يقارعون الأتراك مع أفراد عشيرته دون مساندة من المدفعية، وأخيرًا بعد أن وجدوا أن الموقف أصبح ميئوسًا منه اضطروا للتراجع إلى وادي عقيدة. وقال إن أخاه يدخل المدينة الآن مع قسم من الرجال، أما الباقي فقد عرج على وادي ينبع للتزود بالماء.

وهنا سأله الأمير:

ـ لكن لماذا تراجعتم إلى المعسكر في أثناء المعركة؟

وأجابه عبد الكريم:

ـ لقد تراجعنا كى نتناول فنجانًا من القهوة. ولا تنسى أننا حاربنا من الفجر حتى الغسق، وقد عطشنا وتعبنا.

وأغرقت وفيصل فى الضحك حتى استلقينا على ظهرينا، ثم أخذنا نفكر بالذى يجب أن نعمله لإنقاذ بلدة ينبع. فأعدنا أول الأمر رجال جهينة إلى وادى ينبع حيث أفهمناهم بوجوب التجمع فى موقع (الخيف) والاستمرار فى الضغط على خطوط المواصلات التركية. وطلبنا منهم أن يرسلوا القناصة إلى تلال عقيدة، فقد كانت خطتنا تهدف إلى إكراه العدو على توزيع قوته كى يجمدوا فى مكانهم ولا يتقدموا نحو ينبع بقوات كبيرة تزيد على القوات المدافعة عنها.

وفى هذه الأثناء بدأت المدافع تصل إلينا، وقد حشد (بويل) خمس سفن فى الميناء فى مدة لا تتجاوز الأربع وعشرين ساعة. وكانت أعمال هذا الرجل دائمًا تسبق كلامه. وقد سر العرب كثيرًا بمشاهدة السفن وراحوا يعدونها وهى ترسو فى الميناء، وكانوا على استعداد تام للقيام بمساهمة فعالة فى المعركة وملئوا صدورنا أملاً بالثبات.

وحتى نزيد من ثقة العرب رحنا ندعم سور البلدة بسور آخر قوى، بل دعمناه إلى حد لا يمكن حتى للقنابل الجبلية أن تخترقه. ثم أقمنا أوكارًا للمدافع الرشاشة فى الزوايا المخبأة. وكان جارلند يعمل آنذاك بمثابة كبير المهندسين.

وعند غروب الشمس ساد الحذر البلدة، فالنهار الذى كان يملأ الجو بالضوضاء وأصوات الرصاص الذى يطلق ابتهاجًا قد توقف وجاء الليل بصمته الرهيب. لكننا لم نستطع النوم. وفى الساعة الحادية عشرة انذرنا بأن دورياتنا الأمامية قد صادفت العدو على بعد ثلاثة أميال من المدينة. وعلى الفور أخذ جارلند مكبر الصوت وراح ينبه الرجال والحامية، وتدفق الجند والتحق كل واحد منهم بمركزه، كما أرسل رجال البحرية فى المنارة انذارًا إلى السفن التى سلطت أضواءها الكشافة على السهل لتحدد لنا الأماكن التى يمكن للعدو أن يهاجمنا منها. ولكن لم تبدُ من الأتراك بادرة تضطرنا إلى إطلاق النار.

وقد أخبرنى فيما بعد دخيل الله أنه قاد الأتراك إلى أسوار ينبع كى نقضى عليهم، لكنهم ما إن وصلوا حتى وجدوا أن المدينة هادئة ساكنة، ورأوا السفن فى الميناء ترسل أنوارها الكاشفة، فخانتهم أعصابهم وانسحبوا عائدين.. وهكذا خسر الأتراك فى هذه الليلة حربهم فى الحجاز.

●●●

(4)

وفى اليوم التالى علمنا أن رجال عشيرة جهينة قد نشطوا فى ضرب جناح الجيش التركى عند وادى ينبع، وهكذا فشل الأتراك فشلاً ذريعًا فى حملتهم هذه.

وكان جواب السير ارشيبالد مورى ردًا على رسالة بعث بها فيصل يطلب فيها أن يمنع سحب القوات التركية من سيناء كى يرسلوها إلى الحجاز، وكان الجواب مرضيًا جدًا ومشجعًا. تنفسنا الصعداء بكل ارتياح، وبعد أيام سحب (بويل) سفنه طالبًا منا أن تخبره فى الوقت الذى نحتاج إليه وهو سيحضر على الفور. واغتنمت أنا هذه الفرصة لأذهب إلى رابغ حيث اجتمعت إلى الكولونيل (بيرموند) وكان لا يزال يحاول إقناع البريطانيين فى مصر بوجوب إنزال فرقهم فى رابغ.

وفى أثناء حديثى معه بينت له أهمية سقوط المدينة المنورة فى أيدى قوات فيصل. وهنا غضب وثار فى وجهى قائلاً أنه ليس من الحكمة أن يستولى العرب على المدينة، وهو يجد أن الحركة العربية قد وصلت إلى حد ذروته فى مكة، وفى عملياتها العسكرية التى تقوم بها بنجاح. لذلك فهو يطلب انزال القوات الحليفة فى رابغ كى يخفف من حماسة العشائر ويجعل الشريف حسين مشبوهًا فى نظرها. وعندئذ تضحى القوات الأجنبية هى القوة الرئيسية فى الحجاز حتى نهاية الحرب. وعند هزيمة تركيا سترغم على التنازل عن المدينة للشريف حسين وتعترف بسيادته القانونية للحجاز مكافأة له على خدماته للحلفاء.

وللحقيقة لم أكن واثقًا بقواتنا إلى هذا الحد كى نستغنى عن حلفائنا الصغار، لذلك أفهمته بطريقة مقتضبة أننى لا أوافق على فكرته وأن سقوط المدينة مهم جدًا، وعلى

فيصل أن يستولى على قرية الوجة كى نواصل تهديدنا للخط الحديدى الحجازى. ثم أردفت بقولى:

ـ إننى متأكد أنه لن يكون هناك أى سبب لبعث الحركة العربية إذا لم تصل الحماسة العربية إلى الشام.

لم يرحب الكولونيل بيرموند بقول، مع أن معاهدة سايكس ـ بيكو التى أبرمت مع بريطانيا وفرنسا عام ١٩١٦ قد جرى توقيعها لتحقيق هذا الأمر. فقد اشترط فى هذه الاتفاقية إقامة دول مستقلة فى كل من دمشق وحلب والموصل مكافأة للعرب وخوفًا من وقوعها تحت رقابة فرنسا المقلقة. وإذا كان كل من سايكس وبيكو لم يؤمن بمقدرة العرب على دخول الشام لكننى أنا كنت مؤمنًا أشد الإيمان بذلك. وكنت أعتقد أن هذا الأمر حال اتمامه سيمنع أى دولة كانت أهى بريطانيا أم غيرها من تنفيذ مشروعاتها الاستعمارية فى غربى آسيا.

وتهرب بيرموند من أقوالى محاولاً بحث الأمور الفنية، فأكد لى وهو يحلف بشرفه العسكرى كضابط ركن أن محاولة فيصل الاستيلاء على (الوجة) هى عملية انتحارية. لكننى لم أرَ ما رآه هو وقد أخبرته بذلك.

كان الكولونيل بيرموند كجميع مواطنيه واقعيًا فى الحب والحرب. وحتى فى الحالات الشعرية يبقى الفرنسى ثائرًا لا يخطئ. فهو يهتدى بنور العقل المباشر، لكنه لا ينظر إلى الجوهر المضىء للأشياء، كما هى حال البريطانيين الخياليين. لذلك لم يحسن كلا من البريطانيين والفرنسيين انجاز التعاون فيما بينهما لاتمام المهمة الضخمة الملقاة على عاتقهما. وعلى كل حال فقد كبحت جماع نفسى ولم أطلع العرب على ما دار بيننا من حديث، لكننى كتبت تقريرًا مطولاً عن هذه المقابلة إلى الكولونيل ولسن الذى كان يستعد لزيارة فيصل للتحدث إليه فى موضع (الوجة).

عدل الأتراك من خططهم العسكرية بشكل جذرى وذلك قبل وصول ولسن. فقد تراجع فخرى باشا عن فكرة احتلال ينبع بعد أن شعر باستحالة الأمر، وعزم على

الانسحاب إلى بئر سعيد حيث ترك قوة صغيرة تكفى لإشغال عشيرة جهينة. ثم تقدم على رأس قوته الرئيسية سالكًا طريق (السلطانى)، باتجاه رابغ.

وقد أجرى فخرى باشا هذه التعديلات بعد أن وصلت إليه أخبار ما أصبح لدى الشريف من قوات عسكرية ضخمة. فعندما سمع على بأخبار هزيمة أخيه زيد أرسل إليه بالإمدادات العسكرية والمدافع، كما أنه عندما وصله خبر انهيار جيش فيصل عزم على مهاجمة الأتراك فى وادى صفرا ليحول دون وصولهم إلى ينبع.

كان الشريف على يعمل على قيادة جيش يتألف من ٧٠٠٠ مقاتل. وكان فيصل يعتقد أنهما إذا تحركا معًا فإن الجيشين سيطبقان على قوات فخرى باشا، لذلك أبرق فيصل إلى أخيه على يطلب امهاله بضعة أيام يتمكن فيها من إعادة تنظيم جيشه. لكن عليًا لم يكن يريد الانتظار أكثر من ذلك، فأرسل فيصل أخاه زيدًا إلى المسحالى فى وادى ينبع ليقوم بالترتيبات اللازمة. وعندما انتهى زيد من مهمته أمره فيصل بالسير على رأس قوته لاحتلال «بئر سعيد» وقد نجح زيد فى هذه المهمة.

عند ذلك أمر فيصل عشيرة جهينة بالتقدم لمعاونة زيد. لكن العشيرة المذكورة ترددت فى تنفيذ أوامر فيصل لأن ابن البيضاوى، الذى شعر بنفوذ فيصل المتزايد بين أفراد عشيرته، أراد بهذا التردد أن يشعره بأنه رجل لا يستغنى عنه. فما كان من فيصل إلا أن توجه إلى قرية (نخل مبارك) وحده حيث تمكن من السيطرة على الموقف.

وبينما كان فيصل يتقدم بقواته وصله خبر من أخيه على يقول بأنه بعد استيلائه على بئر (بن حسين) ترددت اشاعات بين الصفوف عن خيانة عشيرة صبح، فخاف الرجال ودب بينهم الذعر وتراجعوا دون نظام إلى رابغ. وفى هذه اللحظة المشئومة وصل ولسن محاولاً إقناع فيصل بضرورة الهجوم فورًا على قرية (الوجة) معلنًا أنه قد أعد الخطة لهذه العملية وهى تقضى بأن يتوجه فيصل على رأس عشيرة جهينة مع قواته النظامية نحو الوجة للاستيلاء عليها.

لكن بلدة ينبع ستبقى مجردة من أى قوة للدفاع بحال اتباع هذه الخطة. كما أن جيش على لا يعتمد عليه فى الدفاع عن رابغ ضد هجمات الأتراك القوية. ولهذا السبب تردد

فيصل، وكى يبدد ولسن مخاوفه من وقوع رابغ راح يصور له قوة حامية رابغ بأنها قادرة على الدفاع عنها، فما كان من فيصل إلا أن طلب من ولسن أن يقسم له بشرفه العسكرى بإمكان الحامية ـ بمساندة الأسطول البريطانى ـ أن توقف أى هجوم تركى على البلدة. والتفت ولسن يمينًا ويسارًا مفتشًا عن عضد يساعده، وأخيرًا قدم بكل شهامة التأكيدات المطلوبة، والحقيقة فقد كانت مغامرة حكيمة فلولا تأكيدات ولسن الصادقة لما ترك فيصل المكان وتوجه إلى (الوجة).

كان احتلال الوجة الفرصة الوحيدة للعرب لفرض حصار دائم على المدينة المنورة، ومن ثم القضاء على كل تهديد تركى لمكة المكرمة. وبعد بضعة أيام استطاع ولسن أن يدعم مركزه حين اقنع الشريف حسين بإصدار أوامره الصريحة إلى فيصل بالسير حالا على رأس القوت الموجودة تحت امرته إلى الوجة.

وفى هذه الأثناء كانت الأحوال تزداد سوءًا فى رابغ، فقد قدر عدد القوات التركية المتقدمة على درب السلطانى بـ ٥٠٠٠ مقاتل. بالإضافة إلى أن عشيرة حرب الجنوبية التى كان يقودها حسين مبيرق كانت تنتظر وصول الأتراك لتهاجم بكل خبث مؤخرة جيش الشريف.

وفى ليلة عيد الميلاد اجتمع ولسن وبيرموند وجويس وروجى وغيرهم فى رابغ وقرروا إنشاء مركز دفاعى على الشاطئ يكون تحت سيطرة الأسطول وحمايته ويحرسه جنود الفوج المصرى وذلك كى يتيحوا الفرصة أمام بحارة السفينة (مينرفا) فى حال سقوط رابغ لينقلوا الاعتدة الحربية وتدمير المستودعات.

كان الأتراك يتقدمون إلى رابغ خطوة خطوة. وكان فخرى باشا بطيئًا فى تقدمه ولم يتعد منطقة بئر الشيخ بقوة ضخمة إلا فى آخر الأسبوع الأول من شهر ك٢، وبعد سبعة أيام لم يكن مستعدًا بعد للهجوم على الخريبة التى كانت مركزًا أماميًا يحرسه رجال الشريف على الذى لا يتجاوز دورهم بضع مئات.

والحقيقة أن الأتراك كانوا يجابهون ظروفًا صعبة، فالأمراض تفتك بهم ودوابهم كانت منهوكة القوى. بالإضافة إلى هذا كانت العشائر المعادية لهم تشن عليهم

الهجمات ليلاً. وكان يسقط منهم يوميًا ٢٠ قتيلاً ويخسرون بعض الجمال التى يستولى عليها المهاجمون.

وهكذا استمرت المتاعب فى وجه الأتراك ما حمل فخرى باشا إلى العودة سريعًا بعد الثامن عشر من شهر كانون الثانى متراجعًا عن طريق درب السلطان والانسحاب من وادى صفرا إلى ضواحى المدينة المنورة وإبدال الهجوم بالدفاع السلبى، واستمر هذا الدفاع حتى وضعت الهدنة حدًا للحرب، واضطرت بعدها تركيا إلى التنازل عن المدينة المنورة واستسلام حاميتها البائسة.

●●●

(5)

كان الأمير فيصل نشيطًا يمضى فى عمله حتى إنجازه. وبما أنه قد وعد بالسير إلى (الوجة) فقد جلست معه ليلة رأس السنة لندرس الأمر لنرى ما الذى تعنيه حركاتنا الجديدة بالنسبة لكل من الأتراك ولنا نحن. وكان الجنود فى جماعات صامتين. وكان البعض منهم بعد أن مضى عليه ستة أشهر فى خدمة فيصل قد فقد ذلك الشوق الفطرى الذى أعجبت به فى الحمرا، ولكنهم عوضوا عن ذلك باكتسابهم مزيدًا من الخبرة.

لقد أضحت وطنية الجنود وطنية حذرة، وازداد تقيدهم بالنظام كلما طالت المسافة بين معسكراتهم وقراهم. ومع أن الاستقلال العشائرى فى تلبية الأوامر ظل مسيطرًا عليهم إلا أنهم اعتادوا بعض الشىء على الانضباط. وعندما كان الشريف يقترب منهم كانوا يقفون فى صفوف متعرجة ويرفعون أسلحتهم إلى شفاههم.

وعلى الرغم من أنهم كانوا يفتقرون إلى الزيت للبنادق فقد كانوا يحافظون على سلاحهم ويبقون عليه فى حالة جيدة. وكان البعض منهم ماهرا فى اصابة الأهداف على مسافات بعيدة. وإذا كان رجال العشائر غير قادرين على القتال فى جماعات بسبب فقدانهم للنظام، إلا أنهم أقوياء حين يقاتلون بجماعات صغيرة. وكلما نقص عدد الرجال فى الوحدة ازدادت مقدرتهم على إتمام ما يعهد إليهم من المهام. فمثلا كان الألف منهم

يعجز عن صد سرية تركية واحدة، ولكن ثلاثة أو أربعة رجال كان فى مقدورهم الصمود فى وجه عشرات من الأتراك.

وكنا فى ذلك الوقت نمر فى ظروف دقيقة، ومنذ معركة «نخل مبارك» لم نعد نسمح للجنود المصريين بالقتال إلى جانب القوات غير النظامية. ولهذا السبب سحبنا السرية المصرية بعد أن سلمت أسلحتها إلى «راسم» و«عبد الله الدليمى» ضابط سرية المدافع الرشاشة فى الجيش العربى، وقام هؤلاء بتشكيل سرايا عربية من سكان المنطقة ثم جاء بالهاربين من الجيش التركى، ومعظمهم من أبناء العراق، وطلب منى مولود مخلص خمسين بغلا مع خمسين جنديًا من جنود المشاة.

وبعد أن انتهى التدريب القاسى الذى فرضوه عليهم، أصبحوا كلهم جنودًا ممتازين بل يمكن القول أنهم باتوا أعجوبة فى صفوف الجيش العربى، لذلك أرسلت أطلب خمسين بغلاً إضافيًا حتى أضاعف عدد هؤلاء بعد تبين لى أهمية هذه الوحدة القوية.

واقترح فيصل أن يمشى برفقة رجال العشائر كى يضفى على الجموع طابعًا عشائريًا مختلفًا وأردنا لهذا الزحف الذى كان هدفه وضع نهاية للحرب فى شمالى الحجاز أن تصل أخباره إلى شرق البلاد وغربها لنطرد من عقول أولئك القابعين فى منازلهم البلادة والتنافس القبلى.

كانت خطتنا الإكثار من الغارات العشائرية السريعة وتحويلها إلى عمليات عسكرية تهدف إلى الاستيلاء على الغنائم التى تجعل العشائر قادرة على حماية نفسها بنفسها، على أن يكون الهدف الحقيقى لهذه العمليات وقف الحاميات التركية فى أماكنها الدفاعية. وقد أرسلت مع زيد إلى رابغ لتنظيم الغارات المشابهة فى هدفها رسالة إلى قبطان السفينة (دفرين) ليسهل له أمر سفره. وكى أعود نفسى على هذه الغارات أخذت خمسة وثلاثين رجلاً من المحاميد من قرية (نخل مبارك)، وسرت بهم فى يوم ٢ كانون الثانى إلى القلعة التى مررت بها فى سفرتى الأولى من رابغ إلى ينبع، وعندما اقتربنا منها ترجلنا عن ظهور جيادنا وربطناها وأبقينا عشرة رجال لحراستها. ثم صعدنا تلال

دهفران وكان هذا العمل متعبًا لانحدار التلال الشديد وصخورها الحادة. وعندما بلغنا قمتها شعرنا بالريح العاتية تلسعنا. وأخيرًا رأينا المخيم التركى على بعد ٣٠٠ ياردة، فبدأنا نطلق الرصاص عليهم. وشاهدنا جمهرة من الجنود الأتراك يندفعون إلى الخنادق، وأجابوا على نيراننا بنيران قوية وجهوها إلى مختلف الجهات. وكان لصوت بنادقهم دويًا شديدًا، وقد خيل إلينا أنهم يهدفون من ذلك تنبيه الحامية فى الحمرا لتسارع إلى نجدتهم. ولما كان عدد العدو يزيد على عددنا بعشرة أصعاف وإن أول نجدة ستصل إليهم من الحمرا ستجعل من أمر انسحابنا أمرًا مستحيلاً، لذلك زحفنا بهدوء إليا لوادى عائدين حيث وجدنا جنديين تركيين أعزلين من السلاح فأسرناهما، وتبين لنا أنهما يحملان معلومات على جانب كبير من الأهمية.

كان فيصل لا يزال قلقًا لأنه ترك مدينة ينبع، فهى بالنسبة له قاعدته الرئيسية والمرفأ الثانى المهم فى الحجاز. ورحنا نتدبر الأمر فى أذهاننا لنحول دون وقوع البلدة فى أيدى الأتراك. وقد ذكرنا فجأة أن سيدنا الشريف عبدالله تحت قيادته خمسة آلاف رجل من القوات غير النظامية فى (الحناكية) كما أنه يملك بعض المدافع الرشاشة والمدافع الثقيلة علاوة على سمعته الطيبة التى اكتسبها بعد حصاره الناجح لمدينة الطائف. لذلك وجدنا أنه من العار أن نتركه دون عمل واتفقنا أنا وفيصل على استدعائه من الحناكية والطلب إليه أن يحتل وادى عيس الواقع على بعد ١٠٠ ميل من المدينة فيشكل بذلك تهديدًا مباشرًا لخطوط مواصلات فخرى باشا الحديدية مع الشام. ومن هذا الوادى يمكن لعبدالله ان ينفذ خطته لحصار المدينة من الناحية الشرقية فيمنع وصول قوافل الإمدادات من الخليج العربى إلى المدينة. هذا بالإضافة إلى أن وادى عيس قريب من ينبع التى يمكنها أن تمد جيشه بكل ما يحتاج إليه من ذخيرة وعتاد وطعام.

لقد كان هذا الرأى كأنه الوحى هبط علينا، فارسلنا حالا (رجاء الرولوى) إلى عبدالله ليقدمه له، وقد بلغت ثقتنا بقبول عبدالله لهذا الاقتراح أننا استعجلنا فيصلا بوجوب التحرك من وادى ينبع شمالاً كخطوة أولى فى طريق السير إلى الوجة، وذلك قبل وصول الرد من عبدالله.

(6)

كان علينا أن نمر بالطريق العريضة المخترقة وادى «مسارح» ومنها إلى واحة تتألف من مجموعة من الينابيع، وهى واقعة على مسافة إلى الشمال من ينبع. ولاحت لنا حينذاك التلال خضراء جميلة. وبدأت الطبول تقرع استعدادًا للرحيل ووقف كل جندى إلى جانب دابته المهيأة للسفر وهو يحيى الأمير فيصل حين يقترب منه ويرد عليه بقوله «السلام عليكم». وعندما مررنا بهم امتطوا جمالهم وساروا وراءنا فى صف طويل لا يدركه النظر متجهين إلى الواحة.

كانت تحية فيصل والرد عليها هى الكلمات الوحيدة التى نطق بها جمعنا الغفير. وما كدنا نبلغ قمة المرتفع حيث يتسع الوادى ويصبح منحدرًا قويًا حتى تقدم ابن دخيل الشيخ الحاذق بضع خطوات وأمر قارعى الطبول بقرعها. وصاح الجميع هاتفين بأنغام تمتدح الشريف وعائلته، وأصبح زحفنا رائعًا ففى المقدمة كان فيصل يسير بملابسه البيضاء وإلى يمينه الشريف شرف مرتديًا كوفية حمراء وعباءة بلون الحناء، وإلى يساره كنت أسير أنا بعباءتى البدوية، ووراءنا ثلاثة رجال يحملون ألوية ثلاثة ذات لون قرمزى باهت تتدلى منها خيوط حريرية بيضاء.

ملأنا بعددنا الضخم الوادى، وعند قمة (وادى المشراح) جاء رجل نحونا يحمل الرسائل إلى فيصل من عبدالقادر حاكم ينبع. وكان من بين الرسائل رسالة من السفينة (دفرين) جاء فيها أن قبطان السفينة يرفض أن يسمح لزيد بالسفر إلى رابغ قبل أن يطلع على الأوضاع الداخلية وتفاصيل الأحداث. وكانت السفينة ترسو فى (شرم) التى تبعد ثمانية أميال عن الشاطئ، لذلك وجدت من الأنسب أن أعود إلى دفرين لأصلح الأمر بنفسى.

زودنى فيصل ببعض الرجال من عقيل. وعدنا إلى ينبع مسرعين فأدركناها بعد ثلاث ساعات. وعندما وصلت وجدت الأمور على غير ما كنت منتظرًا، فزيد كان قد أقلع منذ الأمس على السفينة (دفرين) إلى رابغ. وكان هناك خلاف شديد بين السلطات العسكرية والمدنية.

فعبد القادر النشيط ذو الطبع الحاد كانت مهامه تزداد كلما اتسعت القاعدة فى ينبع وكلما ازداد عدد المستودعات، لذلك عين الشريف فيصل الماجور السورى توفيق بك مشرفًا على مستودعات المدفعية. ولكن لسوء الحظ لم تكن سلطاته واضحة ومحددة، فنشب خلاف بينه وبين عبد القادر حول تحميل صناديق فارغة للأسلحة فى السفينة (اسبيجل) وأغلق عبدالقادر المستودع وذهب إلى منزله ليتناول طعام الغداء. فما كان من توفيق بك إلا أن رجع إلى المستودع ومعه أربعة رجال ورشاش ومطرقة، فكسر قفل المستودع وفتحه عنوة. وعندما علم عبدالقادر بما قام به توفيق بك أخذ قاربًا وقصد إلى السفينة (اسبيجل) وفاجأ بحارتها المذهولين بقوله أنه جاء ليقيم بينهم إقامة دائمة. وقد احضر له خدمه الطعام إلى السفينة. ونام تلك الليلة فى سرير عسكرى على ظهر السفينة.

وأسرعت عند وصولى إلى تسوية الخلاف بين الرجلين، فطلبت من عبدالقادر أن يكتب تقريرًا عن الحادث إلى فيصل وتسلمت المستودع من توفيق بك وأحضرت الناقلة (اريتوزا) وبعد أن حملتها بالصناديق الفارغة موضوع الخلاف أرسلتها إلى السفينة (اسبيجل) ليشرف عبد القادر على نقل الصناديق إليها.

وأخيرًا جاء توفيق بك إلى الميناء وصعد إلى ظهر السفينة بعد أن استعرض حرس الشرف الذين لم يكونوا من الجنود النظاميين، وما إن رأى السفينة وقرأ اسمها حتى صاح بقوله:

ـ هذه هى السفينة التى أسرتنى فى قرنة.

ثم راح يقص علينا قصة وقوعه فى الأسر، وقد أثارت هذه القصة عبد القادر وجعلته ينسى خلافه مع توفيق بك.

وفى اليوم التالى جاء الشريف شرف ليحل محل فيصل فى ينبع، وهو رجل قوى الشخصية، وأكثر الأشراف مقدرة وكفاءة فى جيش فيصل، لكنه كان خاليًا من الطموح، وهو واسع الغنى، وقد سبق له أن شغل منصب قاضى القضاة فى بلاط الشريف. وكان

واسع المعرفة بأحوال العشائر وشئونهم وأفضل من يعالج قضاياهم ويفصل فيما بينهم. ولهذا كان رجال العشائر يهابونه. وكان جفنه الأيمن متهدلاً نتيجة لاصابة قديمة، ما أضفى عليه طابعًا من القسوة واليأس. وقد حاول جراح السفينة معالجته وأجرى له عملية جراحية تكللت بالنجاح، لكن التشويه بقى على ما هو.

وكان من رأينا أن سقوط ينبع فى أيدى العدو أثناء احتلالنا قرية (الوجة) أمر محتمل. لهذا قررنا أن نفرغ مستودعاتها ونقوم بنقل جميع المؤن والذخائر إلى السفن. وقد أرسل لى (بويل) اشارة بأن اختار بين إحدى السفينتين «دفرين» أو «هاردنغ» لإنهاء هذه المهمة، فوقع اختيارى على السفينة «هاردنغ» التى رست فى المرفأ بعد يومين من طلبى. وكانت هذه سفينة هندية مخصصة لنقل الجنود، فنقلنا إليها ٨٠٠٠ بندقية و٣ ملايين طلقة وآلاف القنابل بالإضافة إلى كميات ضخمة من الأغذية والملابس العسكرية والبترول.

وعندما جاء «بويل» قيل أنه سيحول هذه السفينة إلى مستودع عائم متنقل، وبذلك أزال عقبة رئيسية من أمامنا. وفى هذه الأثناء كان أسطول البحر الأحمر يتجمع حول ينبع، وكان قائد الأسطول الأميرال منتظرًا وصوله قريبًا. فانشغل البحارة للإعداد لاستقباله. ومن ناحية ثانية فقد كنت متأكدًا أن المعارك لن تنشب عند «الوجة» لأن فيصل يتقدم على رأس قوة مؤلفة من عشرة آلاف رجل، وكان هذا العدد كافيًا لأن يملأ منطقة عشائر بيللى بالرجال، وهذه العشائر الآن أصبحت مخلصة للشريف وللقضية العربية. لهذا السبب كنا واثقين من أننا سنحتل الوجة دون أى جهد. ولكن كنا نخشى شيئًا واحدًا هو أن وجود هذا العدد الضخم من الرجال يعنى القضاء على مضيفى الرجال أى عشائر بيللى جوعًا وعطشًا، لهذا رأيت أن من أهم واجباتى الرئيسية تأمين الإمدادات للجيش. هذا بالإضافة إلى أن سكان المنطقة ومنهم سكان قرية «أم لج» أصدقاء مخلصون، لذلك لم نكن نخشى جانبهم. وأرسلت إلى فيصل أعلمه أن كل شىء قد تم على ما يرام، وأصبحت الاستعدادات تامة، فغادر فيصل الواحة مع جيشه الكبير. وقد ورد فى نفس اليوم كتاب من الشريف عبدالله يقول فيه عن موافقته على السير

بجيشه إلى وادى «عيس». كما وردنى الخبر بوصول الكولونيل «نيوكمب» وهو رئيس البعثة العسكرية إلى مصر كما وصل ضابط الأركان «كوكس» و«فيكرى» وهما فى سبيلهما الينا.

أبحرت مع بويل على السفينة «سيوى» إلى «أم لج» ثم نزلت بعد ذلك لأستقصى أخبار فيصل. وأخبرنى شيخ القرية أن فيصلاً سيبلغ اليوم منطقة «بئر الوحيدى» حيث يتزود بالماء هناك. فأرسلت على الفور رسالة إلى فيصل، ومن ثم ذهبت إلى القلعة التى قصفها «بويل» منذ أشهر بالقنابل من سفينة «فوكس» فوجدناها متهدمة. وقال بويل وهو ينظر إلى حطامها: «كم أنا خجل من تهديم هذا البناء الخزفى».

وبينما نحن نتأمل أطلال القلعة جاءنا ثلاثة رجال متقدمين فى السن، ممزقى الثياب من أبناء القرية وطلبوا إلينا أن نستمع إلى شكواهم، وأخبرونا أن سفينتين قد جاءتا منذ شهرين وضربتا القلعة بالمدافع ودمرتاها على هذا الشكل المؤسف، وأنه قد طلب منهم إعادة بناء هذه القلعة لتكون مقرًا لشركة الحكومة العربية. لهذا جاءوا يطلبون منا أن نتكرم باعطائهم الأخشاب اللازمة.. وعندما سألنى بويل بنفاد صبر عما يقوله الرجال أخبرته بأنهم يصفون لنا الأثر المروع الذى أحدثه القصف فى نفوسهم.

* * *

فى اليوم التالى وصل الضابط (فيكرى) وهو مدنى أمضى عشر أعوام فى السودان حيث تعلم اللغة العربية هناك وأتقن الفصحى منها والعامية. وهذا ما وفر علينا مترجمًا. وذهبت مع فيكرى وبويل إلى معسكر فيصل كى نجهز الترتيبات الأخيرة ونعين وقت الهجوم على (الوجة). وبعد الغداء قصدنا مع فيصل ورفاقه لنضع تفاصيل خطة الهجوم هذه، واعتمدنا تقسيم الجيش إلى قسمين، على أن يمضى كل قسم منهما وحده إلى مكان التجمع فى منطقة تدعى (أبو زريبات) فى وادى حميص الذى هو آخر مورد ماء لنا خلال الطريق إلى (الوجة). ووعدنا (بويل) بأن يرسى سفينته هاردنغ فى ميناء شرم حبان ليزودونا بالماء. وقد طلبنا منه أن يأخذ معه جماعة من عشيرة حرب وفلاحى جهينة وينزلهم فى الناحية الشمالية من البلدة حيث لا توجد قوات تركية. وكانت هذه

الجماعة تحت قيادة رجل أسود يدعى صالح بن شفعة. فرضى بويل وأخذهم إلى السفينة.

هذا وقد جرى الاتفاق أن نصل إلى أبو زريبات فى نحو منتصف الشهر، ثم نتوجه إلى شرم حبان بقصد التزود بالماء من السفينة هاردنغ فنصل نحو ٢٢ من الشهر ذاته. وكان على بويل أن ينزل الجماعات من عشيرة حرب وجهينة إلى الشاطئ يوم ٢٧ منه بعد أن تكون فرق الخيالة قد أخذت مراكزها وأقفلت الطرقات المؤدية إلى البلدة لتمنع الأتراك من الهرب.

فى هذه الأثناء جاءتنا الأخبار أن الأتراك لم يستغلوا فرصة ذهابنا ليحتلوا بلدة رابغ، لذلك خالجنا إحساس عميق بالارتياح خاصة عندما وصلتنا اشارة من بويل فى رابغ بأن الأمور تسير على خير ما يرام. كما وردتنا أخبار أخرى تفيد بأن الشريف عبدالله قد أصبح على مقربة من وادى عيس، بعد أن أصبحنا نحن فى منتصف طريقنا إلى الوجة. وبذلك تكون المبادرة قد انتقلت إلى أيدى العرب. وقد سرنى هذا التقدم سرورًا عظيمًا لدرجة أننى فقدت أعصابى وقلت للشريف فيصل: «بعد عام من اليوم سنكون على أبواب دمشق...» وقد قوبل كلامى هذا بشىء من البرود، وعلمت أن فيكرى قد شكانى فيما بعد إلى بويل وقال بأننى رجل مغرق فى الأوهام وأعيش فى الأحلام، ولكن كلامى الذى بدا كأنه الجنون قد تحقق فعلاً، إذ لم تمض شهور خمس حتى كنت أدخل دمشق وبعد سنة تمامًا كنت شبه حاكم فعلى لها.

لقد خيب فيكرى آمالى، فقد كان يدرك أننى أجهل الأمور العسكرية ويعتقد أن ارائى فى الأمور السياسية سخيفة جدًا. وكنت أعلم أنه خبير عسكرى محنك، لكنه كان كالأعمى تمامًا لا يرى مدى القوة الكامنة وراء القضية العربية. والحقيقة أن العرب قد وقعوا فى أخطاء عديدة مميتة بسبب قبولهم لآراء لرجال الأوروبيين الذى لم يكن فى مقدورهم فهم الحقيقة الواضحة بأن الثورة هى حركة قومية قائمة بحد ذاتها لها أهدافها وغاياتها. وكان على المستشارين أن يفهموا تمامًا أن العرب إذا ما اعتمدوا

عقيدة قوية وأعطوا مقدرات أمورهم إلى نبى مدجج بالسلاح ليوجه أمورهم وجهودهم الضخمة فإن فى استطاعتهم أن يصلوا لا إلى دمشق فحسب بل إلى أبواب القسطنطينية أيضًا.

●●●

(7)

فى صباح اليوم التالى كانت السفينة هاردنغ تفرغ حمولتها على أحسن وجه، فذهبت إلى الشاطئ لأقوم بزيارة للشيخ يوسف الذى وجدته منهمكًا فى مساعدة رجال الشرطة وبعض القرويين الخائفين وعدد من رجال (مولود مخلص) فى إقامة حاجز على الطريق الرئيسية، وقد أخبرنى أن خمسين بغلاً قد نزلت من السفينة واقتحمت السوق لذلك فقد عمد هو ورجال الشرطة إلى سد الطريق ليتمكن مولود مخلص من تدبير أمرها. وكانت هذه البغال هى الدفعة الثانية التى أوصى عليها مولود كى تشكل فرقة الخيالة. وكنا نملك حبالاً أتينا بها من السفينة هاردنغ فصغنا منها (أرسنة) وبعد عناء كبير استطاع القرويون أن يمسكوا بالبغال وفتحوا متاجرهم التى اغلقوها وعوضنا عليهم تعويضًا مناسبًا عن الأضرار التى أنزلتها البغال بمتاجرهم، ثم توجهت بعد ذلك إلى معسكر فيصل الذى كان يمور بالحركة هو الآخر.

وفى المساء جلست مع فيصل اتحدث عن زحفنا المقبل. وكانت المرحلة الأولى وجيزة تنتهى بـ «سمتة» وبعدها كان أمامنا طريقان، واختيار الطريق المناسب منهما متوقف على فرق الاستطلاع وتقريرها حول مياه الأمطار، إذ إن الطريق الساحلية المباشرة تصل بنا بعد نحو ٦٠ ميلاً إلى بئر ماء، وكانت هذه المسافة طويلة بالنسبة لفرق المشاة. وكان الجيش فى بئر الوحيدى يتجاوز عدده خمسة آلاف رجل ويضم ١٠٠ من رجال الهجانة و٥٠٠٠ من المشاة، و٤ مدافع جبلية من نوع كروب و١٠ رشاشات و٨٠ جملاً لحمل الذخيرة والمؤن.

بعد الظهر من يوم ١٢ كانون الثانى تناولت طعام الغداء مع جماعة مرحة ضمتنى إلى الشريف جابر ونسيب وسامى البكرى وشقيق حسن شرف. وعند انتهائنا من الطعام

خرجنا من الخيمة فجاء بعض الرجال وطووا الخيمة وذهبنا إلى الجمال المهيأة للرحيل. وهنا سمعنا الطبول تقرع ثمانى مرات فساد الصمت فى المعسكر فجأة ورحنا ننظر إلى فيصل الذى قام من مجلسه حيث كان يتحدث مع عبدالكريم وأمسك بجمله وامتطاه وقال بصوت مرتفع:

- توكلنا على الله!

وعندما تحرك الجمل بفيصل امتطينا جمالنا وتحرك جمعنا الغفير.

وفى الصباح أدركنا قرية «سمنة» حيث هطلت الأمطار غزيرة فسررنا بها سرورًا بالغًا وجلسنا فى المعسكر الذى أقمناه لفترة من الزمن ثم استأنفنا السير من جديد. وقد انضم إلينا فى هذا الصباح (نيوكمب) ومعه محمد البيضاوى أمير قبيلة جهينة. وتابعنا سيرنا فوق رمال مستوية بين أشجار الشوك الكثيرة حتى وصلنا إلى شاطئ البحر. ثم سرنا شمالاً فى محاذاة طريق عريضة مطروقة هى طريق الحج المصرى التى تبعد خمسين ياردة عن الشاطئ. ورأينا حقلاً بركانيًا قديمًا غطت الرمال صخوره وبرز من التلال ليمتد داخل السهل إلى مسافة تقارب الخمسة أميال ثم يدخل فى البحر على شكل جبل. وكانت الطريق تمر فى هذا الحقل غير أن أطرافه القريبة منا كانت عبارة عن بقع طينية مستوية تخترقها فى بعض تجاويفها مياه ضحلة، وهذه كانت نهاية مرحلتنا فأشار فيصل لنا بالتوقف، فنزلنا عن ظهور الجمال وأسرعنا كلنا إلى البحر لنستمتع بالاستحمام فى مياهه.

وفى المساء بعد أن أوينا إلى خيامنا سمعنا جلبة وضوضاء وأصوات الرصاص تلعلع. وجاء أحد العبيد ليخبرنى وهو منقطع النفس:

- أخبار، أخبار، لقد وقع أشرف بك فى الأسر!

وقفزت من فراشى وخرجت من خيمتى وسرت إلى خيمة فيصل التى رأيتها تغص بالأصدقاء والخدم. ورأيت لدهشتى، رجلاً يدعى (رجا) يجلس بصورة غير طبيعية تنذر بالشؤم. ورجا هذا هو الذى أرسلناه إلى الشريف عبدالله نطلب منه أن يتحرك مع قواته

إلى وادى عيس. ورأيت على العكس منه فيصلاً يشع غبطة وفرحًا ورأيت عينيه منتفختين بالسرور وما إن رآنى حتى قفز إلى وهو يصرخ فرحًا:

- لقد أسر عبدالله أشرف بك...

عندئذ أدركت أهمية هذا الحدث... فقد كان أشرف بك هذا مغامرًا ذا سمعة سيئة ينتمى إلى الطبقة السياسية التركية المنحطة. وكان فى صباه قاطع طريق فى منطقة أزمير حيث ولد ونشأ. ولكن مع مرور السنين انقلب ليصبح رجلاً ثوريًا. وعندما قبض عليه عبد الحميد نفاه إلى المدينة لمدة خمس سنوات. وقد شددت الحراسة عليه فى المنفى إلا أنه تمكن من الإفلات والهرب إلى الأمير «شاهد» أمير العوالى. و«شاهد» هذا كان فى حالة حرب دائمة مع الأتراك، لذلك فقد أراه عنده. لكن أشرف الذى وجد أن الحياة مع شاهد مملة كئيبة استعار فرسًا أصيلة حيث ركبها واتجه بها إلى معسكر تركى، حيث رأى هناك ابن عدوه حاكم المدينة يدرب بعض الجنود، فهجم عليه واختطفه ووضعه أمامه على الفرس وغادر به المعسكر قبل أن يتمكن الجنود المذهولين من إدراكه، وسار به إلى جبل أُحد.

وقد اضطر الباشا إلى إعطاء أشرف ٥٠٠ ليرة ذهبية ليستعيد ولده، فاشترى بها أشرف جمالاً وخيمة ثم تزوج وراح يجول ويصول مع العشائر. وبقى على هذه الحال إلى أن نشبت ثورة جمعية تركيا الفتاة. فظهر مرة أخرى فى الأستانة وأصبح منفذًا لجرائم أنور باشا. وقد ساعدته هذه المهمة على إيجاد وظيفة محترمة كمفتش لهيئة إغاثة المنكوبين فى مقدونيا. لكنه استقال من وظيفته تلك بعد سنة واحدة، ولكنه استطاع فى خلال هذه السنة أن يشترى مزرعة تدر عليه دخلاً ثابتًا.

وعند نشوب الحرب عاد إلى المدينة مزودًا بالمال والرسائل من السلطات إلى بعض المحايدين كى يساعدوا على استئناف السير والحامية المعزولة فى اليمن. وقد صادف أن رأى بعض رجال عبدالله الذى كانوا فى طريقهم إلى وادى عيس قرب «خيبر» فأوقفهم وراح يسألهم عن هوياتهم، فأجابوه أنهم من عشيرة «هيثم» وأشاروا إلى طلائع جيش

عبدالله قائلين أنها قوافل محملة بالإمدادات إلى المدينة، فأمر أحد الرجال أن يحضر بقية رجال القوافل لاستجوابهم. فجاء الرجل ليخبر عبدالله عما حدث مع بعض الجنود الأتراك وقال أنهم فى معسكرهم عند التلة.

وارتبك عبدالله وارسل أحد الخيالة ليستطلع الأمر. وبعد فترة سمع صوت طلقات مدفع رشاش، فأدرك عبدالله أن الأتراك أرسلوا لواء منقولاً ليقطعوا عليه خط الرجعة، فأمر عند ذلك خيالته بالهجوم، فهاجم هؤلاء الرشاش الذى أوقع بهم بعض الخسائر وتمكنوا من تفريق الأتراك وهرب أشرف على قدميه إلى قمة التلة، وطلب عبدالله من رجاله أن يلحقوا به، وقال أنه سيعطى جائزة ألف جنيه ذهب لمن يقبض عليه حيًا. وقبيل الغسق تمكن الشريف «فوزان الحارث» من القبض عليه، وقد وجدوا معه مبلغ ٢٠ ألف جنيه من الذهب وثيابًا فاخرة وهدايا ثمينة وبعض الأوراق والمستندات البالغة الأهمية وكميات من الأسلحة والذخيرة. فكتب عبدالله رسالة إلى فخرى بك يعلمه فيها أن أشرف بك قد وقع فى الأسر، وألصق الرسالة على عامود التليغراف المغروس إلى جانب الخط الحديدى، ثم استأنف سيره إلى وادى عيس.

* * *

استأنفنا سيرنا فى صباح اليوم التالى إلى «أبو زريبات» وقبل أن نبلغ الضفة البعيدة للوادى تبدت لنا التربة لامعة نظيفة تغرق فى حوض من الطين، حيث رأينا فيها خزانًا من الماء يبلغ ثمانين ياردة طولا ويزيد على الخمسة عشر ياردة عرضًا، وعرفنا أن هذا هو خزان ماء أبى زريبات الذى كان هدفنا، فتقدمنا إلى الأمام حتى وصلنا إلى الضفة الشرقية المكشوفة حيث أشار فيصل لنا كى نضرب الخيام ونعسكر هناك.

وعند المساء بدأت جموع عشيرة بيللى تصل إلينا، وجاء بين هؤلاء حمد الرفاوى على رأس كتيبة من أفراد عشيرته حيث قدم ولاءه إلى الأمير فيصل. وقد أخبرنى أن ابن عمه سليمان باشا زعيم العشيرة وهو الآن فى أبو عجاج التى تبعد نحو ١٥ ميلاً إلى الشمال، وأنه يحاول أن يصل إلى قرار مناسب.

وفجـأة! دخل علينا الشريف ناصـر، شـريف المدينة، فهب فـيصل مـن مكانه وعـانقـه عناقًا حارًا ثم قاده إلينا. لقد كان الشـريف ناصـر رائد الثورة العـربية وهـو أول من ثار فى المدينـة وأول من أطلق الرصـاص. وقـد قـدر له أن يكون آخـر من أطلق الرصـاص فـيـهـا أيضًا؟ وذلك فى قـرية المسلمـية الـواقعـة شـمـالى حلب، وفى اليـوم نفسـه الذى طلبـت فيه تركيا عقد الهدنة مع الحلفاء، وكان سجله حافلاً بأعمال البطولة والفداء.

وهو شقـيق الشريف شهاد أمـير المدينة. وعائلتهما تنحدر من الحسين بن على بن أبى طالب، وهمـا الوحيـدين من سـلالة الحسين. وكانت سنه فى ذلك الوقت ٢٧ عامًا ذا جبهة منخفضة عريضة تناسب عينيه الحسـاستين. وقد أقام فى هذا المكان نحو شهرين ليقطع كل المواصـلات مـع الوجـة. وقـد أخبـرنى بأن رجـال الهـجـانة الأتراك الذين تمركـزوا على الطريق قد انسحبوا هذا الصباح إلى مراكز الدفاع الرئيسية.

وفى اليوم التالى، ذهبت مع نيوكمب لنلقى نظرة على الرجال أثناء تزودهم بالماء. وبعد قليل شـاهدنا سـحابة من الغبـار تنبئ عن وصـول جمـاعـة من الناس. فـرجعنـا إلـى خيـامنا فوجدنا رئيس خدم فيصل مرزوق الكحيمى يسير على رأس ابناء فخذه من عشيرة جهينة وهـم يمـرون بالأمير ليقومـوا باستـعراض أمـامه. ولقد أثـاروا الغبار فى وجـوهنا بينمـا كان شـيوخهم يحـملون راية كبيـرة حمـراء وأخـرى بيضـاء وهم يمتشـقون السـيـوف ويطلقـون الأعنة لخيولهم وهى تدور حول خيمة الأمير.

وعند الظهـر جاءت جموع فـخذ ولد مـحمـد من عشـيرة حـرب وهجانة بنى شـفـعـة إلى معسكرنا. وكان عددهم يجاوز الثلاثمئة وعلى رأسهم الشيخ صالح محمد بن شفعة.

وقد تأخرنا عن موعدنا مع الأسطول يومين، لذلك عزم نيوكمب أن يسبقنا ليجتمع مع بويل ويشـرح له أننا لن نصل فى الموعد المحدد إلى السـفينـة هاردنغ ويطلب منه تـأجيل الموعـد إلى يوم ٢٤ منه حـيث نكون فى أشـد الحـاجـة إلى الماء، كمـا طلبنا منه أن يؤخـر هـجوم السفينة حتى ٢٥ منه.

وعند الصبـاح امتطينا الجـمـال وسـرنا لمدة ثلاث سـاعـات فى وادى حمـد، ثم اتجهنا يسـارًا إلى أرض مـجدبة. وكـان الطقس باردًا وأخذت الـريح تهب من الشـاطئ الرمـادى لتلفحنا بسياطهـا. ووصلت إلى مسامعنا أصوات لعلعة الرصاص من جهة الوجة. وخشينا

أن يكون صبر الأسطول قد نفد فأقدم على الهجوم دون أن ينتظر وصولنا. فضاعفنا من سرعة تقدمنا إلى أن وصلنا فى صباح اليوم التالى إلى الشاطئ، ثم وصلنا «حبان» فى الساعة الرابعة من بعد الظهر، حيث وجدنا السفينة هاردنغ تنتظرنا حاملة إلينا الإسعافات والمؤن والماء. فصعدت إلى السفينة حيث علمت من بحارتها أن بويل قد قام بتنفيذ الخطة كما لو أن القوات البرية كانت موجودة عند الموعد المحدد، وذلك خوفًا من أن يهرب الأتراك قبل وصول القوات.

عند وصولنا إلى أبو زريبات وجه أحمد توفيق بك حاكم الوجة إلى حاميتها التركية امرًا يقول فيه أن على الحامية أن تدافع عن الوجة حتى آخر رجل فيها. ومع ذلك فقد امتطى جمله وهرب تاركًا مركزه بين يدى رجال الحامية. أما المئتان من المشاة الأتراك فقد صمدوا لينفذوا أوامر قائدهم المحارب من مسئوليته، لكنهم لم يتمكنوا من صد القوات المهاجمة لكون عددهم ضئيلاً بالنسبة للمهاجمين.

وكان كل ما علمناه من بحارة هاردنغ أن القتال لم ينته بعد وأن بلدة الوجة قد احتلها رجال العشائر تحت قيادة صالح ومعاونة البحارة البريطانيين.

●●●

(8)

ملأت الأخبار الطيبة والشائعات جيشنا بالفرح والحماس، وأخذ يتقدم بعد منتصف الليل نحو الشمال. وبدأنا مع بزوغ الفجر نتقدم من وادى «ميه» الواقع على بعد ١٢ ميلاً إلى الجنوب من البلدة، وقد صادفنا بعض الجنود الأتراك المشتتين فأسرناهم على الفور.

وقد علمنا من الأخبار الواردة أن صالح نجل ابن شفعة قد استولى على البلدة تمامًا وأصبحت تحت سيطرته، وقد فقد فى هذه المعركة ٢٠ رجلاً من رجاله، وأصيب أحد الطيارين، وهو ملازم بريطانى يقود طائرة استكشاف بجراح خطيرة كما أصيب بحار بريطانى بجراح فى قدمه.

وكان فيكرى الذى قاد المعركة مرتاحًا ومسرورًا لكننى لم أقاسمه هذا السرور. فأنا كنت أعتقد وأؤمن أن كل عمل غير ضرورى هو ذنب أيضًا. فالهجوم كان خطأً كبيرًا لأن الـ ٢٠٠ جندى فى «الوجة» لم يكن عندهم أى شىء من وسائل النقل أو الطعام ولهذا لو حوصروا لبضعة أيام لاضطروا للاستسلام. ونحن أردنا أن نستولى على البلدة كى نستعملها كقاعدة ضد خط السكة الحديد ومن ثم لنوسع منها جبهتنا، لكن التدمير والقتل الذى رأيته فيها كان تصرفًا لا يليق... فالبلدة كانت مدمرة تدميرًا غير ضرورى. فقد سبق أن أنذر فيصل أهلها بالهجوم المرتقب وخيرهم بين أمرين، إما الثورة ضد الحامية التركية وإما اخلاء البلدة. وبما أنهم كانوا من غير الحجازيين فقد فضلوا إخلاء البلدة وهكذا فعندما دخل رجال ابن شفعة منازل البلدة وجدوها ملأى بالغنائم التى سرعان ما نهبوها وسلبوا المتاجر وكسروا الأبواب والخزائن والصناديق، ومزقوا الستائر والفرش وهم يبحثون عن الأشياء الثمينة المخبأة، وفى الوقت نفسه كانت مدفعية الأسطول تدمر المنازل وتزيد من الخراب.

وكانت أولى العقبات التى صادفناها هى مسألة انزال الإمدادات إلى الشاطئ، فقد أغرقت السفينة «فوكس» كل القوارب الأهلية فى المرفأ، ولكن السفينة «هاردنغ» أسرعت إلى نجدتنا واقتحمت الميناء وساعدتنا فى انزال عتادنا بواسطة قواربها الخاصة.

بعد أن انتهينا من انزال عتادنا وامداداتنا إلى الشاطئ ظهر سكان البلدة وهم على أشد ما يكونون من الغضب، وبدءوا ينتقمون بأن يسرقوا حاجياتنا ويمزقوا أكياس الأرز ويغترفوا منها ويهربون. ولذلك اضطر فيصل إلى تعيين مولود مخلص - المعروف بقساوته - حاكمًا للبلدة، وقد استطاع هذا خلال يوم واحد أن يقبض على العشرات منهم ويزج بهم فى السجون.

قبل مغادرتى البلدة إلى القاهرة بدأت المكاسب التى حققناها تتضح لنا. ولم يعد لدينا أى منافس لحركتنا فى غربى الجزيرة. وأصبحت الثورة فى مأمن من الخطر بعد أن احتلت «الوجة» بالإضافة إلى أن الحالة المكدرة فى رابغ قد انتهت.

■■■

3

اللقاء عند الخط الحديدى

■■



(1)

بعد وصول الأخبار المفرحة عن انتصاراتنا الباهرة إلى مسامع المسئولين فى القاهرة سارعت السلطات إلى إضفاء الوعود بارسال المؤن والذهب والبنادق والبغال وكمية أكثر من الرشاشات والمدافع الجبلية التى لم نتسلمها من قبل.

وكانت مسألة المدافع تشكل لى أرقًا مزمنًا فأرض الجزيرة المتعرجة الخالية من الطرق تجعل من مدافعنا لعبة لا جدوى منها، هذا بالإضافة إلى أن الجيش البريطانى لم يكن لديه من المدافع الجبلية سوى النوع الهندى من عيار ١٠ أرطال الذى يفيد فى حرب القوس والسهام لا أكثر. لكن بيرموند، رئيس البعثة الفرنسية العسكرية فى الحجاز، كانت لديه مدافع جبلية ممتازة من نوع شنايدر ٦٥، وهى موجودة مع الجنود الجزائريين فى السويس، لكنه كان يعتبر أن هذه المدافع هى عامل الأساس فى مسألة انزال الجنود الأجانب فى الحجاز. وعندما كنا نطلب منه احضارها مع رجالها كان يقول أنه يخشى أن يسىء العرب معاملة رجالها، أو ربما لن يعرف العرب كيفية استعمال تلك المدافع ولكنه كان يطلب ثمنًا مقابل انزالها وهو ارسال لواء بريطانى فى رابغ الأمر الذى لم نكن نستطيع القيام به.

لقد كان يخشى أن يصبح الجيش العربى جيشًا قويًا، وكان بالإمكان تفهم هذه المخاوف لكن موقف الحكومة البريطانية منا كان أمرًا لم نفهمه أبدًا، فبريطانيا لم تكن سيئة النية وقد سبق لها أن لبت جميع طلباتنا عدا المدافع الجبلية، هذا بالإضافة إلى

أنها لم تكن بخيلة فى عطائها فقد ساعدت الحركة العربية بالسلاح والمال الذى تجاوز مقداره العشرة ملايين جنيه استرلينى. لذلك بات اعتقادى حول تقصيرها فى هذا الأمر أنه مجرد غباء.

ولهذا السبب التكتيكى وحده لم يعد بمقدورنا أن نواجه المدافع التركية بمدافعنا الحالية، لكن لحسن الحظ جاء الرائد «كوسو» مخلفًا بيرموند الذى أمر باستحضار المدافع الفرنسية المطلوبة. وهكذا بواسطة تلك المدافع تمكنا من الوصول إلى دمشق ودخلناها ظافرين. وكانت هذه المدافع المعطلة فى السويس الدليل الواضح على نوايا الفرنسيين الخبيثة تجاه الحركة العربية.

وكان التحاق جعفر باشا العسكرى بثورتنا عونًا كبيرًا لنا. وهو ضابط بغدادى عمل فى الجيش التركى. وعندما لمع نجمه فى الجيش التركى والألمانى أرسله أنور باشا على متن غواصة لتنظيم مجندى الشيخ السنوسى. وقد جعل منهم قوة عسكرية ضخمة، وأبدى مقدرة فنية كبيرة خلال معركتين خاضهما ضد القوات البريطانية، ثم وقع أسيرًا فى أيدى الإنجليز حيث تم نقله إلى القاهرة وسجن فى قلعتها مع بقية الضباط.

وفى إحدى الليالى حاول الهرب، فجدل من «حرامه» حبلاً ربطه إلى النافذة لينزل به إلى القلعة، لكن الحبل انقطع به فوقع وكسر كعبه فأعيد مرة أخرى إلى السجن. وقد وعد بألا يحاول الفرار مرة ثانية فكتفوا بأن حكموا عليه بدفع قيمة الحرام الممزق. وبينما كان يقرأ إحدى الصحف وجد فيها أنباء عن ثورة الشريف وعن إعدام رجالات العرب الذين كان أغلبهم من أصدقائه، عندئذ تبين له أنه كان يحارب على جبهة العدو، فلم يكن منه إلا أن طلب الالتحاق بالثورة.

كان فيصل يعرف ماضيه تمامًا، لذلك قرر أن يجعله قائدًا للقوات النظامية التى كانت مسألة رفع مستواها من أهم أهدافنا. فهو بما يتمتع به من خبرة فنية وسمعة طيبة وشخصية، قوية تمكنه من خلق جيش منظم من هذه القوات المتنافرة. لكن الشريف حسين لم يوافق على اقتراح فيصل، إذ كان عجوزًا ضيق الأفق يكره السوريين

والعراقيين، وكان يؤمن أن مكة وحدها هى التى ستحرر دمشق، لذلك فقد رفض دخول جعفر العسكرى، لكن فيصل ضمه إلى قواته على مسئوليته الخاصة.

فى القاهرة تحدثت إلى هوجارت وجورج لويد وستورز وديدز، فألفيتهم يؤازرون القضية العربية تمام المؤازرة، وكانت اسهمنا مرتفعة عندهم لدرجة أن رئيس الأركان ليندن بل أضحى صديقًا حميمًا لنا، وقد أكد لنا أن مشاريعنا لم يعد يعتبرها مشاريع جنونية. كما أن السير ارشيبالد مورى، القائد العام للجيش قد اقتنع أخيرًا بقضيتنا خاصة بعد أن تبين له أن الجنود الأتراك يفوقون بالعدد جميع الذين يقاتلون فى سيناء. ثم راح بعد ذلك يقول أنه كان دائمًا يحبذ الثورة العربية ويؤازرها.

ولكن وسط هذا الفيض من العواطف الكريمة داهمتنى مفاجأة قاسية. فقد جاء الكولونيل الفرنسى بيرموند ليهنئنى على احتلال الوجة، وقال لى: لقد زاد يقينًا من مواهبى العسكرية بعد الاستيلاء على البلدة. لذلك فقد تشجع الآن ليطلب منى أن أساعده لتوسيع مجال نصرنا. واستطرد بقوله أنه ينوى الاستيلاء على العقبة بقوة إنجليزية ـ فرنسية مشتركة يساندها الأسطول. ثم راح يشرح لى أهمية العقبة التى أضحت المرفأ التركى الوحيد المشرف على البحر، والمنطقة الوحيدة المجاورة لقناة السويس، كما أنها تقع على اليسار من جيش بئر السبع. ثم راح يشرح لى طبيعة الأرض هناك شرحًا مفصلاً. فقلت له أننى أعرف العقبة تمام المعرفة، لكننى لا أستطيع مساعدته فى تنفيذ خطته هذه. إذ إن استيلاءنا على الخليج أمر سهل لكن مواقع قواتنا ستصبح غير مناسبة كما كانت فى السابق فى غاليبولى، إذ ستصبح تحت سيطرة المدفعية المتمركزة على التلال الساحلية التى يبلغ ارتفاعها آلاف الأقدام، كما أن هذه التلال يصعب اقتحامها بواسطة جنود محملين بالأسلحة الثقيلة. لهذا فإننى أرى أنه من الأفضل أن تتقدم القوات العربية غير النظامية متسللة عن طريق التلال لاحتلالها دون معاونة من الأسطول.

ولم يجب بيرموند بشىء. لكننى كنت مدركًا أنه يقصد من وراء انزال قوات بريطانية ـ فرنسية مشتركة فى العقبة إلى حصر الجيش العربى داخل الجزيرة العربية، ومنعه من

التقدم إلى دمشق. لقد كان هناك فريق من العرب المدركين يظنون أن هناك نوعًا من الاتفاق السرى بين الإنجليز والفرنسيين ينص على التخلى عن الساحل السورى للفرنسيين، ولهذا فإن أى إنزال بريطانى ـ فرنسى فى العقبة سيقوى من هذا الاعتقاد فنفقد تعاونهم معنا.

وأخيرًا وقف بيرموند وقدم يده لى مصافحًا مودعًا وهو يقول أنه سيسافر إلى الوجة ليعرض مشروعه هذا على الأمير فيصل شخصيًا.

لقد تذكرت أننى لم ألفت نظر فيصل إلى أن بيرموند رجل سياسى بارع. لذلك وجدت أنه من الأنسب أن أسارع إلى الوجة على الفور كى أنبه الأمير فيصل وأقطع طريق تنفيذ المشروع على بيرموند. فسافرت فى نفس اليوم إلى السويس ومنها أقلعت إلى الوجة بعد يومين. وحال وصولى شرحت لفيصل مشروع بيرموند وبينت له حقيقة نواياه المستترة وراء هذا المشروع البراق. وهكذا بعد وصول بيرموند، قابل فيصل وحاول بطريقته الفنية أن يقنعه بمشروعه، لكن فيصل رد عليه بنفس الطريقة الفنية.

فقد بدأ بيرموند حديثه بأن قدم لفيصل هدية ثمينة عبارة عن ٦ مدافع رشاشة من نوع (هوتشكيس) مع مدربيها، وهى فى الحقيقة هدية ثمينة. واغتنم فيصل هذه الفرصة ليطلب منه أن يضاعف سخاءه ويرسل إليه بطارية من المدافع الجبلية الموجود منها فى السويس. وقد حاول بيرموند أن يقلل من أهمية المدافع فى حرب الحجاز، وقال أن الحرب ستنتهى بسرعة إذا هو أرسل رجاله ليتسلقوا التلال (كالماعز) ثم ينسفوا الخط الحديدى الحجازى. فغضب فيصل لتشبيه رجاله بالماعز ونظر إلى بيرموند وسأله إذا كان قد سبق له أن تسلق التلال كالماعز؟ وحاول بيرموند التخلص من السؤال بلطف فأشار إلى مسألة العقبة وإلى ما يترتب على بقاء الأتراك فيها من مخاطر على العرب، وألح على فيصل بأن يطلب من الإنجليز أن يقوموا بتنفيذ الخطة التى عرضها له لأنهم يملكون المعدات الكافية لإنجاح هذه الحملة. فما كان من فيصل إلا أن راح يشرح أن طبيعة الأرض فى ما وراء العقبة تجعل من المستحيل على رجال العشائر أن ينفذوا هذه الحملة.

وكنت أستمع إلى حوارهم مبتسمًا راجيًا الأمير فيصل أن يطلب من البريطانيين ارسال المصفحات الموجودة فى السويس إلى بلدة «الوجة».

بعد هذه المحاورة رجعت إلى القاهرة حيث قضيت فيها أسبوعًا قدمت خلاله إلى رؤسائى بعض النصائح عن وجوب ارسال لواء إلى العقبة ثم رجعت بعد ذلك إلى «الوجة».

●●●

(2)

عندما وصلت إلى الوجة، كان الأمير فيصل قد نصب خيامه فى مكان جميل هادئ يبعد ميلاً واحدًا عن البحر، وإلى الجنوب من مخيمه تمركزت مدافع رسام، وبجوارها ضربت خيام رجال المدافع الرشاشة تحت قيادة عبدالله. وكانت هذه الخيام تنتصب فى شكل منظم تقف أمامها البغال فى صفوف متراصة، كما أقيمت سوق عامة كدست فيها البضائع على الأرض. وكانت جماهير الناس تجتمع فى السوق لشراء حاجياتها.

وكان فيصل يقضى معظم أوقاته فى معالجة الأمور السياسية التى لم يكن فى مقدورنا نحن معالجتها أو المساعدة فى حلها. وقد حدث بعض الحوادث المؤسفة كانفجار قنبلة بحرية كانت قد أطلقتها السفينة أثناء الهجوم السابق وقتلت العشرات من الرجال، كما شب حريق هائل فى بعض الخيام عملنا على اخماده على الفور.

أما السير ارشيبالد مورى فقد أهدانا سيارتى رولز ـ رويس مصفحتين، كانتا تعملان فى جبهة شرقى إفريقيا. وكان جنودها من سائقين ومدفعيين من البريطانيين. كما قدمت البحرية مساعدات كبيرة لنا، فقد وضع «بويل» السفينة اسبيجل تحت تصرفنا لتبقى كمحطة دائمة لنا وأمر قائدها وبحارتها بتنفيذ كل ما يطلبه منه الكولونيل نيوكمب. وبعد مدة قصيرة وصلتنا على ظهر السفينة «تورث بروك» محطة لاسلكية نقالة تحملها شاحنة حيث علمنا قائد السفينة اسبيجل طريقة استعمالها ودرب الرجال على استخدامها.

* * *

كان فخرى باشا يجهز نفسه لمواجهتا، فحفر الخنادق حول المدينة المنورة بحيث تكون المدينة بعيدة عن مجال المدافع العربية، كما وزع قواته فى حاميات قوية تمركزت فى محطات المياه الممتدة على طول خط السكة الحديد بين المدينة المنورة وتبوك. ثم سير دوريات يومية تجول بين المحطات وذلك للمحافظة على سلامة الخط الحديدى المذكور.

وكان جارلند يسير من الوجة إلى الجنوب الشرقى، والكولونيل نيوكمب يسير إلى الشمال الشرقى كى يكشفا الثغرات فى الخط الحديدى ويضعا المتفجرات، وكانا يقومان بنسف الجسور والخطوط الحديدية ويزرعان الألغام المؤقتة تحت القطارات.

فى هذه المرحلة كان العرب قد اجتازوا فترة الخوف على الثورة وازداد أملهم بالنصر. وكان الأمير فيصل قد وعد بتؤدة الإعدادات اللازمة لتفجير السكك الحديدية، لكننى رجوته أن يؤجل القيام بهذه العملية، وبدلاً منها أن يقدم على تحريض العشائر التى تتجول وراء خطوطنا، وذلك حتى نوسع مدى الثورة ونزيد فى عمقها إلى الشمال، فأرسل مرة ثانية مندوبًا عنه إلى بنى عطية، وهم عشيرة قوية تقطن المنطقة الشمالية من الوجة، وسرعان ما رجع المندوب بصحبة عاصى بن عطية الذى أقسم يمين الولاء لفيصل. وبذلك أصبح فى إمكاننا التجول فى منطقة عشيرته وبعد ذلك فى منطقة العشائر الخاضعة لنورى الشعلان، أمير الرولا، الذى كان يتمتع بمركز كبير يلى فى أهميته مركز الشريف ابن سعود وابن رشيد وكان هذا الأمير من بين الأمراء الذين لم تتضح بعد حقيقة موقفهم من ثورتنا.

كان نورى الشعلان رجلاً كبيرًا فى السن يحكم عشيرة عنيزة منذ ٢٠ سنة، كما أن عائلته كانت ذات نفوذ كبير فى عشيرة الرولا. وقد وصل نورى الشعلان إلى مركزه هذا بفضل قوته وبأسه، وقد اضطر إلى قتل اثنين من إخوته حتى وصل إلى مركزه هذا، وقد ضم بعد ذلك عشيرة الشرارات إلى أتباعه من العشائر الأخرى. وأضحت كلمته نافذة فى جميع المناطق التى تقطنها عشائره. وكان الجميع يخافونه ويطيعونه طاعة عمياء. ولهذا كان علينا أن نكسب وده لنتمكن من استخدام الطرق التى تمر بمناطقه، ولحسن الحظ

كان فيصل قد حقق هذه الغاية فى السابق وكانا يتبادلان الهدايا باستمرار ما بين ينبع والمدينة ودمشق والصحراء لذلك بعث فيصل بفايز العصين ليجتمع إليه ويحادثه.

وفى طريقه التقى فايز العصين بابن ضغمى وهو أحد مشايخ عشيرة الرولا، وكان فى طريقه إلى فيصل ليقدم له هدية مؤلفة من بضع مئات من الجمال. أما نورى الشعلان فكان فى ذلك الوقت لايزال على علاقات طيبة مع الأتراك، إذ إن دمشق وبغداد كانتا الموردان الوحيدان لتموين عشيرته. لذلك فباستطاعة الأتراك قطع المواد الغذائية عنه وتجويع عشائره إذا هو قام بعمل يثير شكوكهم. وفى الوقت المناسب.

كان مطلبنا الرئيسى من نورى الشعلان هو فتح وادى السرحان أمامنا. وهذا الوادى تخترقه طريق مشهورة، وأرضه صالحة لإقامة المعسكرات بما تحويه من ينابيع عذبة للماء، ويمتد من الجوف مركز نورى الشعلان شمالاً قرب جبل الدروز فى سوريا. وكنا بحاجة إلى المرور فى هذا الوادى لنصل إلى مضارب عشيرة الحويطات الشرقية، تلك العشيرة التى تضم نخبة ممتازة من المقاتلين الشجعان وخاصة زعيمهم «عودة» أشجع محارب عرفته الجزيرة العربية الشمالية. وبواسطته وحده كان باستطاعتنا أن نحرض القبائل العربية كلها من معان إلى العقبة واحتلالها والتلال المتمركزة فيها الحاميات التركية.

لهذا السبب كنا نتحرق شوقًا للاجتماع به ومن ثم بذل كل الجهد لضمه إلى صفوفنا. وقد حالفنا الحظ حين كنا فى الوجة، إذ جاء إلى مخيمنا «زعل» ابن عم عودة. وكان هذا اليوم يومًا سعيدًا جدًا، فلقد جاء أيضًا فى فجر ذلك اليوم خمسة من شيوخ عشيرة الشرارات المخيمة فى الصحراء الشرقية من تبوك مزودين بالهدايا الثمينة من بيض النعام، ثم جاء بعدهم ضيف الله وأبو الطيور ابن عم حمد بن جارى زعيم عشيرة الحويطات الوسطى المخيمة فى هضبة معان. وقد اجتمع عنده فى ذلك اليوم نخبة ممتازة من المقاتلين الشجعان الأشداء، لكنهم كانوا كلهم أعداء ألداء لفخذ أبى طيه بسبب صراعهم وعودة على ملكية قطعة من الأرض.

ثم جاء بعدهم قريب لنواف الشعلان (نجل نوري الشعلان الأكبر) ليقدم إلى فيصل فرسًا أصيلاً. وكانت عائلة جازى وعائلة شعلان عدوتين، لذلك ما إن دخل نواف المجلس حتى أخذ الحضور من أفراد العائلتين ينظرون إلى بعضهم البعض نظرات كلها حقد...

وبعد وصول وفد الرولا وصل الشيخ أبو طقطقة زعيم عشيرة الحويطات المتمركزة على الشاطئ، وقد أحضر معه الغنائم التى كسبها أفراد عشيرته من المركزين التركيين الواقعين على البحر الأحمر اللذين استولى عليهما. فأفسح له فيصل مكانًا على البساط الجالس عليه، ثم راح يثنى على جهود عشيرته ثناء حارًا.

وعند الظهر جاء «بن زعل» ومعه عشرة شيوخ من أتباع عودة، فقبل يد فيصل مرتين (الأولى عن عودة والثانية عنه هو) وقال إنه جاء موفدًا من قبل عودة معلنًا ولاءه إلى فيصل طالبًا إليه أن يصدر أوامره إلى عودة. وكانت المفاجأة كبيرة واستطاع فيصل أن يتمالك فرحه، فقام بمهمة تدميم ابن زعل إلى أفراد عشيرة جازى، فحياهم تحية فاترة. وبعد برهة انتحينا به جانبنا حيث تحدثنا إليه ثم أعدناه إلى عودة محملاً بالهدايا النفيسة وبرسالة خاصة من فيصل يقول فيها إنه لن يطمئن ما لم يقابله وجهًا لوجه ويتحدث إليه.

وقد أنجزنا من وراء هذه الشخصيات المهمة التى وفدت إلينا العديد من المنجزات وكانوا جميعهم يقسمون اليمين على القرآن على مسمع من فيصل بأن يكونوا حيث يكون ويتقدموا حيث يتقدم وألا يطيعوا الأوامر من الأتراك وأن يعاملوا كل من ينطق بالعربية معاملة حسنة سواء كان ذلك الشخص حلبيًا أم بغداديًا، أم شاميًا وأن يقدموا قضية الاستقلال على كل قضية وفوق العشيرة وملذات الدنيا.

ثم راح فيصل يهدئ خواطر المتخاصمين ويصلح بينهم، وكان يدفع من جيبه ما يختلف عليه من مبالغ ليعيد بسرعة الوئام والسلام بين القبائل المتخاصمة. وبذلك تمكن فيصل من السيطرة على جميع العشائر من المدينة المنورة حتى دمشق وما وراءها. وأضحت بذلك الحركة العربية حركة وطنية تساوى بين جميع فرقاء الأمة العربية.

●●●

(3)

وصلتنى رسالة من كلايتون، خلال تلك الأحداث المسرة، يطلب منى فيها البقاء فى بلدة «الوجة» مدة يومين بانتظار وصول باخرة الحراسة المصرية «نور البحر» لآخذ منها التعليمات الجديدة والأخبار. وفى اليوم المحدد وصلت الباخرة ونزل منها «مارك روى» الذى سلمنى رسالة برقية مطولة بعث بها جمال باشا إلى فخرى باشا فى المدينة. وكانت عبارة عن تعليمات صادرة عن أنور باشا وهيئة الأركان الألمانية تأمر فيها فخرى باشا بالجلاء عن المدينة المنورة على الفور والانسحاب بجميع القوات إلى العلا ثم تبوك وإلى معان حيث يتمركز فيها ويقيم خطوط دفاع جديدة فى البلدة.

وكانت هذه الخطة تنسجم تمامًا ومشاريع العرب، لكنها ازعجت جيشنا فى مصر لأن تمركز ٢٥ ألفًا من جنود الأتراك مع معداتهم ومدافعهم القوية فى بلدة معان يهددان تهديدًا مباشرًا جيشنا فى منطقة بئر السبع. لهذا طلب منى كلايتون أن أسعى بكل ما أملك من وسائل للاستيلاء على المدينة المنورة وتدمير حاميتها التركية. وكان الكولونيل نيوكمب حين وصلت هذه الرسالة من كلايتون خارج بلدة الوجة حيث كان يقوم بمهمة خاصة لتخريب الخط الحديدى الحجازى، وهكذا اضطررت لتحمل مسؤولية هذه المهمة الجديدة. وقد خشيت أن تكون الفرصة قد فاتتنا إذ إن البرقية إلى فخرى باشا قد أرسلت قبل أيام عديدة.

ذهبت إلى فيصل وأطلعته على نص البرقية وعلى رسالة كلايتون وأفهمته أن تنفيذ هذه المهمة قد يضر بمصالح العرب وشرحت له الموقف بكثير من الصراحة وقلت له إن موقف الحلفاء الراهن يتطلب بعض التضحيات وتأجيل تنفيذ الخطط والمشاريع التى هى فى مصلحة العرب. وكان فيصل كعادته، فوافق على الفور خاصة عندما يتوجه المرء إلى نخوته، وعد بأن يحاول جاهدًا تنفيذ ما طلبته القيادة فى مصر. وجلسنا نتدارس الأمر وطرق تنفيذ الخطة. وقررنا أن يسير الشريف مستور على الفور، وهو رجل شهم صامت كبير فى السن، مع القائد راسم على رأس قوة من رجال العشائر وقوة اضافية من فرق المشاة المحملة إلى مركز «الفقير» كى يسيطروا على المناطق الأولى من الخط الحديدى

فى شمال المنطقة التى تحتلها قوات الشريف عبدالله. كما يقوم على بن الحسين الجدى بقيادة الهجوم على المنطقة الثانية من سكة الحديد فى شمال قطاع الشريف مستور، وطلبنا من ابن مهنا أن يدنو من مركز العلاء ويراقبه مراقبة شديدة، كما يبقى الشريف ناصر قريبًا من قلعة المهدام على أهبة الاستعداد للعمل حين نطلب منه ذلك. وبعد ذلك أرسلت رسالة إلى الكولونيل نيوكمب أطلب منه الحضور حتى نطلعه على آخر الأخبار الواردة إلينا.

هذا وقد قررنا تكليف محمد على المتقدم فى السن أن يتحرك من موقع «ذهبة» إلى واحة قريبة من تبوك كى نكون على استعداد لمواجهة القوات التركية فى انسحابها إلى بلدة تبوك. أما فيصل فقد ترتب عليه أن يبقى فى منطقة الوجة البالغ طولها ١٥٠ ميلاً ويبقى مستعدًا لنجدة كل منطقة تطلب منه المساعدة. أما أنا فقد عزمت على الذهاب إلى عبدالله فى وادى عيس لأسأله عن السبب الذى جعله لا يقوم بأى عمل طوال الشهرين الماضيين، ولكى أطلب منه أن يهاجم الأتراك حال ظهورهم من مواقعهم. وكنت آمل أن نتمكن من شل حركة القوات التركية بحال تنفيذ هذه الخطة.

غادرت بلدة الوجة فى اليوم التالى، وكنت متوعك الصحة، يرافقنى أربعة من رجال عشيرة رفعة وواحد من عشيرة جهينة وبعض الخدم والحرس. وعند الفجر سمعنا صوت طلق نارى، وما لبث أن جاء أحد الرجال وطلب منى أن أرافقه، فسرت معه حتى وصلنا إلى وادٍ مجاور، فوجدنا على ضفته المقابلة أحد رجالنا من عشيرة عقيل قتيلاً بين الصخور، وقد رأيت أن رصاصة أطلقت من مكان قريب قد اخترقت صدره. وفى هذه اللحظة أخبرونى أن القاتل هو الخادم حامد؛ فأرسلت الرجال ليبحثوا عنه ويحضروه إلىّ. وبعد قليلٍ عاد الرجال ومعهم حامد، فدنوت منه وشهرت مسدسى وطلبت منه أن يدلى باعترافه على الفور. فاعترف بأنه تشاجر مع القتيل فغضب منه وكان ممسكًا ببندقيته فأطلق عليه النار.

ثم عقدت محكة لمحاكمته على هذه الجريمة، وطلب أبناء عشيرة عقيل من رفاق المغدور معاقبة القاتل وقتله. وما لبث أن ساندهم فى ذلك بقية الرفاق. فحاولت إثناءهم عن عزمهم ولكن دون جدوى.

لذلك قررت أن أنفذ الحكم فيه وأخذت على عاتقى تنفيذ هذه المهمة، فأخذته إلى وادٍ ضيق بعيد عن مكاننا، فأوقفته وأعطيته مهلة دقيقتين أمضاها وهو يبكى ويتمرغ على الرمال يندب حظه ويطلب المغفرة والعفو، فأمرته بالوقوف بعد ذلك وأطلقت على صدره النار فخر على الأرض وأخذ يتدحرج حتى أصبح على مقربة منى؛ فأطلقت عليه طلقًا آخر ويدى ترتجف فأصبته فى رسغه فأخذ يصرخ ويستغيث وهو مستلق على ظهره، فانحنيت وأطلقت عليه للمرة الأخيرة طلقة من تحت فكه إلى رقبته فارتعش قليلا ثم لفظ أنفاسه الأخيرة. عندئذ اقترب الرجال فأمرتهم بدفنه.

●●●

(4)

بدأنا مرحلتنا التالية وأنا منزعج جدًا، واجتزنا العديد من الأودية والتلال. وبعد مسيرة يومين تخللتها المتاعب بلغنا مخيم الشيخ فهد الخنسا، وهو محارب قديم. وكان من الذين شاركوا فى معركة الوجة، وجهز مع جارلند أول لغم موقت تحت قطار للجنود.

لم يدعنى الشيخ فهد أنام خارج خيمته بل ألح على أن أدخل إليها وراح يجرعنى حليب الإبل ثم سألنى عن أوروبا وعن عشيرتى ومراعى الجمال فى بريطانيا وعن الحرب فى الحجاز والحروب فى أماكن أخرى، وعن دمشق ومصر، وسألنى عن فيصل وصحته وإخوانه وعن أسباب زيارتنا لعبدالله، وسألنى لماذا أنا مسيحى، واستمر حديثنا على هذا المنوال حتى الساعة العاشرة مساء، إذ أحضر الخدم خروفًا مشويًا وطبقًا ضخمًا من الأرز بالسمن، فأكلت كما تقضى بذلك التقاليد، ثم التحفت بعباءتى واستسلمت للرقاد.

وفى الصباح شعرت بكثير من النشاط، فقررنا استئناف السير، وتقدمنا مجتازين الوادى واستمرت الجمال تخب حتى وصلنا مع حلول الظلام إلى حوض وادى عيس، حيث توقفنا لنمضى الليل قبل استئناف آخر مرحلة من رحلتنا إلى مخيم عبدالله. وقد سررت كثيرًا لبلوغنا نهاية الرحلة، إذ إن المرض قد اشتد بى عند الليل وارتفعت حرارتى إلى حد جعلنى أرهب من أن أسقط فريسة للمرض وكانت مسألة العلاج على أيدى رفاقى من

رجال القبائل ليست بالأمر السهل، فقد كان علاجهم للمرض هو الكيّ. وهو علاج ناجع لمن يؤمن بفوائده رغم أنه عذاب مؤلم.

عند صباح اليوم التالى سرنا من جديد حتى وصلنا إلى أول بئر فى وادى عيس بعد دقائق من وصول الشريف عبدالله إليه. فقمت على الفور بتسليمه الوثائق التى أرسلها إليه فيصل، ثم شرحت له الأوضاع العامة فى المدينة المنورة وأفهمته الضرورة الملحة لفرض الحصار على الخط الحديدى. وكان يصغى إلى كلامى ببرود، ولكنه لم يناقشنى بشيء مما قلته. وعندما انتهيت من حديثى استأذنت منه لأننى لم أعد أقوى على الوقوف على قدمى. فأمر أن تضرب لى خيمة خاصة بالقرب منه، فأويت إليها وأنا على أشد ما أكون من الإعياء والمرض.

* * *

لزمت الفراش عشرة أيام وأنا أتلوى من شدة الألم والمرض. وكما هى العادة فى مثل هذه الظروف؛ بدأت أصارع الألم بطريقة منهاجية بأن أفكر بأشياء أخرى مهمة كالثورة العربية، ثم رحت أطالع مؤلفات القادة العسكريين الكبار. وكنت فى السابق حين أقرأ كتابًا عسكريًا أهتم بالناحية النظرية منه. ولكن الوضع الآن أصبح مختلفًا، فأنا فى وسط المعركة والتطبيق هو الأهم، سيما لدينا مشكلة المدينة المنورة. فبدأت أفكر مستعيدًا الذاكرة إلى القواعد المناسبة لقيادة حرب حديثة على أسس علمية، غير أن جميع تلك القواعد التى استطعت أن أذكرها لم تكن متفقة والوضع العسكرى العام للمدينة المنورة. وهذا ما زاد فى قلقى.

وفى ذات يوم عندما استيقظت من نومى وجسدى يغرق فى العرق والذباب يحوم من حولى، تساءلت عن تلك الأهمية التى نوليها للمدينة وما مقدار نفعها؟ فلقد كان ضررها شديدًا حينما كنا لا نزال فى ينبع وكان العدو قد عزم على الهجوم على مكة، وسرعان ما بدلنا هذا الوضع بعد أن استولينا على بلدة الوجة والآن نحن نحاصر منطقة الخط الحديدى بينما الأتراك يكتفون بالدفاع عنه، كذلك حامية المدينة قد تقلصت إلى حد كبير، والجنود الأتراك جالسون فى خنادقهم يأكلون الجمال التى لا يستطيعون تقديم

العلف إليها، وهم بالتالى لا يشكلون أى خطر علينا، كذلك المدينة لا تعتبر قاعدة كالوجة، إذن ما الذى يجعلنا نرغب فى احتلالها؟

* * *

بعد أن شفيت من مرضى تذكرت الأسباب لرحلتى إلى وادى عيس، فالأتراك كانوا يزمعون الانسحاب من المدينة المنورة والسير أرشيبالد مورى يريد منا أن نهجم عليهم هجمات عديدة حسب خطة معينة. وللحقيقة لقد أزعجنى تدخله فى جبهتنا ولكن ليس لدينا مجال للاختيار فنحن تحت رحمته وعلينا أن نضحى بمصالحنا الخاصة المهمة فى سبيل مصالحه.

إن نسف الخط الحديدى الحجازى سيبث الرعب فى قلوب الأتراك، عندئذ سيترددون فى الانسحاب من المدينة المنورة، وسيجدون المبررات لاستمرار بقائهم فيها.

ذهبت إلى خيمة عبدالله حيث أخبرته بأنى شفيت تمامًا من مرضى، وأعربت له عن رغبتى فى المشاركة بأى عمل ضد الخط الحجازى، فالرجال والسلاح على جميع أنواعه متوافر لدينا للقيام بهجوم رئيسى على الخط الحديدى، لكن عبدالله لم يكن متحمسًا نحو رغبتى هذه، فراح يحدثنى عن العائلات المالكة فى أوروبا وعن حروب السوم وعن تضايقه من البطء فى الزحف، لكن نائبه الشريف شاكر تلقى رغبتى تلك بكثير من الحماس، ثم تمكن بعد ذلك من أخذ الموافقة من عبدالله على تنفيذ طلبى. وكان الشريف يحب عشيرة عتيبة حتى الوله. لذلك فقد انتخبنا معظم الرفاق من عشيرة عتيبة.

تقدم الرفاق ضابط جزائرى فى بعثة بيرموند العسكرية واسمه «رحو»، وكان دليلنا محمد القاضى نجل دخيل الله كبير قضاة عشيرة جهينة الذى أشار للأتراك إلى ينبع فى كانون الأول المنصرم. كما تسلم قيادة حرسنا المؤلف من ٢٠ رجلاً، الشريف فوزان الحارث المحارب المشهور. وسرنا متجهين إلى هدفنا المحدد (محطة أبى النعم) فى يوم ٢٦ آذار، وفى نفس اليوم الذى كان السير أرشيبالد مورى يشن هجومه على غزة. وبعد ثلاث ساعات من الحر الشديد توقفنا عند شجرة ضخمة طلبًا للراحة فى ظلها. ثم

تابعنا سيرنا على طريق ملتوية لمدة ساعتين، حيث توقفنا بعد ذلك لنخيم عند حلول الظلام. وفى الصباح سرنا وراء التلال الواقعة إلى الجنوب إلى أن وصلنا مقابل محطة أبى النعم، فعسكرنا فى مكان قريب من العدو يشرف على المحطة، حيث رحنا نستطلع ونراقب تحركات العدو، فرأينا الخط الحديدى الذى لا يبعد عن مكاننا أكثر من ثلاثة أميال. وشاهدت فى المحطة مستودعين كبيرين بنيا من حجارة الصوان، كما رأينا برج ماء مستديرًا وبعض الأبنية الأخرى. وقد رأينا أن المحطة مطوقة بالخيام والخنادق وقدرنا أن عدد الجنود فيها يزيد على الثلاثمائة رجل، إلا أننا لم نجد أى مدفع جبلى. وقد علمنا أن العدو يسير دوريات مسلحة أثناء الليل لمراقبة ضواحى المحطة وسط السكة الحديد.

بعد قليل سمعنا صوت النفير ثم رأينا الجنود يتراكضون كالدمى ويقفون فى صف مستقيم. ثم بعد ذلك يتفرقون، وبعد برهة وجيزة رأينا الدخان يتعالى ثم ما لبثنا أن رأينا قطيعًا من الماعز والغنم يقوده صبى رث الثياب يتقدم نحونا. فأرسلنا رجلين للحاق به، فتقدما منه وأمسكا به فأخذ يبكى بكاء متواصلاً وهو يحاول الهرب منهم.

أخذ فوزان يستجوبه عن أسياده الأتراك، فعلمنا من الصبى أنه من منبوذى عشيرة هيثم، وهى عشيرة فقيرة مشردة فى الصحراء تعيش من خدمتها للعشائر الأخرى.

عند الغسق انحدرنا من فوق التلة وأخذنا الراعى الصغير معنا وما قدرنا على جمعه من أغنامه، وكنا نتوقع وصول قواتنا هذه الليلة إلى معسكرنا، لذلك رحت مع فوزان نجول فى السهل إلى أن عثرنا على مكان يصلح لوضع مدفعنا.

رجعنا بعد أن نال منا التعب، فوجدنا أن الشريف شاكر قد وصل منذ لحظة، وكان الرجال يشوون اللحم بسرور وارتياح. وأخبرنى شاكر أنه لم يحضر معه سوى ٣٠٠ رجل من الثمانمائة المتفق عليهم. فاضطررنا عند ذلك إلى إجراء بعض التعديلات على خططنا، فقررنا ألا نحتل المحطة، بل نكتفى بقصفها بالمدفعية، بينما يقوم قسم منا بنسف الخط الحديدى فى الشمال، وكنا نأمل أن نسقط القطار المتوقف فى شباكنا.

فاخترنا بعض الرجال الذين دربهم جارلند على أعمال النسف وطلبنا منهم الجزء الواقع إلى الشمال من الجسر عند الفجر حتى يعطلوا ذاك الاتجاه، بينما قررت أن آخذ معى رشاشًا فأضع لغمًا إلى الجنوب من المحطة، وهو الاتجاه الذى يمكن للأتراك أن يرسلوا النجدة منه وقد أرشدنا محمد الخالد قبيل منتصف الليل إلى قسم مهجور من الخط الحديدى. وبعد ساعة من العمل بثث اللغم وجعلت الخط ووضعت الرجال قريبه. ثم نصبنا المدفع الرشاش وراء كومة الأعشاب على بعد ٤٠٠ ياردة عن الخط ووضعت الرجال قريبه. ثم ذهبت مع بعض رجالى لقطع الخطوط التلغرافية.

وبعد نصف ساعة وجدنا على نقطة غير محروسة، لكن الرجال لم يتمكنوا من تسلق عمود التلغراف، فاضطررت إلى تسلقه بنفسى. وعندما قطعت الخط الثالث للتلغراف اهتز العمود وارتخت قبضتى فهويت ملقيًا بثقلى كله على كتف محمد الذى كان قد أسرع ليحمينى من الارتطام على الأرض، فكادت عظامه أن تتكسر... وبعد ذلك عدنا إلى المعسكر بعد أن استغرقت هذه العملية أربع ساعات متتالية.

فى الصباح الباكر، موعد الهجوم المقرر، أيقظنى محمد الذى كان متشوقًا لرؤية المعارك. وكان الرجال قد سبقونا لأخذ مراكزهم، فلحقنا بهم على الفور، وما أن أدركناهم حتى بدأت مدافعنا تفتح نيرانها. وكان قصفها مركزًا فهدمت سقف العمارة فألحقت بعض الأضرار بالبناية المجاورة ثم أصابت غرفة المضخة وحطمت خزان الماء كما أصابت إحدى عربات القطار، فاشتعلت فيها النيران، مما جعل القاطرة تضاعف من سرعتها نحو الجنوب وقبعنا نحن نراقبها وهى تقترب من اللغم. وما أن وصلته حتى شاهدنا سحابة من الغبار الناعم تلاها صوت انفجار هز الأرجاء، ثم توقفت القاطرة ساكنة محطمة. وانتظرنا إطلاق المدفع الرشاش الذى نصبناه، ولكن دون جدوى، وقد علمنا بعد قليل أن الرجال قد دخلوا الوحدة فحملوا مدفعهم وجاءوا به إلينا، أما القاطرة فقد تعطلت مقدمتها فقط وسرعان ما خرج رجالها لإصلاحها على الفور. وبعد نصف الساعة شاهدناها تتهاوى من جديد على الخط الحديدى.

أما رجال العشائر فقد بدءوا هجومهم المركز على المحطة تحت ستار من قصف المدفعية، وتقدم الرجال وقضوا فورًا على رجال الحامية الأولى، وما لبث العدوان انسحب إلى الحامية الرئيسية بانتظار هجومنا العام، ذلك الهجوم الذى كانت رغبتهم فى منعه لا تقل عن رغبتنا بالقيام به. ولو كان لدينا فريق من رجال فيصل لكان أمر الاستيلاء على المحطة من أسهل الأمور... ولكن على كل حال فقد كانت حصيلة المعركة هذه ٢٣ أسيرًا من رجال العدو و٧٠ جنديًا بين قتيل جريح، وخسائرنا لم تتجاوز جريحًا واحدًا كانت إصابته بسيطة.

●●●

(5)

بعد انتهاء المعركة رجعنا إلى معسكر الشريف عبدالله، وتركنا قسمًا من قواتنا فى المحطة وضواحيها ليدمروا الخط الحديدى فى اليوم التالى والذى بعده.

دخل الشريف شاكر المعسكر باستعراض ضخم أطلقت خلاله ألوف العيارات النارية ابتهاجًا بهذا النصر الذى حققناه. وفى صباح اليوم التالى عزمت على العودة إلى الخط الحديدى لنقوم بتجربة جديدة كاملة لنسف الخط بلغم آلى. وقد قال لى دخيل الله إنه يرغب فى الذهاب معى، إذ إنه لم يقاوم الرغبة فى طلب القطار بعد توقفه. وقد أخذت معى فى هذه المهمة ٤٠ رجلاً من عشيرة جهينة الذين أخذتهم من الرجال الأشداء المفتولى السواعد. وقد ألح سلطان العبود، أحد رؤساء عشيرة عتيبة والصديق العزيز لكل من الاثنين عبدالله وشاكر أن يرافقنى فى هذه المهمة.

التزمنا فى مسيرنا هذه المرة وادى عيس، وظللنا نمسى فيه حتى التقى هذا الوادى بوادى حمد، الذى وجدناه مكسوًا بالأعشاب الخضراء، ثم انحرفنا واتجهنا إلى أرض رملية مسطحة فترجلنا عن جمالنا. وعند الصباح استأنفنا السير الطويل حتى اقتربنا من هدفنا عند الأصيل، وكان يفصله عنا حاجز من الهضاب على سفوحها واد شديد البرودة مجدبًا مكشوفًا، وتقدمنا فى هذا الوادى مسافة ثلاثة أميال، ثم توقفنا ونزلنا عن جمالنا وتسلقنا تلة مرتفعة قيل إنه يمكننا أن نرى من على قمتها الخط الحديدى. وكان

الهواء شديدًا مزعجًا، فاصطحبت معى تسعة من الرجال استأنفت معهم تسلق التلة. وازداد الهواء شدة كلما اقتربنا من قمة التلة لدرجة أننا لم نتمكن من المراقبة والاستطلاع فعدنا أدراجنا منهوكى القوى وقد فقدنا أحد الرجال الذى سقط فى هوة سحيقة ودقت عنقه.

وعند رجوعى.. بلغت من الإعياء أشده؛ فجلست على الأرض وأنا أرتجف من شدة البرد لمدة ساعة، حيث قام الرجال خلالها بدفن القتيل فى مكان قريب من سفح التل. وفى أثناء عودتهم شاهدوا رجلاً يركب جملاً فبادرهم هذا بإطلاق النار عليهم؛ فردوا عليه بالمثل، لكنه تمكن من الفرار. وقد اضطربت لهذه الحادثة، إذ إن عنصر المفاجأة كان أساس خطتنا، لذلك خشيت أن يعود ذلك الرجل إلى الأتراك لينذرهم باقترابنا.

امتطينا جيادنا وجمالنا وسرنا لنقترب من الخط الحديدى، ولكننا لم نكد نقترب بضعة أمتار حتى سمعنا صوت نفير البوق التركى يدعو الجنود إلى الطعام. فأنصت دخيل الله قليلاً وعلم أننا أصبحنا قرب «المدحرج» وهى المحطة الصغيرة التى كنا نزمع القيام بعمليتنا فيها.

وصلنا الخط الحديدى فى الساعة العاشرة ليلاً، وكان من العبث محاولة اختيار موقع لمدفعنا الرشاش، فالظلام حالك السواد ولا يمكن العثور على أى بقعة فى ذلك الوقت. وقد اضطررت لاختيار بقعة اعتباطًا فى الخط الذى يقع عند الكيلومتر ١١٢١ من دمشق لأزرع فيه اللغم. وكان هذا اللغم معقدًا.. كبسولته تفجر كبسولات أخرى تبعد كل واحدة عن الثانية ٣٠ ياردة، فقد كنا نأمل أن نتمكن بهذه الطريقة من نسف القاطرة إذا كانت متجهة شمالاً أو جنوبًا. وقد دامت عملية زرع اللغم أربع ساعات كاملة وقد زاد الأمر تعقيدًا المطر الذى أحال الأرض وحلاً وبدت آثار أقدامنا عند الخط كأنها أقدام الفيلة. وكان من المستحيل ازالتها فعمدنا إلى تضخيمها بواسطة أقدام الجمال حتى بدت بعد ذلك كأنها تعادل أقدام نصف جيش كامل.

بعد أن فرغنا من إعداد اللغم تراجعنا إلى الوراء مسافة كافية، ثم تمددنا فى الوحل منتظرين شروق الشمس وكانت ليلة عاصفة شديدة البرودة ارتجفت من جرائها كل عضلة فى أجسادنا.

قام دخيل الله عند الفجر بدور القائد لهذه العملية فوزعنا على المخابئ، ثم تسلق المرتفع ليراقب بمنظاره ما يدور على الخط الحديدى. وكنت فى هذا الوقت أبتهل إلى الله ألا تقع أية حادثة قبل أن ترتفع الشمس وتبعث الحرارة فى أجسادنا، وبخاصة جسدى المتجلد من شدة البرد. وسرعان ما أشرقت الشمس وبدأت ثيابى تجف رويدًا.

كان دخيل الله قد أعلمنا فى الساعة السادسة صباحًا أن شاحنة قد مرّت من على اللغم سالمة، فسررنا لهذا النبأ، لأننا لم نضع هذا اللغم ليدمر سيارة عسكرية تقل أربعة جنود فقط. ثم علمنا بعد ذلك أن نحو ٦٠ جنديًا من الأعداء يسيرون فى اتجاه المكان الذى وضعنا فيه اللغم، وقد اضطربنا لهذا الخبر كثيرًا، لكننا أدركنا بعد ذلك أن هؤلاء الجنود قادمون لتصليح أعمدة الهاتف التى اقتلعتها العاصفة ليلة البارحة.

فى تمام الساعة السابعة والنصف قامت دورية أخرى من الأعداء تتألف من ١١ جنديًا بتفقد الخط الحديدى، وعندما وصلت الدورية إلى الكيلومتر ١١٢١ رأوا الآثار التى خلفناها وراءنا ليلة أمس وراحوا ينظرون إلى الأرض ويفكرون بما رأوه من آثار، ولكنهم لم يعثروا على اللغم الذى خبأناه بمهارة، فتابعوا سيرهم إلى الجنوب والتقوا بدورية أخرى فجلسوا معًا ليستريحوا تحت ظلال الجسر. وفى هذه اللحظة سمعنا صوت قاطرة ثقيلة تقترب من ناحية الجنوب تجر وراءها ٩ عربات تعج بالنساء والأطفال القادمين من المدينة المنورة فى طريقهم إلى سوريا. ولحسن الحظ مر القطار فوق اللغم دون أن ينفجر، وشعرت بالارتياح لنجاة الأطفال والنساء من هذه المجزرة الرهيبة، ولكنى كقائد عسكرى فنى غضبت غضبًا شديدًا لعدم انفجار اللغم. ولكن عندما رأى أفراد عشيرة جهينة القطار يقترب من اللغم سارعوا نحونا ليشاهدوا الانفجار وعج المكان الذى كان نختبئ فيه بالناس، مما أثار انتباه الجنود الأتراك فأطلقوا علينا نيران رشاشاتهم على الفور. ومع أن نيرانهم لم تصبنا بأذى لكن اكتشاف أمرنا كان بمثابة ضربة قاسية. ففى «المدحرج» يوجد ٢٠٠ جندى تركى وفى «هدية» يوجد ١١٠٠ جندى الذين يقطعون خط تراجعنا عن طريق سهل حمد. فأمرنا على الفور رجال المدفع الرشاش بالتراجع إلى وادى عيس مع ١٥ رجلاً من رجال عشيرة جهينة.

وفى الساعة الخامسة بعد الظهر.. ذهبت مع قوة من رجال عشيرة جهينة إلى الخط الحديدى. وعندما وصلناه ترجلنا عن ظهور خيولنا وتقدم منا دخيل الله وصلى فينا إمامًا. وعندما رآنا الأتراك نصلى ذهلوا وتوقفوا عن إطلاق النار. وهذه كانت أول وآخر مرة وقفت فيها للصلاة فى الجزيرة العربية.

بعد انتهائنا من الصلاة جلسنا بانتظار حلول الظلام حتى نقوم بالكشف عن اللغم ومعرفة الخلل الذى أصابه. لذلك تجمهر حولنا رجال عشيرة جهينة الذين لم يكونوا أقل رغبة منى فى معرفة أسباب الخلل الذى طرأ على اللغم. أثار تجمهرهم هذا الرعب فى قلبى، فوضع هذا اللغم من نوع «جارلند» ليس بالأمر السهل والبحث عنه فى ظلام الليل أمر خطر للغاية، لأن لهذا اللغم قوة تدميرية هائلة تستطيع أن تنسف سبعين مترًا من القضبان الحديدية، لهذا عندما أبحث عنه لا أعرض نفسى للموت فقط بل أعرض بقية أفراد القوة للهلاك المحتم.

أخيرًا وجدت اللغم واكتشفت موضع الخلل فيه وأصلحته، وحتى نربك العدو دمرنا أجزاء من الخط تقع إلى الشمال من اللغم كما نسفنا أحد الجسور وقطعنا الأسلاك الهاتفية والبرقية. وسارعنا بعد ذلك إلى خيولنا وغادرنا المكان دون أن نلوى على شىء. إلا أن دخيل الله بلغ به السرور من جراء ما قمنا به من عمليات تدمير ونسف حدًا جعله لا يتوقف عن سهل وادى حمد، بل تابع سيره ونحن وراءه حتى تبعنا رجال المدفع الرشاش الذين اعتقدوا أننا من الأعداء فأطلقوا علينا النار من المدفع.

عند الصباح نزلنا عن خيولنا، حيث نمنا بقية الليل فى موقع «ربيعان» وهو أول بئر من آبار وادى عيس. وعند الصباح سمعنا صوت انفجار شديد فلم نعرف ما إذا كان اللغم قد أدى مهمته أم أن الأتراك اكتشفوا مكانه وفجروه. لذلك أرسلنا رجلين لاستطلاع الأمر، وتابعنا نحن سيرنا حتى وصلنا موقع «أبى مرخا» عند حلول الليل.

وعند الصباح رجع الرجلان، حيث أخبرنا أن قطارًا تركيًا محملاً بالعمال والأدوات اللازمة لتصليح الخط الذى دمرناه فى اليوم السابق، قد انفجر به اللغم ودمره تدميرًا

كاملاً. وكان هذا كل ما نرجوه. فعدنا ونحن فرحين إلى معسكر عبدالله وقد برهنا على أن اللغم الذى يوضع بمهارة وإتقان لا بد له من أن يؤدى مهمته على الوجه الأكمل.

●●●

(6)

لم يكن عبد الله يهتم بالوضع العسكرى العام، بل كان يعتبر أن هذا من اختصاص أو من واجبات أخيه فيصل. لذلك فقد قرر الإقامة نهائيًا فى وادى عيس. وكان لا يقوم بأى نشاط ضد الحاميات التركية، وكان لا يشجع غيره على القيام بمثل هذه الغارات إلا فى النادر. ولقد علمت أن عبدالله هذا يحسد أخاه فيصلاً ويغار منه. ولهذا السبب كان لا يقوم بأية عمليات عسكرية حتى لا تكون هناك مقارنة بين ما يقوم به هو وبين ما يقوم به فيصل.

واشتدت بى الرغبة فى مغادرة معسكر عبدالله الخامل، وبخاصة بعد أن أنجزت مهمتى على خير وجه، فقررت الرحيل للانضمام إلى فيصل البطل الذى يشتعل بالحماس والرغبة فى تحرير أمته والسير بها فى طريق النصر. ومع فيصل كان مساعدوه كالشريف ناصر وشرف وعلى بن الحسين الذين يؤازرون فيصلاً ومشروعاته جسدًا وروحًا.

غادرت معسكر عبد الله فى الصباح الباكر من يوم ١٠ نيسان بعد وداع عاطفى. وقد رافقنى فى هذه الرحلة ثلاثة من رجال عشيرة عقيل ورسلان السورى وستة من عشيرة جهينة وحمد الكدحى. وسرنا مجتازين بعد ساعة وادى عثمان الذى يتلوى فى مجراه حول التلال، وبعد أن وصلنا مضارب عشيرة دخيل الله دعانا هذا إلى تناول وجبة من الطعام فى خيمته، فوافقنا وبتنا تلك الليلة فى ضيافة محمد دخيل الله وعشيرته.

فى صباح اليوم التالى استأنفنا سيرنا، ومررنا فى طريقنا بكثير من خزانات الماء، غير أن معظمها كان مكسوًا بالطحالب والطفيليات، وبعد فترة وصلنا سهل عقيلة، حيث كان «روص» قائد الطيران فى بلدة «الوجة» قد أنشأ مطارًا، ورأينا الحرس من الرجال العرب يقومون على حراسة مستودعات الوقود فيه، فجلسنا معهم وتناولنا الطعام ضيوفًا عليهم.

وعند الأصيل أحسست بالنشاط الذى لم أتوقعه يدب فى أوصالى وراح بعض الرفاق من رجال عشيرة جهينة يتبارون فى السباق وكان الطريق رديئًا مليئًا بالحجارة، وتعثرت إحدى الدواب والقت براكبها أرضًا فكسرت ساقه على الفور، وقام محمد دخيل الله ليجبرها له فربطها بين خشبتين ومدد الرجل تحت شجرة ليرتاح قليلاً قبل أن يعود إلى عقيلة. وللحقيقة كان رجال العشائر ماهرين فى تجبير العظام، فقد سبق لى أن رأيت فتى قد جبرت ذراعه تجبيرًا خاطئًا، فلم يكن منه إلا أن أخذ خنجره وأخذ يحز فى لحم ذراعه حتى بأن العظم فكسره مرة ثانية وأعاد تجبيره من جديد وبعد أن فرغ من هذه العملية الجراحية المؤلمة استلقى فى فراشه ليرتاح من عناء ما قام به.

* * *

وصلنا بلدة الوجة، وما أن علم فيصل بوصولى حتى جاء إلينا وأخذنى على الفور إلى خيمة داخلية خاصة كى يسمع منى أخبار الرحلة ويحدثنى عن الأمور الجديدة التى حدثت أثناء غيابى. وقد بدا لى أن الأمور تسير سيرًا حسنًا، وأخبرنى أن سيارات جديدة قد وصلت من مصر، كما أن بلدة ينبع قد أخلت من حاميتها وتم نقل الذخيرة من مستودعاتها، كما أن الشريف شرف قد وصل على رأس قوة من وحدات المدافع الرشاشة. وقال لى إنه قد تم إخلاء بلدة «رابغ» وأن الطائرات فيها قد نقلت إلى هنا ورحل الجنود المصريون وجاء معهم أركان القوات المعسكرة فى «رابغ» ومعهم جويس وجوسليت اللذان توليا إدارة الأعمال العسكرية فى الوجة. أما نيوكامب وهورنى فكانا خارج المعسكر فى جولة لنسف الخطوط الحديدية فى شمالى الوجة. وكانت الدعاية لنا بين العشائر قد انتشرت على صورة جيدة. وقبل أن أخرج من خيمة الأمير فيصل جاء خادمه سليمان وهمس فى أذنه ببضع كلمات، وجدت أن وجهه تألق على أثر سماعها، ثم ما لبث أن قال لى:

ـ لقد جاء عودة.

وهتفت متسائلاً:

ـ جاء عودة؟

ورأيت على الفور رجلاً يدخل الخيمة، مفتول العضل وجهه متغضن ونظراته حزينة عاطفية، فسلم علينا وعلى فيصل بقوله:

- السلام عليكم يا أمير المؤمنين.

لقد كان هذا الرجل عودة أبو تاية، ومعه ابنه محمد الذى لم يكن قد تجاوز الحادية عشرة من عمره. وهب فيصل من مجلسه وأمسك عودة بيد فيصل وقبلها ثم انزويا فى ركن من الخيمة يتحدثان على انفراد، فبديا أمام ناظرى رجلين جديرين بالجزيرة العربية، فيصل القائد وعودة المحارب، وكل واحد منهما يليق بدوره وكفيل بتحقيق المسؤولية الملقاة على عاتقه. ولاحظت أنهما يحبان بعضهما بعضًا.

جلس عودة بعد ذلك قرب فيصل ثم أخذ الأمير يقدمنا له، لقد كنا نسمع عن عودة الكثير من الأخبار، وكنا نأمل بفتح العقبة بمعاونته، لقد جاءنا كالفارس التائه وراح يعاتبنا على تأخرنا فى الوجة، وقال إنه يود مخلصًا أن يرى الحرية تنتصر فى بلاده، وقد شعرت من حديثه أنه إذا ما ساوت أفعاله أقواله، فإننا لا شك سنكون على أتم السعادة، لهذا أحسسنا بشىء من الراحة التى هدأت من تفكيرنا المضطرب، وما لبثنا أن قمنا لتناول الطعام.

جلسنا حول السماط، وكنا نتألف من نسيب البكرى وفايز وحمد الدهيلان القريب الدبلوماسى لعودة، وزعل ابن عمه، والشريف ناصر الذى كان فى بلدة الوجة يمضى بضعة أيام من الراحة فيها. وأثناء الطعام حكيت لفيصل بعض الطرائف عن معسكر عبدالله، وفجأة.. هب عودة واقفًا على قدميه وهو يصيح «سامحنى الله» ثم خرج خارج الخيمة، وبعد قليل سمعنا شيئًا يتحطم فخرجت لأرى ما الذى يفعله عودة، فوجدته ينحنى فوق صخرة ويحطم وجبة أسنانه الصناعية. وبعد أن فرغ من تحطيمها التفت إلى قائلاً:

- لقد نسيت أن جمال باشا كان قد أهدانى وجبة أسنانى هذه. وهكذا كنت آكل طعامى يا سيدى بأسنان تركية.

* * *

كان جويس يخيم بالقرب من الشاطئ مع مخيم المصريين. وكنت فى بعض الأحيان أقوم بزيارته لأبحث معه بعض المشاكل والأمور المتعلقة بالحرب، وكانت جميع نشاطاتنا منصبة على الخط الحديدى. أما نيوكمب وجارلند فكانا يخيمان مع مولود مخلص والشريف شرف. وقد انضم لهم عدد كبير من عشيرة بيللى، بالإضافة إلى بعض الوحدات النظامية من المشاة ومدافع الميدان والمدافع الرشاشة وكانوا يأملون أن يتمكنوا من الاستيلاء على الخط الحديدى فى مركز أم أدهم، كما كان نيوكمب ينوى أن يتقدم مع جيوش فيصل إلى مدائن صالح، ويستولى على جزء من الخط الحديدى ليمنع وصول الإمدادات إلى الحامية التركية فى المدينة ومن ثم يرغمها على الاستسلام.

وكان ولسن يود المجىء ليشارك فى هذه العملية، كذلك كان «دفينبورت» يعزم على نقل أكبر عدد يستطيع نقله من الجنود المصريين لدعم الهجوم العربى.

وكنت فى السابق أجد أن هذه الخطة ضرورية جدًا للثورة، وقد شاركت شخصيًا فى وضع قسم منها. ولكن بعد الفترة التى قضيتها فى معسكر عبدالله أثناء مرضى والتى أتاحت لى فرصة للتأمل والتفكير فى الاستراتيجية الحربية التى يجب علينا تطبيقها فى حربنا هذه، تبين لى أن هذه الخطة كانت غير صحيحة. لذلك أصبح شغلى الشاغل بعد ذلك أن أوضح آرائى الجديدة التى أصبحت تناقض آرائى السابقة. وافترضت ثلاثة افتراضات:

١ - إن الجنود غير النظاميين لا يتمكنون أن يفرضوا نهاية حاسمة للمعركة، لذلك يجب ألا يهاجموا نقاطًا معينة.

٢ - الجنود النظاميون لا يتمكنون من الدفاع عن خط أو مركز كما يتمكنون من الهجوم عليهما.

٣ - إن ميزة الجنود غير النظاميين تظهر فى العمق لا فى السطح.

فالحرب فى الجزيرة العربية كانت حربًا جغرافية، ووجود جيش تركى حدث طارئ. إن عملياتنا يجب أن تتركز على البحث عن أضعف الأماكن فى قوة العدو التركى. لهذا -

وحسب ما أوردته - يترتب علينا أن نوسع جبهتنا إلى أوسع مساحة ممكنة وأن نفرض على العدو خطًا دفاعيًا طويلاً، وذلك حتى ننزل بهم أشد الخسائر المادية.

لقد كان واجبنا يفرض علينا إتمام ما نهدف إليه بأقل عدد ممكن من الضحايا. فحياة الشخص العربى كانت فى نظرنا أهم بكثير من المال أو الوقت، لذلك يجب علينا أن نصبر ونحاول أن تصبح على قدر كاف من المهارة لنتبع نظريات «سايكس» فى الاستراتيجية، ونخرج من هذه الحرب ظافرين دون أن نخوض معركة واحدة. وذلك باعتمادنا المجرد على مؤهلاتنا النفسية والرياضية والعددية التى نتفوق بها على العدو. فنحن نملك العديد من السيارات والمدافع الرشاشة، وذلك بكميات أضخم مما يملكه العدو. لهذا يمكننا أن نشكل وحدات ضاربة صغيرة سريعة الحركة مسلحة تسليحًا كاملاً، تقوم بنشاطاتها فى مختلف الأماكن الواقعة على طول خط الدفاع التركى. وإذا ما أكرهنا الجيش التركى على زيادة عدد حامية كل مركز من مراكزه إلى أكثر من عشرين جنديًا، عند ذلك نكون قد بدأنا أول خطوة من خطوات النجاح والنصر.

ولكن كانت جميع آرائى التى عرضتها والاعتراضات التى قدمتها على الخطة السابقة لم تلق آذانًا صاغية، فالجميع كانوا منهمكين فى وضع الترتيبات لتنفيذ الخطة الأولى، لذلك لم يكن فى مقدورهم أن يمنحونى أية سلطة جديدة لتنفيذ خطتى الجديدة المتعارضة والخطة الأولى. ولم يكن أمامى والحالة هذه إلا أن أدرس مع «عودة» الإعدادات اللازمة حول زيارة أقوم بها فى الربيع لمخيمات عشيرة الحويطات فى الصحراء السورية، وكنت عازمًا على إنشاء قوة من الهجانة من أبناء العشيرة المذكورة أهاجم بها العقبة من الشرق دون الاستعانة بمدافع الميدان أو الرشاشات. فهناك من ناحية الشرق كانت أضعف النقاط فى خط الدفاع التركى من العقبة. وهذا الهجوم الذى أنوى القيام به يستوجب قطع مسافة ستمائة ميل فى الصحراء للاستيلاء على موقع يقع على مقربة من مدافع سفننا الحربية. لكننى لم أجد بديلاً أفضل لهذا الهجوم، وقد وافق «عودة» على خطتى هذه، وقال إن نجاح هذا الهجوم يصبح أكيدًا إذا توافر لنا المال والمتفجرات، وقال إن هناك أفخاذًا قليلة العدد ستنضم إلينا إذا دفعنا لها بعض المال.

وكان فيصل على اتصال وثيق بهذه الأفخاذ، فأكد لى ما قاله «عودة». وقد علمت أن رجال البحرية البريطانية قد هاجموا العقبة وأسروا بعض الجنود من حاميتها، وقد أدلى الأسرى بمعلومات عن الأوضاع فى العقبة كانت على جانب من الأهمية، مما شجعنى على التوجه حالا إلى هدفى.

وهكذا وجدتنى أقرر فورًا السير فى طريقى هذا بأمر أو بدونه، فكتبت رسالة مطولة ملأتها بالأعذار إلى كلايتون، ثم أخبرته بها عن الأعمال التى أنوى القيام بها، وبعد ذلك غادرت المعسكر.

■■■



4
معركة العقبة

■■

فى اليوم التاسع من شهر آيار.. غادرت معسكر فيصل عند الأصيل، وكانت تمنياته ودعواته ترافقنا طوال الطريق. وقد قادنا الشريف ناصر، ذلك الرجل الطيب. وعندما أخبرناه بخطتنا تثاءب قليلاً، إذ إنه كان متعبًا بسبب الأشهر العديدة التى قضاها فى الحرب، ثم دعا لنا بالتوفيق.

انتهت المرحلة الأولى من سيرنا عند موقع السبيل، وهذا الموقع قد اعتاد الحجاج المصريون أن يتزودوا منه بالماء، فأقمنا خيامنا قرب صهريج ضخم وبقربه أشجار النخيل. وكان رفاقى فى هذه الرحلة عودة وبعض أقاربه ونسيب البكرى السياسى الدمشقى، الذى أرسله فيصل ليقوم ببعض الاتصالات مع الفلاحين السوريين. وللحقيقة أن نسيب البكرى هذا كان رجلاً مفكرًا يتمتع بمركز مرموق. وقد اختار نسيب البكرى، زكى، رفيقًا له، وهو ضابط سورى سابق فى الجيش العثمانى. وكان حرسنا يتألف من ٣٥ رجلا من عشيرة عقيل تحت إمرة «ابن دغيثر» الذى كان مسجونًا فى قلعة. كما زودنا فيصل بمبلغ ٢٠ ألف جنيه ذهب، وهو كل ما كان باستطاعته أن يقدمه لنا، ولكنه كان على كل حال أكثر مما طلبنا، وكان علينا أن ندفع من هذا المبلغ رواتب الرجال الجدد الذين كنا نأمل أن نجدهم، كما نقدم للحويطات السلفات التى تثير فيهم الحماس للعمل معنا. وقد وزعنا هذا الحمل من الجنيهات فيما بيننا تحسبا للطوارئ.

فى الساعة السادسة مساء بلغنا منحدرات سهلة لينة حتى وصلنا إلى واد ضخم استقبلتنا فيه حدائق «الكر» وجنائنها. وشاهدنا خيامًا بيضاء بين أشجار النخيل. وعندما

ترجلنا عن ظهور جمالنا، خرج راسم وعبدالله ومحمود وحتى مولود مخلص - الصديق القديم - ليرحبوا بنا. وقد علمنا منهم أن الشريف شرف الذى كنا فى زيارته فى موقع «أبو رجا» قد غادر المكان فى رحلة تستغرق بضعة أيام. لذلك قررنا الإقامة فى «الكر» لمدة يومين طلبًا للراحة. وكان يسكن فى «الكر» رجل واحد مع عائلته، واسمه «ضيف الله» كان يعمل مع بناته فى بستانه الذى ورثه عن أجداده. وكان ضيف الله هذا شيخًا طاعنًا فى السن، وكان يسخر منا ومن انهماكنا فى السياسة، وهو يرى أن مطالب الحياة لا تتجاوز تأمين المأكل والمشرب، لذلك كنا نثيره كثيرًا عندما نحدثه عن الحرية وعن تحرير البلاد العربية واستمتاع العرب بخيراتها.

وأخيرًا.. بعد أن نلنا قسطنا من الراحة، أعطيت إشارة الرحيل وسرنا بين سلسلتين جبليتين لمدة أربع ساعات متواصلة، حيث قررنا بعدها أن نخيم فى واد تتوافر فيه المياه. وفى الساعة الخامسة صباحًا عدنا للسير من جديد، وكانت طريقنا هذه المرة وعرة جدًا إلى درجة جعلتنا نطير من شدة الفرح حين بلغنا هضبة فسيحة تنحدر ببطء إلى الشرق، وسرعان ما ظهر أمامنا واد أبيض الحجارة وجدنا فيه بئر أبو سعد، فنزلنا وأمضينا الليل هناك بانتظار عودة شراف من رحلته للإغارة على الخط الحديدى. ولكن هناك عاودنى المرض مرة أخرى، وبدأت حرارتى ترتفع باستمرار، وكنت فى الوقت نفسه أتألم كثيرًا من الدمامل فى أرجلى.

وفى اليوم التالى.. تابعنا المسير على المنحدر، وبعد نصف ساعة فقط وجدنا أننا بلغنا وادى «جزيل»، وهو الوادى الرئيسى لهذه المنطقة الرملية التى كنا قد شاهدنا قسمًا منها بالقرب من «هدية». وأقمنا مخيمنا فى مكان هادئ من الوادى، ثم أرسلنا كشافًا ليستطلع مكان شراف فى الناحية الأخرى من الوادى، وبعد مدة عاد ليعلمنا أنه مخيم هناك. فقررنا أن ننتظره فى مكاننا. ولم يأت شراف إلا بعد ثلاثة أيام وقد كان العرب الذين يرافقونه يهزجون ويطلقون الرصاص من بنادقهم ابتهاجًا، وكانت الوديان والجبال تردد أصداء أصواتهم ورصاصهم. وكنا قد ارتدينا أحسن ملابسنا احتفاء بقدومه، وقد بدا لنا شراف قريبًا جدًا من قلوبنا، وذلك لأنه قد قام بالمهمة الموكلة إليه خير قيام. فقد نسف

الخط الحديدى واحد الجسور بعد أن أسر عددًا من الحراس. وقد أخبرنا أننا سنجد فى وادى «دراع» بركًا من المياه العذبة، مما سيوفر علينا قطع مسافة ٥٠ ميلاً على طريق «فجر» بين نقطتى ماء.

بعد الظهر من اليوم التالى، غادرنا منطقة «أبو رجا» وتبعنا عودة فى واد جانبى يؤدى إلى سهل الشيخ. وفيما نحن نتابع سيرنا رأينا ستة فرسان يطلون علينا فجأة قادمين من جهة الخط، فأسرعنا لمعرفة هويتهم، فتبين لنا أنهم من الجيش العربى، وقد بدا أن الأول كان يركب جملاً كبيرًا عليه سرج من الخشب، صنع مانشستر، يدل على أنه من فرقة الهجانة البريطانية وكان أشقر الشعر فعلمت أنه إنجليزى وكانت ثيابه العسكرية ممزقة. فعلمت على الفور أنه المهندس «هوربى» تلميذ نيوكمب الذى كان ينافسه فى مهمة تخريب الخط الحديدى. وكان هذا أول لقاء بيننا، وقد تبادلنا التحية ثم علمت منه أن نيوكمب قد توجه إلى بلدة الوجة لمقابلة فيصل للتزود منه ببعض المعلومات.

لقد كان نيوكمب يقع فى مآزق عديدة دائمًا. وهذا يعود قبل كل شىء إلى حماسته الزائدة وإلى رغبته فى أن يقوم بأربعة أمثال الأعمال التى يقوم بها أى إنجليزى آخر، وعشرة أمثال ما يجده العربى معقولاً وضروريًا، كان «هورنبى» لا يعرف من اللغة العربية سوى كلمات معدودة، إلا أن نيوكمب كان يعرف منها ما يكفى لإعطاء الأوامر وربما الإقناع. وعند غروب الشمس، كنا قد بلغنا هضبة رملية كثيرة الحصى، وقرر عودة الاستمرار فى السير أثناء الليل مسترشدًا بالنجم القطبى وعند السابعة حين توقفنا لم يعد معنا سوى أربعة رجال، فضربنا خيمنا فى واد صغير لقضاء الليل. وفى الصباح استأنفنا سيرنا مجتازين وادى دراع بين تلال من الرمال المتحركة والمكسوة فى بعض الأحيان بالصخر الأحمر. وتقدم ثلاثة أو أربعة منا زحفًا على بطونهم إلى مرتفع رملى لإلقاء نظرة على الخط الحديدى الذى دنونا منه، وبدا لنا هادئًا ممتدًا على أرض ملساء عند مدخل الوادى السحيق. وكان رفاقنا الباقون يسيرون وراءنا بحذر شديد وأيديهم على زناد أسلحتهم. وأشرنا إليهم كى يتوقفوا فى أماكنهم فى الوادى حتى ندرس عن قرب الخط الحديدى وفى الواقع كان كل شىء هادئًا مقفرًا، فعدنا إلى قواعدنا حيث عاودنا السير مع رفاقنا.

امتازت ليلتنا التالية بالزهد فى الأكل والشرب، فقد نضب الماء وقل مخزون الأكل فى جعبنا، لكننا نمنا قريرى العين بسبب يقيننا من أننا سنشرب فى صباح اليوم التالى، فاستلقينا على بطوننا كى لا نصاب بانتفاخ الصوم. ومن الجدير بالذكر هنا.. أن من عادة العرب المتجولين فى الصحراء إذا ما وصلوا إلى بئر ماء أن يشربوا منه حتى التقيؤ، ويبقون بعد ذلك دون شرب حتى يصلوا إلى بئر ثانية. أما إذا كانوا يحملون ماء معهم فسرعان ما يلقون به عند أول استراحة بعد تركهم للبئر.

فى صباح اليوم التالى قادتنا المنحدرات المجاورة إلى مجموعة من التلال إلى أن بلغنا فى الساعة الثامنة بئر «عرفجة»، حيث وجدنا العشب والماء متوافرًا هناك، فقررنا أن نقضى اليوم بين الماء والعشب الأخضر، وأرسلنا رجلاً من الرجال للاستطلاع عن «الحويطات» فى جهة «مقوى» أول آبار السرحان من ناحية الجنوب.

وما أن سار الرجل بضع خطوات، حتى رأى أحد الرجال فرسانًا يختبئون بين الأشجار إلى الشمال من مكاننا. فأصدرنا الأوامر على الفور بالاستعداد للقتال، وركب محمد الغفلان بعيره مع بعض الرجال واتجهوا إلى مكان العدو المزعوم، ووزعت أنا الرجال على الكثبان المجاورة. لكن العدو ما أن رآنا حتى أركن إلى الفرار، وعاد محمد الغفلان ليقول إنه لم يلحق بهم إشفاقًا منه على بعيره المنهوكة. وكان هذا العدو ثلاثة رجال يعتقد أنهم كشافة لغزو تهيئ له قبيلة شمر فى المنطقة، لذلك كان البقاء فى «عرفجة» أمرًا محفوفًا بالخطر.

وطلب عودة من ابن أخيه «زعل» أن يذهب ليستطلع عدد العدو، فانطلق ليعود بعد برهة ويقول إن آثار الأقدام القريبة تدل على أنهم كثيرو العدد، لكنه لا يمكن التمييز بين الآثار القديمة والجديدة بسبب الريح. وفجأة سمعنا طلقًا ناريًا من ناحية الشرق فوق كثبان الرمال، وإذا بأحد الرجال من بنى عقيل يقع وسط مجلسنا وهو يصيح صوتًا مخيفًا. وعلى الفور ألقى محمد الغفلان بكومة من الرمل على النار التى أشعلناها فاطفأها. وأسرعنا إلى أسلحتنا جميعًا وبدأ الحراس يطلقون النار بقوة وعنف. ولم نكد لنقتصد فى الرد على العدو طالما الذخيرة متوافرة لدينا.

وبالتدريج خفت حدة الهجوم بعد أن أذهلنا العدو بسرعتنا فى الرد على نيرانه. وأخيرًا توقفنا عن إطلاق النار بعد أن صمتت نيرانه. ودام السكون نصف ساعة، فخرج «زعل» ليستكشف الأمر، وبعد مدة عاد إلينا ليقول إن العدو قد لاذ بالفرار وأن عددهم يقدر بعشرين رجلاً.

رغم تلك التأكيدات فقد بتنا تلك الليلة على أشد ما نكون من القلق، فقد كان هدفنا محاربة الأتراك فقط، وهذه المعارك بين العرب أنفسهم كانت خسارة لا جدوى منها. وفى صباح اليوم عاودنا المسير بعد أن دفنا الرجل الذى قتل عند ابتداء الغارة، فاجتزنا نحو ١٢ ميلاً وأقمنا مخيمًا فوق كثبان الرمال تحسبًا من غارة جديدة.

وفى الصباح الثانى واصلنا سيرنا لمدة خمس ساعات حتى وصلنا إلى واحة من النخل والطرفاء غنية بالماء، ولكن تبين لنا أن هذا الماء لم يكن صالحًا للشرب.. وفجأة أطل فارس علينا فانتابنا القلق على الفور لمشاهدته، ولكن سرعان ما تبين أنه من رعاة «الحويطات» وبعد أن تبادل التحية معنا جلس وقال إن قبيلته المخيمة بالقرب منا فى عيسوية النبك، منتظرة أخبارنا بكثير من الشوق. وأخبرنا أن كل شىء على ما يرام هناك. فاستأنفنا سيرنا ووصلنا «العيسوية» بعد ساعة، حيث يخيم على أبو فتنة شيخ إحدى عشائر عودة. وكان هذا الشيخ كريمًا جدًا فقدم إلينا خيمته وأمر الرجال بإعداد العشاء اللائق لنا.

وهكذا انتهت رحلتنا بسلام، فقد وجدنا عرب الحويطات على أحسن حال. فعقدنا اجتماعًا فى صباح اليوم التالى، وقررنا أن ندفع إلى نورى الشعلان قبل كل شىء ستة آلاف ليرة ذهبية تعويضا عن وجودنا فى السرحان، ومقابل ذلك نطلب منه الإقامة فى أراضيه لمدة ستة أشهر حتى تجهز الجيوش. وقد تبرع عودة بالتفاوض مع نورى الشعلان نظرًا لأهمية هذه القضية، بالإضافة إلى كونه صديقًا شخصيًا له. وكانت قبيلة نورى الشعلان قريبة جدًا منا، وهى قوية جدًا لدرجة أن عودة كان يهاب منازلتها رغم رغبته الشديدة فى ذلك.

* * *

بقينا مع على أبو فتنة فترة، وكان علينا أن نتقدم بمراحل صغيرة نحو النبك الذى عينه عودة إلى قبيلة أبى طيه مكانًا للتجمع. وبعد برهة وجيزة جاء شيوخ أبى فتنة معلنين أننا سنشرفهم إذا قبلنا ضيافتهم مرتين كل يوم عند الفجر.. وعند غروب الشمس. وللحقيقة كانت ضيافتهم لا تعرف حدودًا «للكرم»، ومع الأسف فقد كانت انتهازيتهم على هذا الشكل أيضًا.

وبقينا فى العيسوية بضعة أيام بعد ذهاب عودة محملاً بستة أكياس من الذهب لمقابلة نورى الشعلان، وكانت خلالها قبيلة أبى طيه تقيم الحفلات على شرفنا كل يوم، وتحرص على أن تقدم لنا أفضل ما لديها من طعام. وفى الثلاثين من شهر آيار ارتحلنا جميعًا، فسرنا لمدة ثلاث ساعات فى واد بركانى قديم، وكانت قبيلة أبى طيه قد ارتحلت معنا أيضًا وسارت إلى جانبنا، وقد أتيح لى للمرة الأولى أن أراقب من الداخل تحركات قبيلة عربية وأمارس دورى فى روتين سيرها اليومى.

كان الجميع يسيرون على سجيتهم وهم يهزجون ويمرحون ويضحكون، أما أنا فقد كنت منحرف المزاج ثائر الأعصاب بسبب تصرفات بعض الرجال أمثال داود وفراج، كما كنت ثائرًا من كثرة الأفاعى التى ما انفكت تفاجئنا بشكل متزايد منذ دخلنا منطقة السرحان. وقد أخبرنى أحد الرجال أن الأفاعى هنا ليست أكثر عددًا مما هى عليه فى أى مكان آخر فيه ماء فى الصحراء، لكن وجودها بأعداد كثيرة هذه السنة فى وادى السرحان أمر غريب حقًا. وأضحت كل حركة نقوم بها فى الليل محفوفة بالمخاطر، وترتب علينا أن نعمد بعصينا إلى الضرب على كل شوك نمر به للتأكد من عدم وجود أفاع متربصة بنا فيها، علمًا بأننا كنا نسير حفاة الأقدام. وكان من المستحيل أن نسحب الماء من الآبار فى الليل لأن الأفاعى كانت تلجأ إليها لتسبح أو لتنام. وقد قتل ثلاثة من رجالنا بسبب عضات الأفعى، كما أصيب بالتسمم أربعة آخرون. وكان «الحويطات» يستخدمون علاجًا للسعة الأفعى هو لزقة من جلد الثعبان على جلد الملسوع ثم تلاوة بعض الآيات القرآنية بانتظار أن يموت الملسوع. وكانوا ينتعلون الجزمات الحمراء الطويلة اتقاء من لدغات الأفاعى.

ومن أغرب عادات الأفاعى أنها تحب النوم تحت أغطيتنا أو فوقها، ربما طلبًا للدفء، الأمر الذى كان يحملنا على السهر والحذر الشديدين. وكان معدل ما نقتله يوميًا من الأفاعى يفوق العشرين. وكنت أنا لشدة خوفى من مجرد مشاهدة الزحافات أكثر الجميع رغبة فى الخروج من وادى السرحان. وبعد ظهر أحد الأيام، بينما كنت مستلقيًا إذا بفراج وداود يقفان قربى يتهامسان ويتبادلان الإشارات والابتسام. وما أن نظرت إلى حيث يشيران حتى رأيت ثعبانًا كبيرًا ينظر إلى بعينيه البراقتين. وانتصبت واقفًا فى الحال وصرخت لعلى الذى جاء فقتل الثعبان بعصاه. ثم أمرته أن يجلد فراج وداود ست جلدات لاستخفافهما. وما أن سمعنى ناصر أصدر أمرى هذا حتى طالب بمضاعفة العقوبة وإنزال عقوبة أشد منها، إلا أننى توفيرًا عليهما من هذه العقوبة الجسدية وجدت أن أستبدلها بعقوبة معنوية فأمرتهما بأن يلتحقا بخدمة النساء ويعملان فى جمع الماء ونقله. وقد نفذ هذا الأمر لمدة يومين قضياهما فى (أبى طرفية)، وبعد ذلك استأنفنا السير يومين آخرين نزلنا بعدهما فى الغوطة حيث كان الماء متوافرًا فيها. وبالقرب من عقيلة برزت أمامنا عدة خيام خرجت من بينها فرقة قدمت نحونا، وكان على رأسها (عودة أبو تاية) الذى رجع من زيارته لنورى الشعلان، و(الأعور درزى بن ضغمى) وهو مضيفنا القديم فى الوجة. وما أن رأيته حتى تأكد لى أن عودة قد نجح فى مهمته. وقد رأينا أيضًا شرذمة من فرسان الرولا تستقبلنا أمام بيت قائدها بالزغاريد وألعاب الفروسية وغير ذلك.

كانت هذه المشيخة المتواضعة تضم بساتين النخيل المحاطة بالأسوار، وقد نصب لنا قريبًا من إحداها خيمة بيضاء إلى جانب خيام ثانية كانت أبرزها خيمة (عودة) وهى سبعة أعمدة طولاً وثلاثة عرضًا، ثم خيمة زعل.

* * *

بات من المعتقد أن النبك أصبحت قريبة جدًا منا. وكان عودة والشريف يقضيان معظم الوقت جالسين تحت خيمتهما يعدان الخطط وينظمان تجنيد الرجال. ورحت أنا

وبعض الرفاق السوريين نناقش العمليات المقبلة. وكعادتهم كان تفكيرهم يعجز عن التركيز على الهدف الرئيسى ويتيه بطريق متعرجة نحو الدائرة الهاشمية المحيطة بتلك المنطقة. وكانوا شديدى الحماس، وقد نسيا القضية واستخفا بالهدف الإيجابى لحملتنا. وكان أحدهما (نسيب) يعرف عرب الشعلان والدروز، لذلك فقد كان يرى تقديمهم على (الحويطات) فى قضية التجنيد. كما كان فكره يذهب إلى (درعا) أكثر منه إلى (معان) وكانت دمشق هدفه الوحيد دون (العقبة) وكان رأيه أن الأتراك غير مستعدين للمواجهة فى أى مكان. لذلك فباستطاعتنا أن نباغتهم وأن نتأكد من وصولنا إلى أول أهدافنا. وكلما كان الهدف كبيرًا وساميًا كانت قيمته أكبر بالنسبة لنا. وقد تبين لى أنهم يقصدون من كل هذا دمشق بالذات. فلفت نظرهم إلى هذا التهور فى التخطيط، ففيصل لايزال فى (الوجة) والإنجليز حالتهم سيئة فى غزة، وفى نفس الوقت كانت تركيا تحشد جيشًا آخرًا فى حلب كتمهيد للانقضاض على العراق لاسترجاعه من أيدى الإنجليز. فإذا ذهبنا إلى دمشق فإننا سنجد أنفسنا فيها دون أى عون خارجى ودون إمدادات أو تنظيم.

لكن محاولتى هذه لم تجد، فنسيب هذا كان يتخطى كل القواعد الجغرافية والفنية مما جعل عناده يشكل خطرًا كبيرًا على مخططاتنا، ولم يبق أمامى إلا الوسائل الدنيئة الخسيسة لأقنعه بها. وهكذا ذهبت إلى عودة لأقول له إن المال والعون سيذهبان إلى نورى الشعلان إذا هو أخذ بمخططات نسيب. ثم ذهبت إلى ناصر وبذلت كل ما بوسعى كى أحمله على تنفيذ مخططاتنا مهما كلف الأمر. وكان من السهل جدًا بالإضافة إلى ذلك إذكاء نار الحسد بين شريف ودمشقى، فالأول شيعى يتباهى بكونه من سلالة على والحسين، والثانى يدعى بأنه من سلالة أبى بكر.

لقد كان هذا الأمر بالنسبة لحركتنا مسألة حياة أو موت. فإذا احتللنا دمشق فلن نتمكن من الاحتفاظ بها أكثر من ستة أسابيع على الأكثر، لأنه تنقصنا البواخر لإنزال الجنود فى بيروت. وإذا خسرنا دمشق فيما بعد، فإننا نخسر فى الوقت ذاته حلفاءنا المحليين. وفى نظرى كانت (العقبة) المنفذ الوحيد الذى يمكننا فتحه والمرور منه بأمان إلى سوريا، هذا إذا استثنينا الفرات الأوسط.

أما قيمة العقبة الخاصة فى مفهوم الأتراك فقد كانت فى موقعها بالنسبة للجيش البريطانى. وفى نهاية عام ١٩١٤ كانت القيادة العليا التركية قد اختارت العقبة ممرًا رئيسًا لقناة السويس، لكن صعوبات التزود بالطعام والماء جعلتها تفضل عليها بئر السبع. وبما أن الجبهة الإنجليزية قد أصبحت أقرب من قناة السويس وفى أنحاء غزة وبئر السبع، فإذا تزود الجيش التركى بالطعام والماء أصبح الأمر أكثر سهولة، لأن المسافة تصبح أقرب بين القاعدة والجبهة. ومن ناحية أخرى كانت قيمة (العقبة الجغرافية قد ازدادت أهمية لكونها قد أصبحت وراء الجناح البريطانى الأيمن، ويكفى لقوة صغيرة تأتى من القاعدة لتهديد العريش أو السويس.

أما بالنسبة للعرب فقد كانوا بحاجة إلى (العقبة) لتوسيع جبهتهم حسب مخططاتهم من ناحية، ومن ناحية أخرى لإقامة ارتباط واتصال مع القوات البريطانية. وإذا هم استولوا على العقبة فسيسيطرون على سيناء ويتمكنون من الاتصال مع السير ارشيبالدمورى. وبذلك يكونون قد برهنوا فعليًا عن منفعتهم فى إدارة أمور الحرب ويصبح بعد ذلك فى إمكانهم الحصول على المساندة المادية من الحلفاء. وكان الضعف البشرى فى هيئة الأركان الإنجليزية قد بلغ حدًا بات يكفى معه حصول اتصال حسى واحد مع انتصارنا لإقناعها بأهميتنا. وكان ارشيبالدمورى يعطف علينا، وما أن نصبح جناحه الأيمن فسرعان ما يجهزنا بكل ما نحتاجه دون أن نطلب منه ذلك، لأنه سيشعر عندئذ بحاجته المادية إلينا. فبالنسبة للعرب إذن، كانت العقبة تعنى المال والمؤن والسلاح والخبراء الفنيين، وكنت أود أن يقام هذا الاتصال مع القوات البريطانية كى نصبح جناح القوات الحليفة الأيمن فى معركة احتلال فلسطين وسوريا، وكى أثبت أخيرًا رغبة الشعوب العربية كلها فى إقامة حكومة وطنية حرة وحقها الطبيعى فى هذا.

لحسن الحظ، وقف ناصر وعودة الموقف الذى كنت أريده. وبعد أن اتهم نسيب وعاتب، قرر أن يتركنا ويذهب مع زكى إلى جبل الدروز أملاً فى أن يعد حملة كبرى تهجم من هناك على دمشق لتحتلها. ورغم ثقتى من أنه أعجز من تجهيز أى شىء، فلم أكن أسمح بأن يخلق فى تلك المنطقة حركة ناقصة تقضى على كل إمكاناتنا. لذلك.. فقد عزمت أن

أجرده قبل أن يسافر من جميع تلك السموم التى كانت معه، أى المال الذى كان الأمير فيصل قد أعطاه له ساعة توزيع الأموال علينا لأجل الحركة، وقد ساعدنى بحماقته على تسهيل مهمتى عندما جاءنى قبل سفره، لعلمه أن ما لديه لا يكفى لتنفيذ مشاريعه، ولاعتقاده ببساطة الإنجليز وسهولة انقيادهم، يطلب وعدًا بتقديم مزيد من المساعدات له فى حال نجاحه فى إعداد حركة سورية مستقلة عن حركتنا يتولى هو قيادتها بنفسه. واغتنمت هذه الفرصة لأستفيد منها وأتخلص من خطر نسيب فتظاهرت بتأييده والإطراء عليه ووعدته بتقديم كل ما يحتاج إليه شرط أن يسلمنى الآن كل ما أعطيناه إياه، وقلت له: بعد استيلائنا على العقبة سنتمكن من أخذ كل ما يلزم لتحركاتنا جميعًا. ووافق نسيب على ذلك مرغمًا، ورأى ناصر فى كيسى الذهب الجديدين نعمة هبطت علينا من السماء.

لم يكن تفاؤل نسيب ليذهب دون أن يدع فى نفسى بعض الأثر. فقد كنت دائمًا أنظر إلى مسألة تحرير سوريا على مراحل، أولاها مرحلة العقبة، والآن صرت أعتقد أن هذه المراحل بدأت تتقارب. وما أن خرج نسيب من طريقى حتى جهزت خطة تقضى بأن أذهب بنفسى وأقوم بجولة استطلاعية فى الجبهة الشمالية. وشعرت بالحاجة إلى القيام بهذه الجولة فى سوريا لتصحح أفكارى الاستراتيجية المستمدة من الحروب الصليبية والفتوحات العربية الأولى، لنجعلها تتوافق مع عاملين جديدين: الخطوط الحديدية وجيش ارشيبالدمورى فى سيناء.

والانشغال بهذا الشكل كان يناسب المزاج الضال الذى كنته وأنا فى ذلك الحين. كان علىّ أن أكون سعيدًا من هذا الوجود الجوال، المتحرر من كل قيد وسط قوة تحارب حسب خطة كنت أنا قد رسمتها. لكن سعادتى هذه كان يخامرها شعور بوجود خيانة ما. فالثورة العربية كانت قد تهيأ لها بطريقة مخادعة. ولدفع الشريف حسين إلى العمل، كانت الحكومة البريطانية ممثلة بالسير هنرى مكماهون فى القاهرة، قد أعطت وعدًا بإقامة حكومة عربية فى بعض أجزاء من سوريا والعراق، دون الاهتمام بمصالح فرنسا الحليفة. وهذه الإشارة الغامضة كانت تخفى معاهدة بقيت مجهولة من مكماهون وبالتالى من

الشريف حسين، وذلك حين تم الاتفاق بصورة نهائية بين بريطانيا وفرنسا وروسيا على ما يلى:

١ ـ ضم بعض الأجزاء من المناطق الموعود بها.

٢ ـ تقسيم باقى الأجزاء إلى مناطق نفوذ.

وعن طريق تركيا وصل خبر هذه الخدعة المنمقة إلى مسامع بعض الزعماء العرب. ومن عادة الشرقيين أن يثقوا بالأشخاص أكثر من المعاهدات. وعلى هذا الأساس، وبعد أن تأكد لهم إخلاصى وصداقتى فى الحرب، طلب العرب منى بصفتى وكيلاً حرًا أن أضمن وعود الحكومة البريطانية. ولكنى لم أكن قد اطلعت بصورة رسمية أو شخصية على تلك الوعود التى قطعها مكماهون، ولا اطلعت على معاهدة سايكس ـ بيكو، فهى كلها قد جرت عن طريق وزارة الخارجية. وقد كنت متأكدًا أن جميع هذه الوعود، إذا ما ربحنا الحرب، ستبقى حبرًا على ورق. وهكذا ترتب على، إذا ما أردت أن أبقى مستشارًا شريفًا، أن أنصح رجالى بالعودة إلى أهلهم وبيوتهم بدلا من المجازفة بأرواحهم فى سبيل قصص وخدع من هذا النوع. ولكن.. ألم تكن الحماسة العربية أحسن أداة نستعملها فى حربنا فى الشرق الأدنى؟ وهذا الأمر هو الذى دفعنى إلى التأكيد للرفاق فى حمل السلاح بأن إنجلترا ستحترم وعودها قلبًا وقالبًا. وما أن سمع العرب منى هذا الوعد حتى دبت فى نفوسهم الحماسة مرة أخرى وراحوا يحاربون بشجاعة فائقة. أما أنا فبت لا أفخر بالانتصارات التى كنا نحققها بل كنت أشعر بالخجل لعلمى الأكيد بأن ما قلته لا قيمة فعلية له.

وقد تبين لى مركزى بجلاء ذات مساء عندما قدم لى نورى الشعلان ملفًا حقيقيًا لمستندات متناقضة، وقد طلب منى أن أحدد له أى من التعهدات البريطانية الشرعية يستحق أن نثق به. وكان على جوابى يتوقف نجاح فيصل أو فشله. فأبديت له برأى لم أقلق له نفسيًا، إذ قلت إنه يترتب الاعتماد إلى آخر متناقضاتنا. وهذا الرد الماهر الحذق قد جعلنى بعد ستة أشهر رجل «الثقة التامة» فى سوريا. وقد حملتنى هذه الثقة المطلقة

على أن أقسم بينى وبين نفسى على أن أجعل من الثورة العربية أداة تعمل لهدف ذاتى، أكثر منها خادمة للجيش البريطانى، وأخذت على نفسى العهد القاطع بأن أقود تلك الثورة مهما كلفنى الثمن، إلى النصر على الرغم من انتهازية الدول الكبرى، وهذا يفترض بقائى على قيد الحياة حتى توقيع معاهدة السلام كى أربح المعركة الأخيرة فى غرفة الاجتماعات.

ولكن لم يكن لى الحق أن أجر العرب إلى معركة حياة أو موت، فى غفلة منهم، وأدعهم يجرون فيها وراء شبح حق. وهكذا ولكى أنتقم لنفسى من موقفى الخاطئ قررت القيام برحلتى الطويلة والخطيرة إلى سوريا. وكنت أظن أننى سأرى أصدقاء فيصل السريين وسأقدر بعناية المراكز الحساسة لحملاتنا القادمة. وها قد مضى على خروجنا من الوجة ما يقارب الخمسة أسابيع، وكنا قد صرفنا تقريبًا كل ما لدينا من مال واستهلكنا كل ما لدينا من مؤن وطعام، ولم يعد هنا من شىء يعيق سفرنا، وكان حب المغامرة التى اندفعنا إليها يعزينا عن كل شىء.

* * *

ابتدأنا الرحلة قبل الظهر وتقدمنا ناصر على ناقته الرشيقة، وكان عودة يسير إلى جانبه وأنا بالقرب منهم. وكانت وجهتنا الأولى منطقة «باير» الواقعة إلى مسافة ٣٠ أو ٤٠ ميلاً إلى الشرق من الخط الحديدى. ومسير ستين ميلاً كان كافيًا لإيصالنا إلى هناك، حيث أقمنا بضعة أيام، كان خلالها الكشافون يذهبون إلى القرى الجبلية المشرفة على البحر الميت ليحضروا لنا الدقيق بعد أن فرغت المؤن التى حملناها من الوجة.

لقد أصبح فريقنا يبلغ عدده الآن نحو ٥٠٠ رجل. وعند الفجر استأنفنا المسير، وبعد ساعة واحدة وصلنا المنخفض الكائن بين سنينيرة وثلاث أخوات: وهناك دخلنا وادى باير، وتقدمنا الرجال أنا وعودة، وبعد ساعتين بانت لنا باير فجأة عند أسفل تلة رملية. وعند ذلك قال لى عودة إنه جاء ليزور قبر ولده (عناد) الذى قتل هناك على يد خمسة من بنى أعمامه فى معركة أخذ بالثأر بعد معركة بطولية رائعة.

وفى الطريق المؤدية إلى المقابر اعترانا الذهول من الدخان المتصاعد من منطقة الآبار. وعندما أسرعنا إلى هناك لم نر أحدًا، ولكننا لاحظنا أن أحدًا قد نسف البئر بالديناميت. عند ذلك أسرع عودة إلى البئر الثانية والثالثة فوجد أنها كانت منسوفة كلها، ولما وصل إلى البئر الرابعة وجدها على حالها فأوشك أن يطير من شدة الفرح. ذلك أن الخوف قد تملكنا من أن الأتراك قد كشفوا أمرنا ونسفوا الآبار أمامنا لعرقلة تقدمنا. وخشينا من أن يكونوا قد نسفوا أيضًا آبار «الجفر» إلى الشرق من معان؛ حيث اتفقنا على اللقاء قبل الهجوم على «العقبة» ولكن الآن بعد العثور على البئر الرابعة فى حالة سليمة فقد زال خوفنا. وانصرفنا على الفور إلى ترميم البئر الأقل تخريبًا من البقية. وهكذا أصبح لدينا بئران بين معان والعقبة، بالإضافة إلى مشكلة آبار الجفر. فطلبنا إلى أحد الرجال أن يذهب إلى هناك ليستطلع حالتها، كما أرسلنا قافلة من عرب الحويطات إلى «طفيلة» كى يشتروا لنا بعض المؤن.

وكنا بأشد الحاجة إلى القبائل على طريق العقبة وخاصة مساندتها الإيجابية لنا ضد الأتراك لتنفيذ المخطط المؤقت المرسوم فى «الوجة». وكان هدفنا أن ننقض فجأة من الجفر، ونقطع الخط الحديدى لنحتل (نقب الشتار). ولكن لنحتفظ بالتلال المشرفة على الطريق بين معان وسهل «قويرة»، فعلينا الاستيلاء على «أبو اللسن» وهى نقطة الماء المحصنة على مسافة ١٦ ميلاً من معان كانت ضعيفة الحراسة، وكنا نرجو أن نتمكن من الاستيلاء على المكان الاستراتيجى من أول غارة، فتصبح عند ذلك طريق التموين تحت سيطرتنا. كما يجب أن تستسلم لنا بقية المراكز عند نهاية الأسبوع، إلا إذا تقاعست القبائل فى الجبال عن مساعدتنا، وكان هذا أمرًا محتمل الحدوث.

كان الهجوم على أبو اللسن أهم عملية من عملياتنا. وحامية معان وحدها كان من الممكن أن تخاطر وتخرج من مكانها لطردنا من تلال «الشتار»، ولكنها لكى تقوم بهذه المخاطرة يجب أن يكون عددها كبيرًا. فإذا كان عدد الأتراك فى معان لا يزيدون على كتيبة واحدة، فهذا يعنى أنهم لن يتجرءوا على القيام بمثل هذه المخاطرة، بل سيتركون أبو اللسن تسقط فى أيدينا بانتظار وصول الإمدادات لهم. وفى هذه الحالة نستولى على

العقبة. إذن فنجاحنا كله متوقف على تهاون حامية معان وضعفها. وكان علينا ألا ندع الأتراك يشعرون بوجودنا فى الجوار.

ولم يكن أمر الاحتفاظ بسرية تحركاتنا سهلاً، فقد كنا نسير ونبشر السكان المحليين بتخليصهم من النير العثمانى ونحرضهم فى الوقت نفسه على الثورة. وبالطبع فإن الذين لم يقتنعوا بما نقوله لهم كانوا يسرعون إلى إبلاغ السلطات التركية عن تحركاتنا. وهكذا، فإن سيرنا الطويل فى منطقة وادى الرمان كان أمرًا معروفًا لدى العدو، وكان من الواضح أن هدفنا كان (العقبة). أما عن عملية نسف آبار باير والجفر، فقد أخبرنا الرسول الذى أرسلناه للاستطلاع من هناك أن الأتراك كانوا يتحسبون لنا ولو على المدى الطويل.

ولكن لا يمكن معرفة مدى حماقة القيادة التركية والاعتماد عليها، فتارة كانت حماقتهم تخدمنا وتارة تلحق بنا أشد الأضرار. والعرب المعروف عنهم سرعة الخاطر التى لا مثيل لها كانوا يحتقرون الأتراك، أما فى الوقت الحاضر فقد كانت حماقة الأتراك تخدمنا، فتظاهرنا بأن هدفنا التالى كان دمشق.

وفى الحقيقة كان ممكنًا أن يخاف الأتراك ضغطنا من هذه الجهة، فخط السكة الحديدية إلى الشمال من درعا إلى الجنوب من عمان يربط العاصمة بالحجاز وبفلسطين. والهجوم على هذه النقطة تنتج عنه خسارة مضاعفة. لذلك فى أثناء جولتى فى الشمال.. تعمدت نشر الأخبار عن قرب وصولنا إلى جبل الدروز، وقد سررت جدًا لتصرفات نسيب ودعوته إلى الثورة فى الجبل بكثير من الضجة. وتعمد أيضًا نيوكمب أن يترك بعض الزوارق بالقرب من الوجة وفيها مخطط لهجوم نلعب فيه دور الكشافة. وكان هذا الهجوم التضليلى سينطلق من العربة مرورًا بالجفر والسرحان متجهًا إلى تدمر ودمشق وحلب. وقد اعتبر الأتراك هذه المستندات صادقة، فأرسلوا إلى تدمر حامية كبيرة من جيشهم حيث رابطت هناك منتظرة قدومنا المزعوم حتى نهاية الحرب.

* * *

وكان من الحكمة أن نقوم بالأسبوع الذى أمضيناه فى باير ببعض النشاط المحسوس بنفس الأسلوب، وذلك لإقناع الأتراك بصدق مخططاتنا. ولذلك فقد قرر عودة أن نذهب

أنا وزعل على رأس فرقة ونهاجم الخط الحديدى بالقرب من درعا. فاختار زعل مائة وعشرة رجال من أفضل رجالنا، وانطلقنا نقطع الفيافى بجلد وصبر على مراحل.. كل منها مدتها ست ساعات نرتاح بعدها ساعة أو ساعتين لنعاود المسير فى الليل والنهار على السواء. وبعد ظهر اليوم التالى وصلنا إلى الخط بالقرب من الزرقاء، القرية الشركسية إلى الشمال من عمان. وبما أن الشمس والتعب كانا قد أخذا مأخذهما من الجمال، فقد قرر «زعل» أن يسوقها إلى قرية مجاورة لتشرب. كانت هذه القرية على مسافة ميل واحد من الخط، ولكن كان يتوجب علينا الحذر من الشراكسة الذين يبغضون العرب، كما كان علينا أن نحترز من نقطة عسكرية تركية على جسر مرتفع تراقب الخط عن كثب.

بعد أن تم كل شىء، قطعنا ستة أميال أخرى كى نصل مع الغروب إلى جسر (ضُليل) الذى راودتنا الرغبة فى نسفه، لولا أن وجدنا عمالاً وجنودًا أتراكًا يقومون بإصلاح جسر آخر بالقرب منه كانت السيول قد جرفت أربعًا من قناطره. وبدا لنا نسفه عديم الفائدة، فقررنا أن نتابع سيرنا إلى الشمال لجهة (منيفير)، وهناك أعتقد (زعل) أننا سنجد المكان الملائم لوضع لغم. ونسف قطار أكثر من نسف جسر سيقنع الأتراك بأن جيوشنا موجودة فى (الأزرق) فى وادى السرحان على مسافة ٥٠ ميلاً إلى الشرق. وبناء على ذلك تابعنا سيرنا إلى الشمال ووصلنا تلال (منيفير) التى وجدنا فيها المكان الملائم للعمل، وبالتالى للانسحاب نحو الصحراء فى الشرق. فإلى جهة الشمال كنا نرى الخط الحديدى من هناك يمتد إلى هضبة حوران الجنوبية، على مدى النظر وإلى الجنوب كانت ترتفع تلة صخرية يمكننا أن نراقب من عليها ستة أميال من الخط الحديدى. وإلى الغرب فى (البلقاء) بدت خيام القرويين نقاطا سوداء على المنحدر. وكى نأمن جانب هؤلاء أوفدنا رسلنا إليهم. وفى أثناء الليل وضعنا أنا وزعل ثلاثة ألغام أوتوماتيكية من صنع (غلولان) تحت الخط الحديدى، وعدنا إلى قواعدنا بين التلال نترقب مرور القطار وانفجار الألغام. ولكن النهار طلع وشىء من ذلك لم يحدث، واضطررنا أن نمدّ فترة الانتظار. فى هذه الأثناء عثر رجالنا على جريحين تركيين كانا قد هربا من فرقة تركية

تتجـول فى المنطقـة لحمـايتهـا. وبعـد ظهـر ذلك اليوم رأى حـرسنا عن بعـد تلك الفـرقة التركية تتجه نحو الشمال وعددها يناهز المائتين. فألح زعل ورجاله على مباغتتها على أمل القضاء عليها والاستيلاء على عتادها والبغال التى معها. ولما سألت زعل عن خسارتنا المنتظرة من الرجال، أجابنى: (حوالى الخمسة أو الستة.) فقررت عدم التعرض للعدو لأن (العقبة) هى هدفنا، وسنكون فى حاجة ماسة إلى كل رجل للاستيلاء عليها. تقبّل (زعل) مرغمًا هذا القرار ومرت الفرقة بسلام ورجالنا يصرون على أسنانهم لكبت حميتهم. وبالطبع كان من المحزن المثير حقًا رؤية انتصار سهل كهذا يفلت من أيدينا. ولذلك بقى الحزن مخيمًا علينا حتى المساء. وحتى ذلك الوقت لم يكن قد مرّ أى قطار بعد. وقد كان هذا أملنا الأخير، ففى الغد سيهدد العطش جمالنا إذا بقينا حيث نحن. وهكذا رأينا أنفسنا مضطرين بعد أن أرخى الليل سدوله إلى أن نذهب إلى الخط الحديدى طيلة ستة أيام. وبعد إتمام هذا العمل عدنا إلى حيث كانت جمالنا والحزن يخيم علينا لفشل خطتنا ولعدم مرور أى قطار. وبعد منتصف الليل شددنا رحالنا وقفلنا عائدين إلى (باير).

ضللنا طريقنا فى الليل بين كثبان الرمال فى أودية (الضُلَيِّل) الكثيرة الحجارة. ولكننا قررنا مع ذلك متابعة المسير. وعند شروق الشمس وصلنا إلى نقطة مياهنا الأولية (الخو) حيث سقينا جمالنا. وقبل أن نترك المكان ونتابع طريقنا أقبل علينا شركسى شاب يقود أمامه ثلاث بقرات إلى المراعى بين الخرائب القديمة. وكى لا يفضح هذا الشركسى أمرنا، أرسل (زعل) بعض رجاله فاقتادوه إلينا. ووكلنا أمره إلى شرارى شاب، فربطه إلى سرج جمله. وعلى مسافة أربعة أو خمسة أميال من الزرقاء توقفنا، وكنا لا نزال قريبين من الخط. ثم جرّدنا الشركسى من ثيابه، وتولى الشرارى بخنجره إحداث جروح عميقة فى قدمى رجليه كى يضطر إلى الزحف على بطنه وركبتيه للوصول إلى القرية. وفى هذه الأثناء نكون نحن قد ابتعدنا وأمنّا شر الأتراك والشركسى معًا.

كانت الشمس لا تزال منخفضة عندما حططنا رحالنا قرب الخط الحديدى بين حواجز مسننة من الصخور الكلسية. تسلل رجالنا بين الصخور حتى أطلعوا على محطة

(عطوى)، حيث يقوم بناء من الحجر. وقد تهادى إلى سمعنا من هناك صوت عمال المحطة يغنون بلا اكتراث. كما وقع بصرنا على جندى تركي يقود قطيعًا من الأغنام إلى المرعى القريب من الوادى. وهذه الأغنام هى التى دفعتنا إلى العمل بعد أن قضينا فترة طويلة محرومين من أكل اللحوم. تسلَّل (زعل) مع نفر من الرجال، على طريقة الهنود الحمر، إلى الوادى حيث يمر الخط فوق جسر، ثم تسلَّق ذلك الجسر حيث أصبح قبالة البناءين عند طرف المرعى.

ومن عل كنا نشرف نحن على ساحة المحطة. فرأيت (زعل) يسدد فوهة بندقيته بحذر شديد نحو جمهرة من الجنود والعمال الأتراك كانوا يحتسون القهوة أمام قاعة الانتظار، ثم أطلق رصاصة ألقت الرعب فى قلوب الجنود وجعلتهم ينبطحون أرضًا.

وبعد لحظات انقض رجال زعل على المحطة للاستيلاء عليها، غير أن الأتراك وقد تحصنوا وراء باب المبنى الشمالى كانوا قد بدءوا فى تلك اللحظة فى إطلاق النار على المغيرين. فعمدنا نحن بدورنا إلى إطلاق النار عبثًا. وبعد برهة توقف إطلاق النار من الجانبين. وبينما كان بعض رجالنا يقودون الأغنام نحو التلال فى الشرق حيث ترعى جمالنا ركض الباقون للحاق بزعل الذى يحاول الوصول إلى المبنى الآخر الذى بقى بدون دفاع. وفيما كان الرجال منصرفين إلى نهب موجودات المبنى قدمت عليها أربعة رجال من الأتراك، فكمن لها بعض رجالنا وقتلوا الأتراك الأربعة. وبعد ذلك عمد (زعل) إلى إشعال النار فى المبنى فى الوقت الذى كان «العقيليون» ينسفون الخط الحديدى من عدة مواضع. وبعد أن ابتعدنا عن المحطة بضعة أميال توقفنا واحتفلنا بالمناسبة إذ ذبحنا عددًا من الأغنام التى استولينا عليها. وبعد أن انتهينا من العشاء ركبنا وسرنا طول الليل كى نصل مع الفجر إلى (باير) حاملين أكاليل الغار.

* * *

فى هذه الأثناء كان ناصر قد قام بعمل جليل. فالقافلة التى عادت من (طفيلة) محمّلة بالدقيق أعادت لنا حرية الحركة. وبات أمامنا فسحة من الوقت كى نحتل «العقبة» قبل

أن نموت من الجوع. وكان ناصر، فضلاً عن ذلك، قد تلقّى أخبارًا سارة من (نقب الشتار) وردت من ثلاثة أفخاذ من (الحويطات) هى (الدومانية) و(الدراوشة) و(الضيابة). فقد وافقت تلك القبائل على مساندتها.

دفعنى الأمل لأن أجرّب غارة أخرى، كتب الجنون لها الفشل. ولكن الأتراك لم يقلقوا مع ذلك. وما أن عدنا إلى المخيم حتى قَدِم علينا رسول مستعجل من قبل نورى الشعلان. وقد حمل هذا الرسول لنا تحية سيدة مع أخبار جديدة مسرة، فالأتراك قرروا أن يرسلوا فى أثرنا إلى وادى السرحان أربعمائة خيال من درعا كانوا قد أصروا على أن يكون نواف بن نورى الشعلان دليلهم ورهينتهم. غير أن نورى أرسل لهم ابن أخيه طراد الذى سيقودهم إلى طرقات متعرجة وعرة تنهك الرجال والخيول على السواء. وهم الآن بالقرب من النبك حيث كنا نعسكر نحن. وحتى عودة خيالتهم يستمر الأتراك فى اعتقادهم بأننا فى وادى السرحان، وقيادتهم لن يساورها أى قلق خاص بشأن معان بعد أن تولّى جنود من فرقة الهندسة نسف الآبار فى منطقتى (باير) و(الجفر).

ربما كانت (الجفر) محرّمة علينا فى الواقع. ولكن الأمل بقى يراودنا فى أن ينسى الأتراك نسف بعض الآبار، وكان ضيف الله أحد الزعماء الموالين لنا قد شهد بنفسه نسف تلك الآبار، ثم أرسل لنا سرًا من (معان) من يخبرنا بإمكانية إصلاح الآبار بسرعة. وبناء على هذه المعلومات خرجنا من منطقة (باير) فى ٢٨ حزيران كى نتأكد من صحة ذلك.

اجتزنا سهل الجفر الكئيب بسرعة. وعلى الأثر اعترانا الذهول والقلق. هل سنواجه هنا أول فشل لنا؟ لقد كانت مخططاتنا معقدة إلى درجة تجعل كل تأخّر بسيط تنجم عنه نتائج بعيدة المدى. ومع ذلك قرّرنا أن نحاول إصلاح (بئر الملك) بناء على إشارة من (ضيف الله). وفى الحال طلبنا متطوعين فتقدم نفر من بنى عقيل وبدءوا أعمال الترميم بقيادة مرزوق فى حرّ الصيف الخانق وبالأدوات القليلة التى معنا. وبعد عمل حثيث استمر طول الليل انتهى ترميم البئر مع مطلع الفجر. ولكن مياهها نضبت بعد استخدامنا المتواصل لها خلال أربع وعشرين ساعة.

نظمّنا عملنا دون تلكّؤ. ومن «الجفر» توجه بعض رجالنا إلى حيث تخيم قبيلة «الدومانية» كى يقودوا من هناك الهجوم الموعود على «فويلح» التى تشرف على ممر «أبو اللسن». والهجوم يجب أن يتم قبل موعد قدوم القافلة التى تأتى لتموين حاميات المخافر مرة كل أسبوع. وذلك لكى يكون الجوع أكبر مساعد لنا فى تصفية تلك المخافر بعد أن يتأكد لها انقطاع كل اتصال بينها وبين القاعدة.

قررت أن أنتظر فى «الجفر» نتائج هذا الهجوم الأول. فعلى نجاحه أو فشله سيتوقف اتجاه مرحلتنا القادمة. ومع الفجر التالى قَدِم إلى مخيمنا فارس أخبرنا أن رجال قبيلة «الدومانية» قد فتحوا النار على مركز «فويلح» بعد الظهر قبل وصول رجالنا. غير أن المفاجأة لم تكن كاملة، واستطاع الأتراك من وراء تحصيناتهم أن يردوا الغارة الأولى. وعندئذ انسحب (الدومانيون) إلى الجبال تاركين العدو يعتقد بأن ذلك كان مجرد غارة بسيطة، ويؤكد ذلك اكتفاؤه بإرسال بضعة فرسان إلى أقرب مخيم للتهويل على المغيرين.

فى ذلك المخيم كان يوجد رجل عجوز وست نساء وسبعة أولاد. عمد الفرسان الأتراك إلى ذبحهم جميعًا بعد إضرام النار فى المكان. فما أن وصل خبر هذه المذبحة إلى أسماع عرب «الدومانية» المختبئين فى الجبال، حتى ثارت ثائرتهم وانقضوا على القتلة وفتكوا بهم عن بكرة أبيهم. ومن ثم لإرواء غليلهم، هجموا على الحصن نفسه، بطريقة جعلت حاميته التركية تفر منه غير لاوية على شىء خوفًا من المصير الرهيب الذى كان ينتظرها على يد المغيرين الهائجين.

كانت مطايانا جميعها مسرجة. وفى أقل من عشر دقائق كنا على متنها باتجاه (غدير الحاج)، أول محطة لسكة الحديد إلى الجنوب من «معان» على طريق (أبو اللسن). وللتضليل أوفدنا شرذمة من رجالنا إلى شمالى «معان»، وأوكلنا إليها أمر إرهاب قطعان الجمال العائدة مريضة من جبهة فلسطين والتى عايرها الأتراك فى سهل «شوبك» ريثما تستعيد صحتها.

إن خبر سقوط «فويلح» حسب تقديراتنا لم يكن قد وصل إلى «معان» قبل هذا الصباح. ولذلك ففى إمكان الأتراك أن يستخدموا هذه الجمال «على اعتبار أن شرذمتنا

التى أوفدناها إلى الشمال فشلت فى تأدية مهمتها، ويعدّوا حملة إغاثة خلال الليل فقط. فإذا هاجمنا الخط الحديدى عند «غدير الحاج»؛ فإننا نضطرهم عندئذ إلى أن يغيروا طريقهم. وعندها نسير نحو (العقبة) دون أن يعترينا أى قلق.

مدفوعين بهذا الأمل.. وصلنا بعد الظهر إلى الخط الحديدى وعمدنا إلى نسفه مع الجسور القائمة هناك. ولما خرجت حامية «غدير الحاج» لمواجهتنا أجبرناها على الهرب مخلفة وراءها بعض القتلى.

كانت المحطة مزودة بجهاز إرسال تلغرافى. ولذلك كنت متيقنًا بأنها ستنذر «معان» التى ستسمع، فضلا عن ذلك، دوىّ انفجاراتنا المتتالية، وهذا يعنى أن العدو سيهبط علينا مع الليل أو سيهبط على خط مقفر انهارت عشرة من جسوره.

وما أن هبط الليل علينا ولفنا بظلامه حتى توجهنا إلى الغرب وقطعنا مسيرة خمسة أميال حيث أصبحنا فى أمان. ولكن ما أن تناولنا طعامنا حتى قَدِم علينا ثلاثة فرسان وأخبرونا بأن كتيبة تركية كاملة مزودة بالمدافع قد جاءت إلى (أبو اللسن) من (معان)، وبأن عرب «الدومانية» الذين أسكرهم النصر قد نسوا تنظيم صفوفهم فى مقرهم الجديد، فدب فيهم الذعر لدى رؤية تلك الكتيبة ولاذوا بالفرار دون مقاومة. وهم الآن ينتظروننا فى البتراء. وهكذا فقدنا (أبو اللسن)، والحصن، والممر، وفقدنا أيضًا الإشراف على طريق «العقبة»، دون أية مقاومة.

علمت فيما بعد أن مقدم هذه القوة التركية، التى لم تستعمل، كان وليد الصدفة. ففوج البدل، وخبر الهجوم على «فويلح»، كانا قد وصلا معًا إلى «معان»، فصدرت إليه الأوامر فجأة بعد أن زوّد بالمدافع كى ينجد المركز الذى كان يعتقد بأنه محاصر. ولما وصلت تلك القوة إلى «أبو اللسن» لم تجد أحدًا هناك، فعسكرت بالقرب من الماء طوال تلك الليلة بسلام.

لم يكن ذلك الوقت مناسبًا مطلقًا للنوم. وفى أقل من بضع ثوان كنا مع حوائجنا على ظهور الجمال نسير بمحاذاة الكثبان التى تشكل طرف الهضبة السورية. وعند الفجر

حططنا رحالنا على قمة جبل يقوم بين البتراء و(أبو اللسن). إلى الغرب، كان يمتد سهل (قويرة) حتى سلسلة التلال التى كانت تحجب عنا (العقبة) والبحر. وكان قاسم أبو دميك ينتظرنا مع رجاله على أحر من الجمر. وبسرعة وضعنا مخططًا للعمل ووزّعنا الأدوار وانصرف كل منا إلى تنفيذ ما أوكل إليه بأقصى سرعة، لأن بقاء تلك الكتيبة التركية فى (أبو اللسن) معناه قطع العقبة علينا وإحباط مخططنا الرئيسى.

وفى أثناء الليل فيما كان الأتراك نائمين.. تسللنا إلى التلال المحيطة وطوقناهم، ثم بدأ رجالنا بإطلاق النار عليهم على أمل أن نجرّهم إلى الخروج ومحاولة مجابهتنا على المنحدر، هذا بينما كان «زعل» على رأس فرقة من فرساننا قد توجه إلى السهل وقطع الخطوط التليفونية والتلغرافية المؤدية إلى (معان).

استمر عملنا هذا طوال اليوم، وقد كان شديد الحر لدرجة لا عهد لى بمثلها من قبل. المكان شديد الوعورة، والشمس محرقة والبنادق كذلك. ومما زاد فى الطين بلة نضوب الماء الذى معنا وتعذر إرسال من يورده من (البتراء). والشىء الوحيد الذى كان يعزينا فى ذلك اليوم هو شعورنا بأن العدو فى الوادى يجب أن يكون أسوأ حالا منا.

عند الظهر تظاهرت، لشدة تعبى، بأننى أصبت بضربة شمس، ولجأت إلى مكان ظليل حيث وافانى ناصر يلهث هو الآخر. وبعد مدة وجيزة جاءنا (عودة)، المحارب القديم، يصيح بنا ويستحثنا ويدعونا إلى مشاهدة عرب (الحويطات) فى انقضاضهم على العدو. وبعد لحظات تركنا ليصعد إلى مكان مرتفع وينادى رجاله للتجمع حوله. وما أن اجتمعوا حتى صرخ فيهم لتحريك النخوة فى نفوسهم. وعلى الأثر تفرقوا وبدوا كالسيل الجارف فى هبوطهم المنحدر لمقارعة العدو ومباغتته من الخلف. فى هذه الأثناء استعددنا نحن لكل طارئ ريثما ينجلى الموقف. وما هى إلا برهة وجيزة حتى لعلع الرصاص وعلا الصراخ ودب الذعر فى صفوف العدو، فبدأت تتفكك وأخذ الكثيرون طريق الهرب، فهرعنا نحن لنقطعها عليهم. فى هذه الأثناء تعثر بعيرى أرضًا وكنت أنا قد سبقته إلى ذلك. لهول الصدمة بقيت جامدًا دون حركة، وتأكدت من أن الأتراك

سيقتلوننى عما قليل، فرحت أندب حظى وأرثى لنهايتى. ولكن شيئًا من هذا لم يحصل لأن رجالنا كانوا قد عاجلوا العدو بضرباتهم السريعة وكسبوا المعركة بعد أن قضوا على فلوله.

وفيما محمد قادم نحوى يجرّ بعيرى الاحتياطى «عبيد» وصل ناصر يدفع أمامه القائد التركى الجريح وقد خلصه من غضب محمد الضغلان. وأما حصيلة تلك المعركة فكانت ١٦٠ أسيرًا أكثرهم جرحى و٣٠٠ قتيل.

قليلون من الأتراك تمكنوا من الهرب، وكان محمد الضغلان يشد فى أثرهم فى «المريجة» ويشبعهم شتائم ووعيدًا كى لا يقفوا فى طريقه بعد اليوم. وبين الهاربين كان «ضيف الله» الذى كان قد وعدنا بالمؤازرة فى قضية آبار الجفر. وأما خسائرنا نحن فكانت قتيلين، واحدًا من «الرولا» والثانى من «شرارة».

كل خسارة بالطبع كانت مؤسفة. ولكن الوقت كان فى غاية الأهمية بالنسبة لنا، وبسبب حاجتنا إلى السيطرة على معان للانقضاض منها على المراكز القائمة بيننا وبين البحر، الأمر الذى جعلنى أوافق على التضحية بأى عدد من الرجال. ففى مثل هذه الظروف يبرر الموت فديته، وهى ليست ثقيلة.

أردت أن ألقى بعض الأسئلة على الأسرى فى حامية «معان». غير أن الجهد العصبى كان ثقيلاً جدًا. البعض صمتوا ولم ينبسوا ببنت شفة، والبعض الآخر تكلموا بلغة لم نستطع فهمها، هذا بينما راح آخرون يستدرون عطفنا ببكائهم وبركوعهم أمامنا وقولهم بأنهم مسلمون مثلنا وإخوة لنا فى الإيمان.

وأخيرًا عيل صبرى، فانفردت بأحدهم وجلدته جلدًا مبرِّحًا حمله على التكلم والإفصاح عما يعرفه، فقال لى إن فوجهم وحده كان يشكل القوة الضاربة، وأما الكتيبتان الموجودتان فى «معان» فضعيفتان. وقد استنتجت من ذلك أنه يمكننا الاستيلاء على المدينة بسهولة. وما أن علم «الحويطات» بالأمر حتى استهوتهم الغنائم وبدءوا يطالبون بالسير الفورى إليها. لحسن الحظ استطاع ناصر و«عودة» أن يساعدانى فى تهدئتهم.

وذلك لأنه لم يكن لدينا آنذاك أى سند. ولم تكن تحت تصرفنا قوات نظامية ولا مدافع، وكانت بلدة «الوجه» أقرب قواعدنا. وكانت أموالنا قد نفدت. وفضلاً عن ذلك لا يصح تغيير مخطط استراتيجى من أجل نجاح تكتيكى. وكان علينا أن نتجه نحو الشاطئ لإعادة الاتصال بحرًا مع السويس.

لم أكن أمانع مع ذلك فى زيادة مخاوف «معان». ولذلك فقد وافقت على إرسال شرذمة من الفرسان إلى المريجة فاحتلتها، وانتقلت من هناك إلى «قواعيدة» واستولت عليها. وقد كان هذا التقدم وخسارة الإبل على طريق «الشوبك»، وتدمير «غدير الحاج»، ثم القضاء على فوج الإغاثة الذى وصلت أخباره متتابعة إلى معان، كل ذلك سبّب هلعًا كبيرًا هناك. وعلى الأثر عمد قائد الموقع إلى طلب النجدات العسكرية تلغرافيًا بينما عمدت السلطات المدنية إلى جمع أوراقها والهرب فى الشاحنات إلى دمشق.

* * *

فى هذه الأثناء كان رجالنا قد سلبوا الأتراك أموالهم ونهبوا أمتعتهم. وما أن طلع القمر حتى بدأ «عودة» يستحثنا على السير والخروج من ذلك المكان لأنه لا يطيق رؤية الجثث ويخشى عودة الأتراك أو غارة مفاجئة قد تشنها على جماعته بعض القبائل العربية الأخرى التى لها عليها بعض الثأر. ورغم ميلنا إلى البقاء اضطررنا إلى أن نستجيب إلى طلب «عودة» ونشدّ رحالنا مخلفين وراءنا عشرين من الأسرى الأتراك الجرحى لتعذر نقلهم. وبعد أن اجتزنا المرتفعات هبطنا الوادى كى نأمن الرياح العاصفة من الغرب. وما أن وصلنا إلى الوادى حتى أعطينا إشارة التوقف.

وفيما كان الرجال يأخذون قسطًا من النوم والراحة بعد عناء كبير.. انصرفنا نحن إلى تدبيج كتب إلى شيوخ «الحويطات» المخيمين بالقرب من الساحل نعلمهم فيها بما أحرزناه من نصر وننصحهم بالإنقضاض على أقرب مركز تركى واحتلاله، بانتظار قدومنا. وبعد ذلك كلفنا أحد الضباط الأتراك الأسرى، بعد ملاطفته، أن يوجه كتبًا إلى الضباط الأتراك فى مراكز «فويرة» و«كثيرة» و«حدرة» التى تفصلنا عن الشاطئ تدعوهم فيها للاستسلام مع عهد بحسن المعاملة وإرسالهم إلى مصر.

دام هذا العمل الكتابى حتى الفجر حيث استحسن «عودة» المسير فاستجبنا له. وبعد أن قطعنا بضعة أميال خرجنا من الوادى لنتسلق منحدرًا أخضر. وسرعان ما تأكد لى بأنه الأخير الواجب تسلقه. وبعد ذلك يبدأ الفراغ. مذهولاً، مدهوشًا، رأيت نفسى أقف فى ذلك المكان الساحر الذى يطل على سهل «قويرة» الفائق الجمال. مع شروق الشمس فى ذلك النهار بعد السفر الطويل فى حنايا الهضبة، وفى سجن الأودية كان من المستحب الاطلاع هكذا على هذه الحرية، نافذتنا فى جدار الوجود، وكى نتلذذ أكثر بهذه السعادة هبطنا على الأقدام ممر «الشتار» الوعر. وفى أسفله وجدت جمالنا ما تأكله، فتوقفنا للاستراحة ريثما يصل باقى القافلة، واغتنمنا الفرصة كى نأخذ قسطًا من النوم. ثم جاء «عودة» وحملنا على متابعة السير خمسة عشر ميلاً أخرى، لنخيم على مقربة من «قويرة». وفى «قويرة» نفسها وجدنا الشيخ ابن جاد الذى من عادته أن يتأرجح حتى ينضم فى النهاية إلى الجانب الأقوى. وبما أننا كنا الجانب الأقوى فى ذلك اليوم، فقد استقبلنا الماكر القديم بكلمات معسولة، وأعلن انضمامه لنا. اتفقنا معه على أن يقود الأسرى الأتراك إلى «العقبة» ساعة يحلو له ذلك.

كان ذلك فى الرابع من تموز. وكان علينا أن نسرع الخطى لأن غائلة الجوع بدأت تهددنا ولأن «العقبة» لاتزال بعيدة المنال، يفصلها عنا مركزان محصّنان للعدو. الأول مركز «كثيرة»، الذى رفض جنوده بإصرار استقبال مفاوضينا. وكان المكان الذى يقوم عليه الحصن مشرفًا على الممر وقد تكبدنا الكثير من الضحايا فى محاولة احتلاله. ولذلك أوكلنا شرف الاستيلاء عليه إلى الشيخ ابن جاد الذى قبل المهمة بعد تردّد، وأغار على المركز تحت جنح الظلام.

تابعنا سيرنا عبر السهل المنبسط مطمئنين. وناصر، كى يوفر على نيازى بك قائد الفوج التركى تهكم رجالنا، جعله ضيفه. وفيما نحن فى الطريق اقترب منى أحد الضباط الأتراك بحياء، واشتكى من أن أحد رجالنا قد شتمه بالتركية. فقدّمت له الاعتذار عن ذلك مع الملاحظة بأن الرجل يجب أن يكون قد تلقن تلك الشتيمة من فم حاكم تركى مثله.

بدأت فجاج وادى (اثم) تضيق أمامنا وتزداد وعورة. وبعد مركز (كثيرة) وجدنا كل المراكز التركية الأخرى خالية خاوية، فرجالها كان قد تم استدعاؤهم إلى (خضرة)، هذا المركز الحصين الذى يحمى (العقبة) من كل هجوم بحرى. ولسوء حظ العدو، لم يكن قد خطر فى باله مطلقًا، أن الهجوم سيأتى من الداخل. وهكذا، فى تقدّمنا هذا، باغتنا العدو وجعلناه يترنح من الهلع ومن هول المفاجأة.

أجرينا بعد ظهر ذلك اليوم، اتصالا مع هذا المركز الرئيسى. فأنذرنا السكان المحليين بأن المراكز الثانوية حول (العقبة) قد استدعى رجالها أو خفض عددهم، ولم يبق هناك سوى ٣٠٠ رجل يسدّون عليه طريق البحر.

عقدنا اجتماعًا لدرس الموقف، فقد قيل لنا إن العدو متحصن جيدًا فى مركزه ومستعد لصد أى هجوم، كما قيل لنا إن المياه متوافرة لديه من بئر ارتوازية جديدة. وسرت أخبار بأن المؤمن تنقص لدى العدو.

لم يكن لدينا أخبار غير هذه، ولذلك وقعنا فى ورطة. وكان مجلسنا أعجز من أن يستقر على رأى لتباين الآراء وكثرة المشاحنات. وبدأ صبر الجميع يعيل وسط هذا المكان الخانق.

كان عدد رجالنا قد تضاعف، فضاق بنا المكان واضطررنا إلى أن نرفع اجتماعنا عدة مرات حتى لا نتيح لرجالنا سماع مناقشاتنا ومشاهدة خلافاتنا.

وفى النهاية قررنا أن ننذر العدو وندعوه إلى الاستسلام. غير أن الطلقات النارية هى التى استقبل بها العدو مفاوضينا الأمر الذى أثار غضب رجالنا العرب، وفيما كنا نقترع، عصفت موجة مفاجئة بين صفوفنا، وراح الرجال من وراء الصخور يمطرون العدو بوابل من الرصاص. خرج ناصر ليوقف هذا الجنون، فلم ينجح إلا بعد لأى.

وعلى الأثر قررنا أن نحاول مرة ثالثة الاتصال بالعدو، فجاءنا جواب مهذّب فى هذه المرة يقول بأنهم مستعدون أن يستسلموا إذا لم تصلهم إمدادات من (معان) خلال يومين.

إن جنونًا كهذا (لأننا لن نستطيع إلى الأبد أن نكبح جماح رجالنا) سيؤدى حتمًا إلى مذبحة عامة يقضى فيها الأتراك. بلا ريب لم يكن عندى ما أقوله للتوسط لهم، ولكن من

الأفضل، مع ذلك، ألا تحصل مذبحة توفيرًا لنا من مشهدها المؤلم. وفضلاً عن ذلك ربما فقدنا نحن بعض رجالنا فى المذبحة. كما أن الإغارة فى ليلة مقمرة لا تقل خطرًا عن مثلها فى وضح النهار. وهذه المعركة، فوق كل ذلك، لم تكن ضرورية كمعركة «أبو اللسن».

وبعد ذلك طلبنا إلى رسولنا أن يعود إلى الأتراك ويطلب إليهم إرسال أحد ضباطهم لتبادل الحديث معه. ولما جاء ذلك الضابط أخبرناه بما جرى على طريق معان وأوضحنا له أن عدد قواتنا فى تزايد مستمر، وأنه لن يكون فى مقدورنا السيطرة طويلاً على هذه القوات التائقة للقتال. فكانت النتيجة أن نلنا وعدًا من الضابط التركى بالاستسلام مع الفجر. وهكذا تمكنا من النوم فى تلك الليلة أيضًا رغم عطشنا.

وفى الغد، مع الفجر، استفقنا على صوت الرصاص يلعلع من كل جانب، إذ إن مئات من الأغراب كانوا قد انضموا إلى صفوفنا فى الليل، ولم يعلموا بأمر العدو، الأمر الذى جعلهم يفتحون النار عليه مع أول خيوط الفجر، فرد عليهم العدو بالمثل. عندئذ خرج ناصر وتبعه ابن دغيثر مع بنى عقيل فى صفوف متراصة وساروا مكشوفين فى وسط الوادى. فتوقف رجالنا عن إطلاق النار، وكذلك فعل الأتراك. وبعد ذلك استسلم الأتراك بهدوء.

وفيما كان الأعراب منصرفين إلى النهب والسلب، لاحظت وجود ضابط هندسة فى لباس أغبر قد أرخى لحيته الشقراء. استجوبته باللغة الألمانية ففهمت منه بأنه جاء لحفر البئر الارتوازية، وبأنه لا يعرف أية كلمة تركية. واستنتجت بأنه كان مشدوهًا بما يحصل أمامه. من نكون نحن إذن؟ عرب فى ثورة ضد الأتراك. لقد لزمه بعض الوقت كى يفهم هذا الحدث. ومن يكون زعيمنا؟ شريف مكة. سيرسل إلى مكة إذن؟ أجبته: بل إلى مصر. وعلى الأثر سألنى ما إذا كان يوجد سكر فى مصر وبأى ثمن. فقلت له إنه يوجد بكثرة وبسعر منخفض. عندئذ بدت عليه ملامح الرضا. وبعد أن روينا ظمأنا من البئر التى حفرها هذا الألمانى، توجهت جموعنا وسط عاصفة رملية إلى (العقبة) التى تبعد عنا أربعة أميال. وهكذا فى ٦ تموز وصلنا إلى ساحل البحر بعد أن مضى شهران على خروجنا من الوجة.

■■■

5

القاعدة الجديدة

■ ■



(1)

من خلال الغبار العاصف بدت لنا العقبة مهدمة تمامًا. فالقصف المتواصل من البحر كان قد حوّل المدينة إلى كتلة من الخراب المتراكم والدخان المتصاعد.

بعد أن تسللنا عبر بساتين النخيل الممتدة على الساحل جلسنا فى مكان مرتفع نرقب تدفق رجالنا. طيلة شهور متعددة كانت العقبة تشكل أفق أفكارنا والهدف الرئيسى لعملياتنا، وكنا نرفض مجرد التفكير فى غيرها. والآن وقد تمت العملية فإن شعور النصر بعد الجهود التى بُذلت لم يُحْدِث أىّ تغيير فى أفكارنا ونفوسنا.

فى ذلك اليوم الأبيض عرفنا بكل صعوبة أنفسنا. مشدوهين بسماع أصواتنا ومسمرين فى الأرض دون أن نعرف ماذا علينا أن نفعل، كنا نمرر أصابعنا على أثوابنا البيضاء إذ كنا نشك فى مقدرتنا على فهم أو إدراك من نكون. أمام هذا المشهد كنا لا ندرى الطريقة للاستفادة من الهدية التى تلقيناها.

لقد أخرجنا الجوع من هذه الغيبوبة. فقد كانت جحافلنا تضم ٧٠٠ أسير علاوة على رجالنا وعددهم ٥٠٠، وحلفاؤنا الذين يناهزون الـ ٢٠٠٠ وينتظرون شيئًا ما منا. غير أننا لم يكن لدينا مال ومؤونتنا نفدت منا منذ أول من أمس. تستطيع الجمال أن تكفى لإطعامنا من لحمها طيلة ستة أسابيع ولكن هذا الحل سيحرمنا من واسطة النقل فيما بعد. تطلعنا إلى فوق رؤوسنا فوجدنا أشجار النخيل تحمل عناقيد خضراء من التمر، صحيح أنه يمكننا أن نطبخها ولكن حموضتها تضر بالمعدة، وتسبب لنا الألم الشديد.

وهكذا كان علينا إذن، نحن وأسرانا أن نواجه هذه المعضلة العويصة. إما أن نصبر على الجوع الدائم أو نأكل ونتحمل الآلام المستمرة.

فى هذا الموقف العسير المحرج بدا الضباط الأتراك الاثنان والأربعون الأسرى لدينا لا يحتملون لكثرة طلباتهم ولعدم وثوقهم بصدق ما نقوله لهم عن موقفنا المحرج. وللتخلص منهم تواريت أنا وناصر عن الأنظار ونعمنا بنوم هنىء طالما اشتقنا إليه فى ترحالنا فى الصحراء.

وفى المساء، بدأنا نفكر فى الوسائل التى ستمكننا من الاحتفاظ بـ «العقبة» بعد أن استولينا عليها. وفى النهاية قرّ رأينا على أن يعود «عودة» إلى «قويرة»، وهناك سيكون فى أمان بين منحدر «الشتار» ورمال «قويرة». وزيادة فى الحرص والاحتراز رغبنا فى أن يقوم مركز أمامى لنا بين آثار بتراء النبطية على مسافة ٢٠ ميلاً إلى الشمال، يتم الارتباط بينه وبين «عودة» بواسطة مركز آخر يقام فى «دلاغة». وسيرسل «عودة» رجاله كذلك إلى «بتراء». وهكذا سيشكل عرب الحويطات نصف دائرة من أربعة مراكز عند سفو عمان ومرتفعاتها، تقفل جميع الطرقات المؤدية إلى «العقبة».

وهذه المراكز الأربعة سيكون لكل منها وجود مستقل. وبلا ريب سينقض الأتراك على أحدها يومًا بكل قواهم، وبعد ذلك سيبقون شهرًا عاجزين عن التقدم خوفًا من الخطر الكامن عند المراكز الثلاثة الأخرى.

وعند العشاء اتضح لنا كم كنا فى حاجة ماسة إلى أن نطلب من الإنجليز الموجودين فى السويس على مسافة ١٥٠ ميلاً من الصحراء إرسال باخرة مؤونة على جناح السرعة، فقررت أن أذهب فى طلب ذلك بنفسى مع ثمانية من أشجع رجالنا أكثرهم من عرب الحويطات على متن أسرع مطايا عندنا. وفيما كنا نسير بمحاذاة الخليج تناقشنا فى كيفية إتمام الرحلة. لو سرنا ببطء للحفاظ على مطايانا فقد تموت من الجوع وإذا سرنا سيرًا حثيثًا، قد تموت من الإنهاك.

وفى النهاية قررنا أن نتبنى الحل الثانى مع الاحتراز الشديد. وعقدنا النية على قطع أكبر مسافة ممكنة فى اليوم على أمل الوصول إلى السويس بعد ١٥٠ ساعة من المسير بمعدل ٥٠ ميلاً فى اليوم.

تسلقنا جبل سيناء من طريق الحجاج الوعرة. وقبيل منتصف الليل وصلنا إلى «ثمد» (نقطة الماء الوحيدة على طريقنا) فى واد منفرج حيث استرحنا وروينا ظمأنا، ثم تابعنا المسير فى الليل. ومع شروق الشمس وصلنا إلى وسط سهل يؤدى إلى العريش، فأخذنا قسطًا يسيرًا من الراحة. ثم أكملنا كى نصل بعد الظهر إلى خرائب (النخيل) ونتركها إلى يميننا. وعند غروب الشمس توقفنا مدة ساعة واحدة. وفى ضوء القمر اجتزنا جبال «ميتلا» لنصل مع الفجر إلى حقل مزروع بطيخًا، وجدناه نعمة من السماء. وعند الظهر انفرج أمامنا سهل فسيح تراءى لنا وراءه سراب من نقط متماوجة وغير واضحة، دفعنا إلى الاعتقاد بأنها قناة السويس.

وصلنا بعد ذلك إلى سلسلة من الخنادق والتحصينات والطرقات والخطوط الحديدية مهجورة مخرّبة. اجتزنا تلك السلسلة بدون توقف، لأن هدفنا كان «الشط» المركز المقام مقابل السويس على الضفة من القناة. وقد وصلنا إلى ذلك المركز نحو الساعة الثالثة بعد الظهر، أى بعد ٤٩ ساعة من خروجنا من العقبة.

بدت لنا «الشط» فى فوضى غريبة إلى درجة أننا لم نلحظ وجود حارس أمامها، إلا أنه فى الحقيقة كان الطاعون قد ظهر هناك منذ ثلاثة أيام، الأمر الذى أوجب إخلاء المكان كما هو على جناح السرعة، وترك كل شىء على حاله. بالطبع كنا نجهل كل شىء عن هذه الأحداث، ولذلك ولجنا إلى المكاتب الفارغة مشدوهين حتى وقع نظرى على جهاز تليفونى سارعت إلى استعماله وطلبت القيادة العامة فى السويس معلنًا عن رغبتى فى اجتياز القناة.

جاءنى الجواب من القيادة العامة معلنًا الأسف، لأن هذا الأمر ليس من اختصاصها. ومصلحة النقل المائى الداخلى هى التى تقوم بهذا النوع من النقل وفقًا لوسائلها الخاصة. طلبت عندئذ مكاتب مصلحة النقل المائى الداخلى وقلت: لقد وصلت منذ لحظة إلى الشط عبر الصحراء، ومعى أخبار مهمة مستعجلة للقيادة العامة، ردّ الصوت من الطرف الآخر للخط التليفونى: متأسفين كل الأسف، فليس لدينا الآن مراكب حرة.

سنرسل واحدًا حتمًا فى صباح اليوم التالى كى يقودكم إلى مصلحة الحجر الصحى.. ثم انقطع الاتصال.

●●●

(2)

منذ أربعة أشهر وأنا أطوف الصحراء العربية دون توقف. وفى الأسابيع الأربعة الأخيرة قطعت على متن البعير ١٤٠٠ ميل، غير مكترث بالتعب والإنهاك، كل ذلك فى سبيل انتصارنا العظيم فى الحرب. ولكننى كنت أرفض أن أقضى ليلة أخرى برفقة القمل والبراغيث، كنت فى أمسّ الحاجة إلى حمام ساخن وإلى احتساء شىء ما مع الثلج، وكنت فى حاجة إلى تغيير ملابسى الوسخة وإلى تناول شىء من الطعام.

عدت إلى طلب مصلحة النقل المائى الداخلى من جديد وتكلمت على طريقة «كريسوستوم»، ولكن عبثًا، ولما زادت حدّتى أقفلوا الخط فى وجهى. كنت أتطيّر من الغضب عندما جاءنى صوت عامل التليفون يتهادى بنبرات أيكوسية رقيقة يقول:

- «لا تتعب نفسك يا ضابطى فى الحديث مع هؤلاء النقالين، فجميعهم حمقى».

إنها الحقيقة فى الظاهر. ولذلك أحالنى العامل على مكتب الشحن البحرى. فالميجور «ليتلتون» كان بالإضافة إلى مشاغله الكثيرة يصادر المراكب الحربية الموجودة فى البحر الأحمر الواحد بعد الآخر، فى الوقت الذى تدخل فيه إلى قناة السويس، كى يقنعها بأن تنقل على متنها المؤن والذخائر إلى «الوجة» أو «ينبع». وهكذا، ولملء الفراغ والتسلية إلى جانب مهمته كان يشرف على نقل الرجال والعتاد. أبدًا لم يخب ظننا من قبل. وكان يكفينى فى ذلك اليوم الإفصاح عن نفسى وعن مكانى. وسرعان مازالت الصعوبات، فمركبه كان حاضرًا وفى أقل من نصف ساعة كان تحت تصرفى عند الشط، وطلب إلى أن أذهب توًا إلى مكتبه. وامتنع عن الإفصاح كيف أن مركبًا من مراكب الميناء قد دخل إلى حرم القناة دون إذن من القيادة العامة. وفى الواقع، تم كل شىء كما كان قد أعلن. أرسلت رجالى مع الجمال إلى الشمال نحو «الكوبرى» ومن السويس، بالهاتف، نظمت لهم

المأوى والمأكل فى «حارس» على الضفة الآسيوية. فيما بعد بالطبع نالوا مكافأتهم: بضعة أيام من الحمى والذهول فى القاهرة.

عندما لاحظ «ليتلتون» تعبى تركنى أذهب إلى الفندق دون تأخر. لو كنت قد جئت مثل هذا الفندق من قبل لوجدته حقيرًا، ولكننى أراه الآن رائعًا. وبأقصى سرعة أخذت حمّامًا ساخنًا، واستبدلت ثيابى ثم شربت ستة كؤوس مثلجة وتناولت طعام العشاء كى أنام بعد ذلك فى سرير الأحلام. أراد ضابط صاحب مروءة من جهاز الاستخبارات بعد أن أعلمه مخبروه بوجود أوروبى متنكر فى فندق سيناء أن يهتم برجالى فى «الكوبرى» وزودنى ببطاقات مرور تخولنى السفر إلى القاهرة فى صباح الغد.

أسبغت «الرقابة» على المسافرين المدنيين فى منطقة القناة، شيئًا من الحيوية على هذه الرحلة المكدرة. فقد أمّت القطار فرقة مشتركة من البوليس الحربى المصرى والبريطانى، وراحت تدقق النظر فى أوراقنا، وتستجوبنا. كنت أرد بجفاف وبلغة إنجليزية صحيحة على أسئلتهم المطروحة باللغة العربية حتى اعتراهم الذهول. ثم اعتذر الرقيب وطلب منى ترداد ما قلته لأنه لم يكن متأكدًا من أنه فهمنى. فرددت بأننى مجند فى جيش شريف مكة وأشغل منصب أحد ضباط الأركان العامة. فراح مع زملائه ينظرون عندئذ إلى قدمى الحافيتين وإلى ثوبى الحريرى الأبيض ثم إلى العقال وإلى الخنجر المذهب. مستحيل.

- «أى جيش، يا سيّد؟»

- «جيش مكة.»

- «لم يسبق لنا أن سمعنا بذلك من قبل، كما لم يسبق لنا أن رأينا مثل هذا الزىّ...».

- «هل أنت قادر على التعرف إلى جنود الجبل الأسود؟»

جاء سؤالى هذا فى محله تمامًا. فكل جنود الحلفاء يمكنهم أن يتجولوا دون إذن مرور، والبوليس الحربى لا يعرف كل الحلفاء، فكيف بالزىّ الذى ترتديه جيوشهم. ومن

الممكن أن نكون نحن من أتباع أحد الحلفاء الغادرين، لذلك تركنا البوليس وهم يرمقوننى بنظرة خاصة، فيما كانوا يتصلون تلغرافيًا بالمحطة القادمة. وتمامًا قبيل الإسماعيلية قفز إلى القطار ضابط استخبارات يتصبب منه العرق للتأكد من أقوالى. ولما كنا على وشك الوصول إلى المحطة فقد أبرزت له جواز المرور الخاصّ الذى زوّدنى به مرافقى فى السويس زيادة فى الحرص وتأكيدًا لبراءتى. لم يكن الضابط مسرورًا كثيرًا لذلك. فى الإسماعيلية نزل المسافرون إلى القاهرة من القطار لينتظروا قطار بور سعيد السريع. وفى القطار الآخر من عربة فخمة خاصة نزل الأميرال «ويميس» و«بور مستر» و«نيفل» ومعهم جنرال ضخم الجثة ولكنه وقور. فسرى توتر رهيب فى الحال فى كل المحطة، وراح الضباط الحاضرون هناك يحيون مثنى وثلاثًا الفريق الغارق فى حديث جدّى.

وقعت عين «بور مستر» أخيرًا علىّ. وكى أقطع عليه تساؤله تقدمت منه ورويت له قصة غارتنا المفاجئة على «العقبة». فأعارنى انتباهه الكلى. وبعد ذلك طلبت منه أن يأمر الأميرال بإرسال سفينة مؤن على جناح السرعة إلى «العقبة» فقال إن الباخرة «الدفيرين» ستصل فى ذلك النهار وستفرغ فى السويس حمولتها، ومن ثم تكمل طريقها فورًا إلى «العقبة» وتتولى نقل الأسرى من هناك. وسيعطى بنفسه أوامر كى لا يمانع الأميرال واللنبى، فصرخت: «اللنبى» وماذا يفعل هنا؟

- «أوهو لقد أصبح قائدًا عامًا».

- «ومورى؟».

- «عاد إلى إنجلترا».

لقد كان هذا الخبر غاية فى الأهمية بالنسبة إلىّ بصورة خاصة. عدت إلى القطار ورحت أفكر. ترى هل يشبه هذا الرجل السمين القرمزى اللون الجنرالات العاديين؟ وهل سيتوجب علينا قضاء ستة أشهر أخرى لدراسة أفكاره وطرقه فى العمل؟ لقد بدأ كل من «مورى» و«بليندا» بداية متعبة للغاية إلى درجة جعلت همّنا فى ذلك الوقت ينحصر ليس فى محاربة العدو، بل فى الحصول من قادتنا على حرية العيش. والوقت والتجربة

وحدهما قد أتاحا لنا فرصة إقناع السير أرشيبالد ورئيس أركانه العامة، بعد جهود حثيثة، بجدوى المغامرة العربية وأفضلية التعاون مع فيصل بصورة خاصة.

عندما وصلتُ إلى القاهرة كان أول ما فعلته التوجه إلى فندق «سافوى» لمقابلة «كلايتون». ولما دخلت عليه فى مكتبه وجدته غارقًا بين أوراقه المتراكمة ودون أن يعرف من أنا قال ساعة أحس بوجودى: «مش فاضى». ولكن ما إن تكلمت حتى استقبلنى مذهولاً. فى مساء اليوم السابق كنت قد أعددت فى السويس تقريرًا قصيرًا، ولذلك لم يعد علينا الآن سوى التحدث عما يجب عمله. وقبل انتهاء الساعة الواحدة تلفت الأميرال قائلاً إن «الدفيرين» محملة بالدقيق تستعد للسفر إلى (العقبة).

سحب «كلايتون» ستة عشر ألف ليرة ذهبية ونظم حاشية لنقلها محروسة إلى السويس فى قطار الساعة الثالثة. وقد كان إرسال هذا المبلغ ضرورة قصوى، وهو لا يكاد يكفى لدفع ديون ناصر التى كان قد استلفها فى «باير» و«الجفر» و«القويرة».

وفيما بعد فى الفندق استحصلت بعد جهد كبير دام ثلاثة أيام على ثياب أوروبية. وخلال ذلك كانوا قد حدثونى عن قيمة «اللنبى» وعن مأساة «مورى» الأخيرة - هذا الهجوم الثانى على غزة الذى فرضته لندن على رجل أضعف من أن يقاوم. حيث قذف الجميع من جنرالات ضباط الأركان العامة وجنود بأنفسهم فى ذلك الأتون وهم على يقين بأنهم يسيرون إلى الفشل الذريع.

كانت حصيلة تهورنا ٥٨٠٠، و«اللنبى» يسعى جهده الآن إلى حشد القوات بعد أن تزوّد بمائة مدفع. وقيل لى إن الأمور ستتغير كذلك فى أيامه.

لم أكن قد تيسّرت لى الثياب اللائقة بعد عندما أرسل القائد العام فى طلبى حبًا فى الاستطلاع. ففى تقريرى الذى يستشهد بصلاح الدين وأبى عبيدة، كنت قد أشرت إلى الأهمية الاستراتيجية لقبائل شرقى سوريا والاستفادة التى يمكننا أن نجنيها منها إذا جعلناها تهدد المواصلات مع القدس. وكان هذا يتفق مع مخططات «اللنبى». ولذلك أراد أن يمتحننى.

وكان لقاؤنا مثيرًا للضحك حقًا. فهو ضخم الجثة واثق من نفسه، مؤمن كل الإيمان بأن الدور الأهم فى الحرب يقع على عاتق المدفعية، كما تأكد له من اشتراكه الفعلى فى الحرب فى فرنسا. وأنا نحيل الجسم حافى القدمين، ألبس قفطانًا من الحرير يجعلنى أبدو دجّالاً أكثر منى رجل أعمال، خاصة عندما طلبت لتنفيذ مهمتى مؤنًا وسلاحًا و.. ألف ليرة ذهبية فقط «سوفرين». لاحظت حيرة «اللنبى» فى شخصى من وراء نظارتيه، ولم أفعل شيئًا لمساعدته على الخروج من حيرته. لم يلق علىَّ إلا بضعة أسئلة، ولكنه كان يتتبع حديثى على الخريطة المبسوطة أمامه، وأنا أشرح له معلوماتى عن سوريا الشرقية وأهلها. وأخيرًا رفع نظره إلىّ وقال: «طيب» سأبذل المستطاع لخدمتك. كان هذا كل شىء. وكنت أجهل لأية درجة استطعت أن أقنعه، ولكن سرعان ما تأكد لنا أمران:

١ ـ الجنرال اللنبى يزين كلماته ويتمسك بكل ما يقول.

٢ ـ وما كان فى استطاعته كان من طبيعته أن يرضى أكثر المتطلبين من مرؤوسيه.

●●●

(3)

تحدثت مع «كلايتون» بصراحة متناهية. «العقبة» كان قد تم الاستيلاء عليها وفقًا لخططى، وبفضل جهودى. وكان ذلك على حساب عقلى وأعصابى. ولكننى رغمًا عن ذلك كنت أميل إلى عمل شىء آخر، وكنت متأكدًا من قدرتى على ذلك، إذ كان يعتقد بأننى قد اكتسبت الحق فى أن أكون سيد نفسى.

وافقنى «كلايتون» مبدئيًا على آرائى. ولكنه لفت نظرى من جهة أخرى إلى أن القيادة الرسمية لا يمكن أن يوكل أمرها إلى ضابط صغير. ثم اقترح وضع «جويس» على رأس «العقبة» فوافقت فورًا على الاقتراح لأن «جويس» من النوع الذى يمكن الركون إليه. فهو هادئ صلب صريح.

كان «جويس» قد نال التأييد الأكبر فى رابغ و«الوجة» على الأخص بشأن العمل الذى تستلزمه «العقبة».

وأما الباقى فقد كان سهلاً. كرئيس للتموين سنأخذ «جوسليت» رجل الأعمال اللندنى الذى جعل من حطام «الوجة» مدينة على آخر طراز، إن الطائرات لا يمكنها أن تتحرك قريبًا، والأميرال سيعطينا سفينة حربية إذا كان كريمًا. اتصلنا هاتفيًا بالسير «روسلنى ويميس» الذى كان كريمًا جدًا وستكون «الأوريالوس» فى ميناء العقبة خلال أسابيع.

كان ذلك تصرفًا بارعًا، لأن العرب يقدّرون السفن وفقًا لعدد مداخنها، و(الأوريالوس)، بمداخنها الأربع، كانت سفينة فريدة.

من الجانب العربى طلبت أن تلغى قاعدة (الوجة) الباهظة التكاليف وأن ينتقل فيصل إلى (العقبة) مع كل جيشه. اعتبرت القاهرة هذا الطلب سابقًا لأوانه. فاضطررت إلى أن أذهب إلى أبعد من ذلك وأوضح بأن قطاع ينبع ـ المدينة، أصبح هو الآخر من مخلفات الماضى، ثم نصحت بأن تُحَوّل كل المساعدات من مال وسلاح وعتاد ودخائر وضباط الممنوحة حتى ذلك التاريخ إلى العقبة. رأت القاهرة أن تحقيق ذلك هو من المستحيلات. ولكن رغبتى فيما يختص «بالوجة» لاقت الاستحسان شرط التوصل إلى اتفاق.

عندئذ أوضحت (العقبة) أصبح الجناح الأيمن لجيش (اللنبى) على مسافة ١٠٠ ميل فقط من قلبه بينما تفصل مسافة ٨٠٠ ميل بين ذلك الجيش وبين جناحه الحالى فى مكة. ونجاح العرب سيقرّب نشاطهم أكثر فأكثر إلى منطقة فلسطين. ومنطقيًا يجب أن ينفصل فيصل عن الشريف حسين ويصبح قائدًا للجيش فى الحملة الحليفة المنطلقة من القاهرة بقيادة (اللنبى).

أثارت هذه الفكرة بعض الصعوبات. ترى هل سيقبل فيصل؟ كنت قد بحثت هذا الأمر معه فى (الوجة) قبل عدة أشهر، والمفوض السامى هل يوافق؟؟ لقد كان جيش فيصل أهم وحدات الحجاز وأفضلها، ومصيره لن يكون كيف ما كان. والجنرال (وينغات) كان قد تحمل المسؤولية كاملة فى الحركة العربية فى أحلك ساعاتها مجازفًا بسمعته، فهل سنتجاسر الآن ونطلب إليه أن يترك طليعة الحركة بعد أن أصبحت على عتبة النجاح؟

لم يتردد (كلايتون) الذى كان يعرف (وينغات) جيدًا فى عرض الفكرة عليه، وبسرعة جاء الرد من «وينغات» إذا كان فى استطاعة «اللنبى» أن يفيد أكثر من فيصل وجيشه فسيكون مسرورًا هو بأن يؤدى واجبًا فى سبيل المصلحة المشتركة.

أما العقبة الثالثة؛ فكان يمكن أن تأتى من جانب الشريف حسين، وهو كما نعرف شخص عنيد ضيق الأفق كثير الشكوك وغير مستعد إطلاقًا إلى أن يتخلى عن أىّ جزء يسير من عجبه وزهوه فى سبيل توحيد القيادة، ومعارضته ستعرّض كل مخططنا للخطر، فاقترحت أن أذهب إليه وأحاول إقناعه، مع نية المرور على فيصل الذى سيعطينى المستندات اللازمة المؤيدة للنقل، التى من شأنها أن تدعم الرسائل التى كان «وينغات» نفسه قد أرسلها إلى الشريف حسين. ولما نال اقتراحى الموافقة استعددت للسفر. ثم صدرت الأوامر إلى الباخرة «دفيرن» العائدة من العقبة بأن تنقلنى إلى جدة لتنفيذ المهمة الجديدة.

بعد يومين أوصلتنى السفينة إلى «الوجة». غير أن فيصل و«جويس» و«نيو كمب» والجيش بكامله كانوا جميعهم فى «جدة» على مسافة ١٠٠ ميل إلى الداخل، فتولى «ستانت» ـ الذى حل محل «روص» فى قيادة الطيران العربى ـ نقلى جوًا إلى «جدة».

ضحك فيصل ـ لدى سماع تفاصيل حملتنا ـ كثيرًا من حروبنا كمبتدئين. وقضينا كل تلك الليلة فى وضع مخططات. ثم كتب إلى والده وأمر بإرسال هجانته إلى العقبة واتخذ الإجراءات الأولية كى ينقل جعفر باشا وجيشه على متن «الهاردنغ» البطيئة الحركة.

فى فجر اليوم التالى أعادتنى الطائرة إلى «الوجة». وبعد ساعة واحدة كانت «الهاردنغ» فى طريقها إلى جدة. وكان الدعم القوى الذى قدمه «ويلسون» قد سهّل مهمتى. ولتدعيم الموقف فى «العقبة» ـ القطاع الذى نعلّق عليه أكبر الآمال ـ أمر على جناح السرعة بإرسال سفينة إلى هناك محمّلة بالمؤن والذخائر ثم وضع ضباطه تحت تصرفنا. فقد كان «ويلسون» من مدرسة «وينغات».

والشريف الذى عاد من مكة بدأ كثير الكلام. وكان «ويلسون» بالنسبة للمشروعات المشكوك بها العصا السحرية الملكية. وبفضله قبل الشريف حسين فورًا أن ينتقل ابنه

فيصل إلى إمرة «اللنبى»، ثم اغتنم الفرصة كى يبرهن لنا على إخلاصه للحلف القائم بيننا، وبعد ذلك ودون منطق ظاهر كالعادة بدأ يشرح على مسامعنا وجهة نظره الدينية.

وفيما كنا نحن فى جدّة نقوم بالدور الملقى علينا، جاءتنا برقيتان مستعجلتان من مصر لتقضيا على هدوئنا. ورد فى البرقية الأولى أن «الحويطات» كانوا يخونوننا ويتصلون سرًا «بمعان». والثانية تتهم «عودة» بأن له ضلعًا فى هذه الخيانة. وقعت علينا هذه الأخبار وقع الصاعقة. فـ «ويلسون» كان قد سافر مع «عودة» وتأكد له حسن مسلكه وأنه مخلص كل الإخلاص. وأما محمد الضغلان فمن المحتمل أن يلعب دورًا مزدوجًا، وكذلك ابن جاد وأصدقاؤه كانوا موضع شك. فقررنا فى الحال أن نتوجه إلى «العقبة» لأننا أنا وناصر كنا قد وضعنا مخططات الدفاع عن المدينة دون أن نأخذ بعين الاعتبار إمكانية حصول خيانة بين صفوفنا.

لحسن الحظ كانت «الهاردنغ» فى الميناء تحت تصرفنا. وبعد ظهر اليوم الثالث ألقت الباخرة مرساتها فى ميناء العقبة ونحن على متنها. لم يخطر ببال ناصر أن هناك شيئًا سيئًا. وكل ما قلته أننى أرغب فى رؤية «عودة» لإلقاء التحية عليه، فسارع إلى وضع دليل وفرس تحت تصرفى. وفى الفجر وجدت «عودة» ومحمد، وزعل، فى خيمة واحدة فى القويرة. اعتراهم الذهول لرؤيتى أهبط عليهم بهذه الصورة المفاجئة، ثم قالوا لى إن كل شىء على أحسن ما يرام. وبعد ذلك تناولنا طعام الفطور معًا كأصدقاء.

فى هذه الأثناء دخل علينا بعض رجال «الحويطات» وتحدثنا أحاديث طريفة عن الحرب، ثم وزعت على الجميع هدايا الملك، وأعلنت وسط الحبور العام بأن ناصر قد نال إجازة لمدة شهر سيقضيها فى مكة. والشريف حسين فى حماسته الفائقة للثورة ينتظر من مرؤوسيه ألا يكونوا أقل حماسة منه.

وبعد الغداء تظاهرت بالنعاس للتخلص من الزائرين، ثم طلبت فجأة إلى «عودة» ومحمد أن يرافقانى فى نزهة إلى الخرائب الأثرية. ولما أصبحنا وحدنا فتحت موضوع مراسلتهما الأخيرة مع الأتراك. فراح «عودة» يقهقه ضاحكًا بينما تغيرت سحنة محمد.

وأخيرًا شرحا لى ملابسات القضية، بأن محمد كان قد أخذ خاتم «عودة» وكتب إلى حاكم «معان»، وسريعًا جاء رد الحاكم التركى واعدًا بمكافآت كبيرة. فطلب محمد قسطًا على الحساب. ولما علم «عودة بذلك كمن للرسول المحمل بالهدايا وجرّده من كل ما معه ومن ثيابه ليتركه عاريًا تمامًا. وهو الآن يرفض أن يعطى محمدًا أى جزء من الغنائم. ضحكنا جميعنا لهذه النكتة. ولكن هذا لم يكن كل شىء.

كان «عودة» ومحمد غاضبين لأنهما لم يتلقيا مساعدات عسكرية «مدافع وجنود» ولم يستلما مكافآت نقدية بعد الاستيلاء على العقبة. وكانا كذلك يودان أن يعرفا كيف حصلت على مراسلتهما السرية، وماذا كنت أعرف حقيقة. كنا نسير فوق منحدر خطر، وتعمّدت إثارة خوفهم لمزاجى المتطرف، وكنت من وقت لآخر أورد بعض العبارات التى جاءت فى رسائلهم. ففعل هذا فعله وبدت الملامح تتغير. ومما قلته إن جيش فيصل سيصل قريبًا وإن «اللنبى» سيرسل إلى العقبة بنادق ومدافع ومتفجرات ومؤنًا وأموالاً. وأخيرًا ألمحت بأن مصاريف «عودة» للضيافة يجب أن تكون باهظة، ثم تساءلت: ألا يمكننى - لمساعدته - أن أقدّم شيئًا من الهدية المهمة التى سيقدمها فيصل إليه شخصيًا عند وصوله إلى العقبة؟ رأى «عودة» أن الفرصة الحاضرة ليست بدون فوائد، وأن مجىء فيصل سيكون مريحًا، وأن الأتراك فى متناول يده دائمًا إذا أفلتت الموارد الأخرى من يديه. لذلك قَبِلَ ما قدمته له شاكرًا وقال إنه سيصرف ذلك المال على تحسين أحوال رجاله.

فى تلك الأثناء كانت الشمس قد قاربت الغروب، فعدنا إلى المضارب وتناولنا طعام العشاء، ثم ركبت عائدًا مصحوبًا «بمفدّى» الذى سيحمل المال الموعود إلى «عودة» وبعبد الرحمن، خادم محمد، حتى يكون تحت تصرفى، فى حال تغيير رأيى. سرنا طوال الليل باتجاه «العقبة». ولما وصلناها أيقظت ناصر فى الحال لإنهاء ما عندنا من عمل لا يقبل التأجيل. ومع أول خيوط الفجر كنت فى طريقى إلى «الهاردنغ» حيث نزلت إلى مقصورتى، وأخذت حمّامًا ثم نمت، حتى الساعة العاشرة. ولما صعدت إلى السطح كانت السفينة تمخر الخليج بأقصى سرعتها عائدة إلى مصر. وهناك كان ظهورى السريع

مفاجأة للجميع، وذلك لأنه لم يكن يخطر مطلقًا فى بال أحد أننى أستطيع أن أذهب إلى قويرة للتأكد من صحة المعلومات والعودة قبل ستة أو سبعة أيام.

طلبنا القاهرة على الهاتف كى نعلن أن الوضع فى «قويرة» كان ممتازًا وليس فيه أى أثر للخيانه. ربما كان على حافة الصدق، ولكن بما أن مصر تبقينا على قيد الحياة بالتضييق على نفسها، فمن الواجب تلطيف الحقائق للاحتفاظ بثقتها وللإبقاء على أسطورتنا.

●●●

(4)

من جديد برزت عقبات فى طريق. ومرة أخرى برهنت أفكارى على قدرتها على التنظيم وعلى إيجاد المخارج. حتى قدوم فيصل مع جعفر و«جويس» على رأس الجيش لم يكن علينا سوي التفكير، ومن أجل ذلك كان هذا أمرًا أساسيًا، وحتى الآن كان فى حربنا عملية واحدة قد درست، وهى احتلال العقبة. فكرنا. ولكن، ابتداء من هذه اللحظة أقسمت بأن أعرف قبل الإتيان بأية حركة الهدف المقصود والطرق المؤدية إليه.

لقد كانت «الوجة» بشير كسب حرب الحجاز، فجاء احتلال العقبة ينهى تلك الحرب. وجيش فيصل تحرّر الآن من سلبيته العربية، وبات له دوره فى المساهمة فى تحرير سوريا العسكرى، فى ظل قيادة «اللنبى» الموحدة. غير أن الاختلاف بين الحجاز وسوريا يشبه إلى حد بعيد التباين بين الصحراء الجدبة والأرض المحروقة. فالمشكلة التى واجهتنا كانت مشكلة شخصية: تجريد البدوى. وكانت قرية وادى موسى أول دفعة من المتطوعين الفلاحين، وإذا لم نتحول نحن أنفسنا إلى فلاحين وقرويين، توقفت حركتنا التحريرية حيث هى.

وكان لصالح الثورة العربية أن تغيّر من صفتها وفقًا لمراحل نموها. كنا قد عملنا جاهدين لحراثة أرض بور محاولين خلق قومية فى أرض كان يسرد فيها اليقين الدينى. وبين القبائل الرحّل توجّب على إيماننا أن يشبه عشب الصحراء. والأهداف كالأفكار كان

علينا أن نترجمها إلى تعابير مادية محسوسة. فرجال الصحراء كانوا زاهدين جدًا عن هذا التعبير، بعيدين كل البعد، لفقرهم المدقع، عن كل تعقيد. وإذا كنا نريد أن نطيل عمر حركتنا فعلينا أن نندمج بالأرض المزدانة بالألوان، وبالقرية حيث السطوح والحقول تواجه الأنظار فى كل اتجاه. كان علينا أن نبدأ حملتنا الثانية ـ كما سبق لنا أن بدأنا الأولى فى وادى «عيس» بدراسة للخريطة باستطلاع موضعى للمكان الذى ستدور فيه: وأعنى سوريا.

كنا نقبع على حدودها الجنوبية، وإلى الشرق كانت تمتد الصحراء موطن البدو الرحّل. فى الغرب يحد سوريا البحر المتوسط من غزة إلى الإسكندرونة، وفى الشمال يحدها الأناضول بسكانه الأتراك. وداخل هذه الحدود تقسم البلاد إلى عدة أقسام طبيعية وفقًا للنتوءات والسلاسل الجبلية. وأولى هذه السلاسل وأهمها تلك التى تفصل من الشمال إلى الجنوب المناطق الساحلية عن الداخل السهلى. وبما أن المناخ متباين بين هاتين المنطقتين الكبيرتين، فقد شكل تقريبًا بلدين تتفاوت عقلية سكانهما، فسكان الساحل وسكان الداخل يعيشون فى بيوت مختلفة الشكل، كما أن طبيعة عملهم وغذائهم مختلفة، وكذلك لهجاتهم العربية التى ينطقون بها. وعلى الساحل تراهم يتحدثون عن سوريا الداخلية دون أى عاطفة، كأنهم يتحدثون عن منطقة ثانية فى المجاهل.

وفى الداخل قسّمت الأنهار السهل إلى عدة أقسام جغرافية، وجعلت من الأودية أخصب أراضى سوريا وأكثرها ضمانًا. وأما السكان فى هذه المناطق فهم انعكاس لأراضيهم، يعيشون تحت الجفاف، والجراد، والغزو من جهة الصحراء، ويقاسون الكثير من عادة الأخذ بالثأر.

وهكذا.. فإن الطبيعة قسّمت البلاد إلى مناطق، وجاء الإنسان يضيف إلى هذه التقسيمات تعقيدات جديدة، لأن من طبيعته زيادة تعقيد الطبيعة. فكل من الأقسام الطولية من الشمال إلى الجنوب، معزول عن غيره اصطناعيًا لوجود جماعات فيه متخاصمة دائمًا. وكان علينا أن نبسط نفوذنا على تلك الجماعات والفئات، وتذليل ما

بينها من تباعد وتنافر، ثم حشدها متراصة فى عمل مشترك ضد الأتراك. هنا فى هذا الطلسم السياسى السورى كانت تكمن كل إمكانات فيصل، وكذلك كل العقبات التى قد تسد عليه طريق النجاح.

فى أقصى الشمال الأكثر بعدًا عن تتبع الحدود اللغوية تقريبًا طريق الإسكندرونة - حلب، وعند النقطة التى تلتقى فيها هذه بخط بغداد الحديدى تتجه شمالاً مع الخط فى وادى الفرات، غير أنه توجد إلى جنوبى هذا الحد العام - فى القرى التركمانية حول أنطاكية فى الأماكن التى لجأ إليها الأرمن - جماعات تتكلم اللغة التركية.

وإلى جانب هذا، كان هناك عامل أساسى لا يمكن تجاهله لدى سكان الساحل، وهو وجود الطائفة النصيرية التى تكره كل ما هو أجنبى، وهذه الطائفة تعيش وفقًا لطقوس خاصة مشاعرها كسياستها عشائرية. ومن قوانينها أنه لا يمكن لنصيرى أن يخون نصيريًا آخر، بينما يحق له فى كل وقت أن يخون الآخرين.

إلى جانب هؤلاء النصيريين هناك مستعمرات مسيحية سريانية. وعند منعطف العاصى جماعات من الأرمن أعداء الأتراك اللداء. وفى الداخل قرب «حارم» يعيش الدروز وهم من أصل عربى، وبعض الشركس القادمين من بلاد القفقاس. وإلى الشمال الغربى وراء هؤلاء يعيش الأكراد المقيمون هناك منذ عدة أجيال، الذين يتزاوجون مع العرب وينتهجون سياستهم. ومن المعروف عن هؤلاء الأكراد أنهم يكرهون أول ما يكرهون جيرانهم من المسيحيين ثم الأتراك.

وفى منطقة مجاورة للأكراد يعيش بعض اليزيديين، وهم يتكلمون اللغة العربية، ولكنهم تأثروا بالمانوية الإيرانية ويميلون إلى تهدئة روح الشر. وإذا ما أوغلنا أكثر إلى الداخل لنصل إلى حلب فإننا نجد فى تلك المدينة التى تعد مائتى ألف نسمة صورة مصغرة لكل العناصر والأديان الموجودة فى تركيا. وإلى الشرق من حلب فى منطقة يزيد عرضها على ستين ميلا يعيش العرب المسلمون.

وإذا ما أخذنا الآن قطاعًا آخر من سوريا إلى جنوبى القطاع الأول، ومثله يمتد بين البحر والداخل، فإننا نجد بالقرب من الساحل جيوبًا شركسية مسلمة يتحدث أبناء

الجيل الجديد منها العربية، ولكنهم فى نزاع مستمر مع جيرانهم العرب. وفى الداخل يعيش أبناء الطائفة الإسماعيلية الذين رغم كونهم من العجم فى الأصل قد استعربوا على مرّ العصور. وهم يحلمون بعودة محمد الذى يتجسد فى الآغاخان، ولذلك تراهم يقدمون إلى هذا الأخير ولاء فريدًا من نوعه، ويحبون الإنجليز لأنهم أصدقاء له. وهم يتحاشون المسلمين السنيين ويحاولون جاهدين إخفاء معتقداتهم.

وأكثر إلى الداخل يبدو المشهد الغريب لقرى تقطنها قبائل عربية مسيحية بإمرة مشايخ. إنهم مسيحيون نشيطون جدًا وأقوياء خلافًا لإخوانهم فى الدين المتباكين على التلال. وهم يعيشون وفقًا لعادات جيرانهم السنيين وعلى وفاق تام معهم. إلى الشرق منهم تعيش جماعات إسلامية على رعاية المواشى. وأخيرًا عند طرف الأراضى المزروعة يوجد عدد من القرى الإسماعيلية الساعية أبدًا مع جيرانها إلى سلام لا تنعم به اطلاقًا. وبعد ذلك تبدأ الصحراء نطاق البدو الرحّل.

وإلى الجنوب من هذا القطاع الثانى بين طرابلس وبيروت يقع قطاع ثالث نجد فيه أولاً بالقرب من الساحل مسيحيى لبنان وأكثرهم من الموارنة الروم الأرثوذكس. ومن الصعب جدًا الفصل بين سياسة الكنيستين. الأولى تميل إلى أن تكون فرنسية والثانية روسية، غير أن قسمًا من أبناء الكنيستين كان قد هاجر، طلبًا للرزق، إلى الولايات المتحدة الأمريكية واكتسب هناك إلى حد بعيد الروح الإنكلوساكسونية العنيفة. ومن الجدير بالذكر أن الكنيسة الأرثوذكسية تفاخر بكونها جزءًا لا يتجزأ من سوريا القديمة، وبكونها وطنية. كما أن اقليميتها العنيفة تجعلها تميل إلى تفضيل الارتباط بتركيا على الرضوخ للسيطرة النهائية لدولة رومانية.

ويلتقى أبناء الطائفتين عند الطعن الذى لا حدود له بالمسلمين، كلما تيسر لهم ذلك. ويبدو أن هذا الميل ناتج عن التصور بأنها أقلية. ومن الملاحظ أنه تعيش بين هؤلاء المسيحيين، عائلات مسلمة، لا تختلف عنهم مطلقًا فى العنصر والعادات سوى أن لهجتها أقل رخاوة.

وعلى منحدرات الجبال العالية لجهة الشرق تكثر جماعات المتاولة، وهم من الشيعة الذين هاجروا من إيران منذ أجيال عديدة. وأبناء هذه الطائفة يرفضون أن يأكلوا أو أن يشربوا مع أبناء الطوائف الأخرى، وهم يأبون الانقياد إلا لأئمتهم وأعيانهم. وعلى قمم الجبال قرى معلقة كأعشاش النسور يقطنها صغار الملاكين من المسيحيين، وهم على وئام تام مع جيرانهم المسلمين.

وإلى الشرق أكثر نجد قرويين من العرب المسلمين الذين هم فى طريق الاستقرار، ومن ثم تبدأ البادية.

أما القطاع الرابع إلى الجنوب فيقع فى أنحاء عكا. وفى هذا القطاع يتآلف السكان ابتداء من الساحل من عرب سنيين، ثم دروز، ثم متاولة (شيعة). وعلى ضفاف الأردن توجد مستعمرات من اللاجئين الجزائريين الكثيرين الشكوك حتى المرارة، مقابل القرى اليهودية. وأما اليهود فهم خليط عجيب من الأجناس والأنواع. البعض متمسكون بالتقاليد العبرانية يعيشون وفقًا لطقوس البلاد. والبعض الآخر قادمون من أوروبا مؤخرًا وجلهم ذوو ثقافة ألمانية أدخلوا إلى البلاد طقوسًا وطرق حياة غريبة لا تتفق مع طبيعة فلسطين. ومن الجدير بالذكر هنا أن هؤلاء اليهود الجدد لا يلاقون فى الجليل العداء نفسه الذى يلاقونه فى المنطقة اليهودية المجاورة.

ووسط السهول الشرقية التى يدب فيها عشرات الألوف من العرب يمتد لسان بركانى «اللجاة» حيث تجمّع على مر العصور بقايا شعوب من سوريا القديمة. يعيش أحفاد هؤلاء فى قراهم على هواهم دون حسيب ولا رقيب فى منجى من الأتراك والعرب والبدو على السواء. وأما هذه المنطقة وجنوبها الشرقى فينفتحان على سهل حوران الخصيب موطن الفلاحين العرب الشجعان.

إلى الشرق من هذه المنطقة يعيش الدروز وهم فئة من المسلمين من أتباع سلطان من سلاطين مصر قضى من زمن بعيد. ومن المعروف عن الدروز أنهم كانوا يكرهون الموارنة كرهًا شديدًا. وكثيرًا ما أدى هذا الكره، بتشجيع من الدولة العثمانية ومن بعض المتعصبين إلى مذابح دورية كبرى. وهم فى اقتتال مستمر مع البدو وفقًا لعادة الأخذ

بالثأر التى يعملون بها، كما أنهم يحتفظون فى معاقلهم بشكل من أشكال الاقطاعية التى كانت تسود لبنان فى عهد امرائه الوطنيين المستقلين.

وأما القطاع الخامس الذى يبدأ عند القدس فيشمل عند الساحل سكانًا من الألمان الذين يدين بعضهم باليهودية، وهم يتكلمون اللغة الألمانية أو اليديش الألمانية، وهم متعصبون جدًا ويرفضون كل اتصال مع الغير، يحيط بهم بحر من العداوة، حيث يقيم الفلاحون الفلسطينيون.

وإلى الشرق فى الداخل يمتد وادى الأردن الذى يقطنه أرقاء ومماليك جعلت أشعة الشمس لونهم شبيهًا بالبرونز. وبعد ذلك تنتشر قرى سكانها من المسيحيين الذين كإخوانهم مسيحيى منطقة العاصى لم يشكوا أبدًا من مجاورة المسلمين لهم. وبين هؤلاء وإلى الشرق منهم يعيش عشرات الألوف من العرب نصف الرحل المحتفظين بإيمان الصحراء. وعلى طول هذه المنطقة المتنازع عليها كانت الحكومة التركية قد أسكنت مهاجرين من الشركس الذين استقدمتهم من بلاد القفقاس التركية. وهؤلاء يدينون بوجودهم وببقائهم هناك إلى قوتهم وسيوفهم وإلى عطف الحكومة التركية عليهم الأمر الذى جعلهم مخلصين لها لأن بقاءهم مرهون ببقائها(١).

●●●

(5)

قَدِمت المراكب تشق بأقصى سرعتها مياه خليج العقبة، ثم ترجّل منها فيصل مصحوبًا بجعفر وجويس وأركانه العامة. ثم وصلت السيارات المصفحة، و«غوسليه»، وفرق العمال المصريين وآلاف الجنود. ولإصلاح الخراب الذى سبّبته ستة أسابيع من السلام، كان «فولكنهاين» قد جاء ينصح الأتراك، وذكاؤه هو الذى جعل العدو أكثر استحقاقًا لعملنا. وكانت (معان) تشكل قطاعًا خاصًا تحت أمره بهجت القائد العام لجيش سيناء سابقًا. وكان هذا قد حصن «معان» بطريقة تجعلها أمنع من أن تسقط فى أيدينا بالوسائل

(١) قضت الأمانة أن ننقل إلى القراء ما كتبه المؤلف الإنجليزى من أفكار واستنتاجات لا نقره عليها. لذا اقتضى التنويه..

العادية المتوافرة لدينا. كان يوجد فى (معان) ٦٠٠٠ جندى من المشاة، وفرقة من الخيالة وأخرى من الهجانة. ما كان سرب من الطائرات يصل يوميًا إليها حيث تكدست الذخائر بكثرة.

وما إن انتهت الاستعدادات حتى بدأ الأتراك المناورة وهدفهم كما يبدو كان (قويرة) أفضل طريق إلى «العقبة». تقدم ألفان من المشاة حتى «أبو اللسن» وحصّنوها. بينما كانت فرقة من الخيالة تراقب المناطق المحيطة تحسبًا من غارة معاكسة قد يشنها العرب من جهة وادى موسى.

وضعتنا هذه الحالة العصيبة على الخط، فقررنا أن نداورهم ونحملهم على أن يخرجوا للبحث عنا فى وادى موسى حيث تشكِّل طبيعة الأرض أكبر مساعد لنا كمدافعين.

ولإثارة الأتراك دفعنا بنى دلاغة على مناوشتهم وتكبيدهم خسائر فادحة فى الأرواح والعتاد، ثم تعمدنا نشر أخبار تلك المكاسب والغنائم فى صفوف فلاحى وادى موسى أخصام بنى دلاغة. وفى الحال هب مولود، المحارب القديم، على رأس جماعته من البغالة وأقام بين خرائب بترا قاطعًا الطريق. وعلى الأثر دبّت الحماسة فى نفوس «اللياتنة» فراحوا بقيادة شيخهم الأعور «خليل» يغيرون على الهضبة حيث يتنقل الأتراك مع مواشيهم ويستولون على تلك المواشى بعد القضاء على حراسها. وقد دامت الأحوال على هذا المنوال عدة أسابيع جعلت الأتراك يفقدون صوابهم واتزانهم.

كان فى إمكاننا التضييق عليهم أكثر بالطلب إلى الجنرال «سلمون» الإغارة جويًا على «معان» وفقًا لوعد سابق كان قد قطعه لنا. وبما أن المهمة كانت صعبة، فقد اختار «سلمون» لها «ستانت» وبعض رفاقه المجربين فى معارك رابغ والوجة، وطلب إليهم بذل كل طاقتهم. وهكذا وسط الذهول الكلى تلقت معان ومحطتها اثنتين وثلاثين قنبلة من طائراتنا المغيرة التى عادت إلى قاعدتها الاحتياطية فى «كونتيلا» شمالى «العقبة» سالمة.

وفى فجر اليوم التالى خرجت طائراتنا من جديد، وقصفت مركز «أبو اللسن» قصفًا محكمًا. وأعادت الطائرات الكرة عند الظهر، ثم عادت إلى قاعدتها فى العريش بعد أن أدت مهمتها على أحسن وجه. وقد غمر هذا العمل قلوب العرب بالبهجة والسعادة،

وألقى الرعب فى نفوس الأتراك الذين راحوا بناء لأوامر قائدهم بهجت باشا يحفرون الخنادق الواقية.

بعثت هذه الغارات الجوية القلق والاضطراب فى نفوس العدو وجعلته يقع فى فخ مرامينا الوهمية. وكانت لدينا أيضًا وسيلة ثالثة لشل أية حركة هجومية انتقامية قد يلجأ إليها أولاً وهى تعطيل الخط الحديدى. فمن شأن هذا التعطيل أن يجمّد كل حركاتهم. لذلك وضعنا مخططنا عامًا للنسف حددنا أواسط أيلول لتنفيذه.

قررت كذلك أن أعود إلى فكرتى القديمة، نسف أحد القطارات. وكنت لهذه الغاية فى حاجة إلى متفجرات أقوى من اللغم الأوتوماتيكى. وهكذا قادنى التفكير لأن أشعل مباشرة بواسطة تيار كهربائى كمية من المتفجرات تحت القاطرة. وقد شجّع ضباط الهندسة البريطانيون هذه الفكرة وأرسل لى الجنرال (رايت) كل ما يلزم لذلك. وعلى الأثر قدّمت نفسى إلى الكابتن (سناج) قائد الباخرة (همبر) الموضوعة الآن تحت تصرفنا لأستلم الهدية الرائعة التى ستمكننى من تحقيق فكرتى الغالية.

من بين كل الأهداف الممكنة لتحقيق فكرنى كانت أكثرها إغراء وأقربها منالاً (المدوّرة) نقطة المساء الواقعة على مسافة ٨٠ ميلا إلى الجنوب من (معان). واخترت، كمرافقين، نفرًا من (الحويطات) المحاربين المجربين، وكذلك ثلاثة من الفلاحين الحوارنة: رحيل، وعساف وحميد، الذين علّمونى الكثير عن بلادهم خلال هذه الرحلة.

غير أن الاستيلاء على القطار، بعد النسف، يتطلب مدافع ورشاشات. ولتلافى ذلك طلبنا السلاح اللازم والخبراء من القيادة فى مصر، فأرسلت لنا على جناح السرعة مدافع (لويس) و(ستوكس) وخبيرين من كلية (الزيتون) العسكرية هما «يلّز» و«بروك»، أنصرفا، لمدة شهر من الزمن إلى تعليم رجالنا كيفية استعمال السلاح الجديد.

وفيما نحن نعد العدة للغارة ازداد نهمنا. وبدت لنا محطة المدوّرة، لقمة سائغة واقعة فى أيدينا بسهولة فائقة إذا ما جندنا لها ٢٠٠ من رجالنا. وستكون هذه المغامرة مفيدة جدًا لنا، لأن بئرها كانت الوحيدة المتيسّرة إلى الجنوب من «معان».

وفيما نحن نتداول فى أمر هذه المغامرة دفعت الحماسة بالضابطين الخبيرين فى المدفعية «يلّز» و«بروك» لأن يطلبا السماح لهما بالاشتراك فى تلك الغارة على المحطة، فنزلت عند رغبتهما بعد أن أوضحت لهما صعوبة المحاولة. وفى السابع من أيلول قطعنا جميعًا وادى «اثم» كى نلحق فى «قويرة» بـ «عودة» ورجاله من «الحويطات». وبما أننا كنا أسياد أنفسنا فى ذلك اليوم فقد سرنا على مهل شفقة برفيقينا الجديدين اللذين لم يسبق لهما أن ركبا البعير لا سيما أن الجو فى هذه الأراضى الموحشة كان كثير القيظ.

استطاع «يلّز» الاسترالى منذ البدء أن يتآلف مع العرب، ولكنه كان يذهل كثيرًا عندما يعاملونه بلطف لم يكن لينتظره منهم.

وفى الغد مع أشعة الصباح الدافئة اقترينا من «قويرة» عبر سهل رملى وإذا بأزيز يقلق راحتنا ويدفعنا على جناح السرعة إلى التفرق بين لكمات الأشواك حتى لا تكون الخسائر فادحة. دارت الطائرة العدوة دورتين حول صخرة «قويرة» قبالتنا، ثم قذفت المكان بثلاث قنابل مدوّية وابتعدت.

تجمع شمل قافلتنا من جديد، ثم توجهنا على مهل إلى المعسكر. كانت (قويرة) فى ذلك اليوم تزخر بالمياه فقد كانت سوقًا لحويطات الجبال والهضاب. وعلى مدى النظر فى السهل كانت قطعان الإبل متراصة وكانت كثرة عددها تسبب نضوب الآبار القريبة مع الفجر فى كل يوم وتضطر المتخلفين إلى السعى بعيدًا، وراء الماء.

لم يكن لهذا الأمر كبير أهمية. مع ذلك لم يكن لدى العرب ما يفعلون سوى انتظار طائرة الصباح، ثم التحدث فى أى شىء لقتل الوقت حتى يرخى الليل سدوله وينصرف كل واحد إلى خيمته وينام، وكان من شأن هذه البطالة وتلك الأحاديث المتشعبة إنها أحيت الحزازات القديمة. كان (عودة) يحاول أن يُلحِق به القبائل مستفيدًا من كوننا فى حاجة إليه. وبما أنه كان يقبض حصة الحويطات من الاعتمادات، فقد كان يستخدم هذا المال فى محاولة إخضاع القبائل الصغيرة الحرة إلى سلطانه. وبسبب من هذا الضغط كانت تلك القبائل تهدّد أما بالانسحاب والعودة إلى الجبال وإما بالاتصال بالأتراك. لذلك أرسل الشريف مستور للوساطة تلافيًا للمشاكل. وكانت هذه الألوف من الحويطات

المقسمين إلى مئات الفئات والبطون كلها عنيدة وجموحة إلى حد أنه كان من العسير جدًا إرضاؤها دون إغضاب (عودة).

وكانت البطون الثلاثة الجنوبية التى نعتمد عليها فى غارتنا المقبلة من بين الفئات المنشقة. ولذلك بذلنا جهدنا لإقناعها عبثًا بالعودة إلى الحظيرة. فقد كلمها (مستور)، ثم مشايخ أبى تايه وأنا، ولكن دون نتيجة. وعندئذ بدا لنا أن مخططاتنا قد أصبحت غير ذات بال وفاشلة سلفًا.

وذات يوم، فيما كنت اتظلّل قبيل الظهر، جاءنى (مستور) ليعلمنى بأن رجال الجنوب يستعدّون لترك المعسكر والتخلى عن الحركة فقفزت من مسكانى كالمجنون أتطيّر غضبًا وتوجهت إلى خيمة (عودة). وبعد حديث طويل معه خرجت على أمل إيجاد حل للأمور. وما إن استأجرت الجمال اللازمة لنقل المتفجرات حتى اتفقنا على أن تبدأ مغامرتنا فى صباح الغد بعد قيام الطائرة بساعتين.

لقد كانت الطائرة المنظّم الغريب للشئون العامة فى معسكر (قويرة). الجميع ينهضون مع الفجر لانتظارها. (مستور) يرسل على عجل أحد عبيده إلى القمة لينبئ عن مقدمها. وعندما تدنو الساعة يقرب الجميع من (القرف)، ثم يصعد كل منهم إلى صخرته المفضلة غير عابئ بشىء.

وفجأة يدوى صوت المحرك من جهة معبر شتار. فيتمدد الجميع، ويقطعون أنفاسهم دون أدنى حركة. ثم تصل طائرة العدو، وتدور عدة دورات فوق هذا المشهد الغريب، وتلقى عددًا من القنابل وتغيب عن الأنظار عائدة من حيث جاءت.

●●●

(6)

تركنا (قويرة) غير آسفين على شىء لتخلصنا من صخبها ومشاكلها. وبعد مسير مُضْنٍ فى جو خانق اقترينا من (رم) البئر الخاصة ببنى عطية فى الشمال. وكان النهار لايزالً فى دغشته عندما بدأنا نهبط المنحدر المؤدى إلى وادى الرمّ، ذاك الوادى الغنى

بمناظره الطبيعية الخلابة. وبعد أن سرنا بضع ساعات فيه مسحورين بتلك المناظر انتقينا مكانًا جميلاً حططنا فيه رحالنا. وما إن أشعلنا نارنا لطهو طعام العشاء حتى علم الأعراب المخيمون حول الينابيع بمقدمنا فجاؤوا للسلام علينا وتبادل الأحاديث معنا. وقد تجمع في حلقتنا في تلك الليلة مشايخ الدراوشة، والزلباني، والزوايدة والطقايقة. ومن الحديث تبين لنا أن هؤلاء المشايخ الحاقدين على (عودة) بسبب أطماعه وتسلطه يشترطون لخدمة الشريف أن ينالوا منه المساندة الكاملة في مطالبهم كلها. وكان قاسم أبو دميك، الفارس الجميل الذي قاد الرجال من الهضاب، وانقضَّ على مخفر (أبو اللسن) أكثر الجميع ثورة وعنادًا يتطيّر من الطوايخه، فاستخدمت كل ما عندي من حنكة ودهاء لإخماد ثورته وتحويله عن عناده. وما إن لاذ بالسكوت حتى اغتنمت الفرصة وتوجهت إلى الآخرين للتأثير عليهم. وفعلاً دبّ الاضطراب في النفوس وبدت الهمهمة ضد المشايخ، ثم سُمعت أصوات تقول بوجوب الذهاب معنا. بعد هذا النجاح قلت لهم إن «زعل» سيصل في الصباح وأننا على استعداد لقبول المؤازرة من الجميع ما عدا الدوقانية، بعد الذي صدر عن زعيمهم قاسم، وبأن اسمهم سيشطب من حساب فيصل كما سيخسرون كل ما كسبوه حتى اليوم. على الأثر أقسم قاسم بأنه سينضم إلى الأتراك. وترك المكان غاضبًا.

في صباح اليوم التالي كان قاسم أبو دميك لا يزال بيننا مع رجاله مستعدًا لأن ينضم إلينا أو لأن يقاومنا، حسب الرياح. وفيما كان يتخبط في حيرته وتردده، وصل زعل، وسرعان ما علا صياحهما وكادا يتضاربان لولا أننا أبعدنا وأحدهما عن الآخر. ولكن الصدام كان عنيفًا إلى درجة قضى معها على كل تحسن جنيناه أثناء الليل. فاشمأزت القبائل من تصرف قاسم الفجّ وجاءت تنضم إلينا الواحدة بعد الأخرى راجية مني إبلاغ فيصل ولاءها قبل رحيلنا. نتيجة لهذا الموقف القلق قررت أن اتصل فورًا بفيصل لتذليل الصعوبات من جهة ولتأمين جمال من جهة أخرى بعد أن بات من المتعذر علينا الآن استئجار جمال الدومانية. وخوفًا من أن يقطع قاسم الطريق على رسولي لفيصل ويقتله، عزمت على أن أسافر أنا بنفسي إلى العقبة وأعود بأسرع ما يمكن.

لقد أخافت عودتى المفاجئة فيصل، ولكننى سارعت إلى تطمينه ثم قصصت عليه مأساة «الرم». وبعد الغداء، أخذنا الإجراءات اللازمة. وأعددنا لنقل المتفجرات عشرين جملاً مع جمّاليها لتسير بعد الغد إلى وادى الرم. ولإصلاح ذات البين بين العشائر كلف فيصل الشريف عبدالله الغير أحد أنصاره المتحمسين، بمرافقتى والقيام بمهمة الوساطة.

فى فجر اليوم التالى قفلت عائدًا إلى «وادى الرم» وبرفقتى الشريف عبدالله وبعد الظهر كنا فى المخيم، فوجدنا كل شىء على ما يرام، وزال قلقنا. ودون تلكؤ انصرف عبدالله إلى تنفيذ مهمته، فجمع الأطراف المتنازعة من الأعراب، بما فى ذلك قاسم أبو دميك، واستطاع أن يجمع ذات البين بما لديه من حنكة ودراية كزعيم عربى مجرب.

* * *

أحرزت دبلوماسية عبدالله بعض التقدم. وقاسم، الصامت الآن، يرفض أن يتخذ أى قرار، وعلى الأثر دبّت الحماسة والجرأة فى حوالى مائة رجل من العشائر الصغيرة فتحدوه ووعدوا بمرافقتنا. فعقدت اجتماعًا مع (زعل) وقررنا أن نفيد من هذه القوة.

لقد كانت فرقة هجومنا صغيرة أقلّ من ثلث ما كنا نأمله. وأجبرنا هذا الضعف على تغيير مخططاتنا بصورة مؤسفة. وفضلاً عن ذلك كان ينقصنا زعيم لقيادة الحملة. صحيح أن (زعل) خير من يصلح لهذه المهمة، ولكن قرابته من (عودة) تجعل الآخرين يترددون فى تنفيذ أوامره.

فى الغد وصلت الجمال التى أرسلها فيصل لنقل المتفجرات. فأعددنا عدّتنا. وفى فجر السادس عشر من أيلول تركنا (الرمّ). كان (زعل) يقود النواصرة الخمسة والعشرين وهم من أتباع «عودة». وكان «مطلق» الأعور يسير فى المقدمة على متن ناقته «الجدّة» أجمل ناقة فى الشمال.

كانت قافلتنا هذه المرة كحبات متناثرة من عقد لؤلؤ. قد كانت تضم جماعات من الزوايد، والدراوشة، والطقايقة، والزلبانى. وأثناء هذه الحملة تكشفت لى لأول مرة

فضيلة حماد الطقايقى. وبعد مضى نصف الساعة على انطلاقنا انضم إلينا من بطن الوادى نفر من الدومانية بعد أن تعذر عليهم تحمُّل الإهانة والبقاء كالنساء فيما انطلق الآخرون إلى ساحة الشرف.

كانت كل عشيرة ترفض أن تحاذى الأخرى وتبادلها الحديث. وقد ذهبت كل جهودى هباء فى محاولتى التقريب فيما بينهم. ولكنها جميعها كانت لا تتفق إلا على أمر واحد هو رفض قيادة «زعل» لهم رغم اعترافهم بأنه أفضل الجميع لمثل هذه المهمة. وأنا شخصيًا كنت لا أثق إلا به. فاضطررت لفض النزاع أن اتحمّل بنفسى مهمة القيادة. وقد كان ذلك ضد مبادئى، ولا يتفق مع تفكيرى، كما أن ضرورة اللف دائمًا مع ادعاء معرفة ما كنت أجله حرمتنى من رؤية ما حولى ولم تتح لى فرصة دراسة كيفية الهجوم على «المدوّرة» وكيفية استعمال المتفجرات.

توقفنا للاستراحة عند منتصف النهار فى مكان خصب. ثم تابعنا سيرنا حتى الغروب حيث خيَّمنا فى طرف وادى موحل. وقد تجمع الرجال فى ثلاث حلقات حسب حزبياتهم، فكانت الأولى تضم رجالى والثانية رجال (زعل)، والثالثة سائر الحويطات. وبعد أن تناول الجميع طعام العشاء دعوت المشايخ إلى حلقتى المحايدة للتداول بشأن تنظيم مرحلة الغد.

لقد بدا لنا أنه فى إمكاننا عند غروب شمس اليوم التالى، أن نصل إلى إحدى آبار (المدوّرة) على بعد ثلاثة أميال من المحطة فى لحف الوادى. وتحت جنح الظلام نتسلل لمراقبة المحطة عن كثب ودراسة خطة الهجوم عليها. وبعد أخذ ورد تولّد شىء من الانسجام فيما بيننا، وانصرفنا إلى النوم تعمر قلوبنا الثقة.

وفى الصباح بدأنا المسير مجتازين الوادى الموحل ثم السهل الكلسى ومنطقة من التلال. وعند العصر وصلنا إلى البئر المقصورة كما خططنا بالأمس. ومع الغسق تسللنا أنا و(زعل) ونفر من الرجال إلى مكان قريب من المحطة للاستطلاع، فوجدناها تضم عدة مبانٍ من الحجر، وقدّرنا عدد الحامية بمائتى رجل. بينما كان عددنا نحن ١١٦ فقط.

وبعد إجراء حساب الخسائر والأرباح وجدت أنه من الأفضل عدم التعرض للمحطة وتركها إلى مناسبة أخرى نكون فيها أكثر استعدادًا لذلك. وفى الواقع كتبت الصدف المتتالية المحطة «المدوّرة» أن تنجو من غاراتنا، وتبقى على حالها حتى شهر آب سنة١٩١٨ عندما سقطت فى يد (بوكستون) وهجانته.

●●●

(7)

عدنا إلى حيث كانت جمالنا وسائر الرجال، وقضينا هناك باقى ليلتنا. وفى صباح الغد قفلنا عائدين من حيث أتينا، ثم توجهنا إلى الشرق، بناء لاقتراح «زعل»، على أمل نسف الخط الحديدى. وتوغلنا فى المنطق الجبلية حتى أصبحنا على مسافة نصف ميل فقط من الخط. وهناك أعطينا إشارة التوقف فى مكان محجوب عن الأنظار. وتقدم بعضنا لرؤية الخط عن كثب. فوجدنا «عبّارة» ملائمة كل الملائمة لتنفيذ مخطط النسف، خاصة أن المكان مناسب للانسحاب ولمواجهة كل طارئ. وعلى الأثر عدنا ادراجنا حيث توقف الرفاق، وانزلنا الأحمال، ثم عمدنا إلى تركيز المدافع فى الأماكن الملائمة لها. وبعد ذلك توجهت مع المتفجرات برفقة بعض الرجال إلى حيث كانت «العبّارة» وبدأت فى إخفاء اللغم. وقد استغرق هذا العمل من وقتى ساعتين كاملتين لأن الأرض كانت قاسية جدًا وكنت لا أريد أن ينكشف أمر إخفاء المتفجرات. ثم عمدت إلى طمر الشريط الكهربائى الذى سيوصل ما بين المتفجرات وجهاز التفجير الكهربائى الذى تزودنا به مؤخرًا. وعلّمنا سالم، أحد أفضل عبيد فيصل، كيفية استعماله والضغط عليه وبعد ذلك عدنا إلى المخيم تاركين حارسًا فى مكان مشرف على الخط لينبئنا بمقدم القطار. ولما وصلنا إلى المخيم لم نجد أيًا من رجالنا هناك. وبعد البحث والمناداة تبين لنا أن الجميع قد اعتلوا رءوس الصخور المحيطة. فصرخنا بهم أن انزلوا أو أخفوا رءوسكم. وقبل أن يفعلوا كان قد فات الأوان وشاهدهم حراس حامية «حلة عمار» وبدءوا فى إطلاق النار عليهم، الأمر الذى نبه حراس محطة «المدوّرة» إلى وجودنا كذلك. ولحسن حظنا أن الليل هبط ليلفنا بوشاح من الظلمة ويخفينا عن أنظار العدو. فأخلدنا إلى السكينة يحدونا

الأمل بأن يظن الأتراك أننا قد هربنا تحت جنح الظلام. وتناولنا طعامنا معًا فى تلك الليلة بعد أن جمع بيننا العمل المشترك والخوف المشترك والخجل المشترك من حادثة تسلق الصخور، واخترنا «زعلاً» قائدًا لنا.

طلع علينا صباح اليوم التالى هادئًا. وبقينا ساعات طويلة نراقب الخط الحديدى والمخافر الساكنة. ونجح «زعل» بمعونة «حويمل» وابن عمه الأعرج، فى فرض الهدوء على الجميع. غير أن هذا لم يتم بدون صعوبة، فما من شىء يستطيع أن يهدئ اضطراب البدو، الذين يعجزون عن البقاء فى مكان واحد عشر دقائق بدون حركة. وكانت هذه النقيصة تجعلهم أقل قيمة من الإنجليز المعروفين بجلدهم وثباتهم وصبرهم. ولذلك كنّا غاضبين منهم فى ذلك النهار.

عند الساعة التاسعة خرج حوالى الأربعين جنديًا تركيًا من الخيام القائمة على رأس التلة جنوبى «حلة عمار» وتوجهوا نحونا. ولو تركناهم يفعلون ذلك لقطعوا عنا، فى ظرف ساعة من الزمن، الاتصال بالمكان الذى وضعنا فيه المتفجرات. وأما إذا صددناهم بفضل قوتنا المتفوقة فستعمد المحطة إلى ايقاف تسيير القطارات. وهكذا وجدنا أنفسنا فى موقف حرج للغاية. حاولنا أن نخرج أخيرًا من هذا المأزق بحمل فرقة منا على أن تهاجم العدو من جهة جانبية ثم تنسحب أمامه لإبعاده عن مكاننا وإبقاء وجودنا مخفيًا عنه ريثما يتم تنفيذ المهمة التى جئنا من أجلها.

خلال بضع ساعات تم كل شىء كما تمنينا وابتعد العدو عن مكاننا بعد إلى سرت عليه الخدعة. ولكن ما أن هدأ خاطرنا، حتى خرجت علينا قادمة من الجنوب دورية نظامية مؤلفة من ثمانية جنود وعريف ضخم الجثة يمسح العرق عن وجهه باستمرار. غير أن تلك الدورية لحسن الحظ مرت من أمامنا وتابعت طريقها إلى «المدورة» كأنها لم تشعر بوجودنا أو لم تأبه لنا. ولكنا كنا على خطأ.

وحمل إلينا بعد ظهر ذلك اليوم مشاغل مقلقة جديدة. فمن خلال منظارى القوى، رأيت حوالى مائة من الجنود الأتراك يخرجون من محطة «المدورة» متوجهين إلى حيث

كنا نخيم. كان أولئك الجنود يتقدمون ببطء، وبلا ريب رغمًا عنهم، لحرمانهم من لذة النوم والقيلولة ولكن أيًا كان نوع مزاجهم وطبيعة سيرهم فسيصلون إلى مكاننا فى أقل من ساعتين. .

ولذلك بدأنا فى الاستعداد للرحيل، بعد أن قررت أن نبقى المتفجرات حيث هى حين نعود ونفجرها فيما بعد وأرسلت من يقول إلى الفرقة التى غطتنا بأن تلاقينا فى مكان ما بعيدًا عن هنا بالقرب من الصخور التى تخفى جمالنا فى المرعى.

ولكن ما انصرف الرسول لتأدية مهمته حتى صرخ أحد حراسنا قائلاً إن الدخان يتصاعد من جهة «حلة عمر». فأسرعت أنا وزعل إلى رأس التلة للتأكد، فتبين لنا أن قطارًا قد وصل إلى المحطة. وما هى إلا لحظات حتى تحرك القطار باتجاهنا. فأصدرنا أوامرنا إلى الجميع بأن يأخذ كل منهم مكانه استعدادًا لما سيحدث. بينما بقيت أنا أترقب قدوم القطار ومروره من فوق اللغم حتى أعطى إشارة التفجير إلى سالم المتراقص فرحًا لتمكنه من خدمة سيده بهذا العمل.

وهكذا عندما وصلت القاطرة إلى فوق الجسر «العبّارة» أعطيت إشارة التفجير، فدوى المكان دويًا هائلاً واختفى الخط من أمام انظارنا وراء ستار كثيف من الدخان والغبار، زاد ارتفاعه عن مائة قدم، وكذلك عرضه. ومن خلال ذلك تهادت إلى أسماعنا أصوات وقرقعة. ثم ساد سكون رهيب. وبعد انقشاع ستار الدخان والغبار رأينا الأتراك يقفزون من أبواب القطارات الخلفية ويختبئون وراء العارضات استعدادًا للرد على نيران بنادقنا ورشاشاتنا ومدافعنا. ولكن قنابلنا أجبرت العدو على الفرار دون أن يلوى على شىء. وفى أقل من عشر دقائق كان قد انتهى كل شىء. وانقض رجالنا على بقايا القطار يستولون على ما فيه. بالطبع، كان لا يزال أمامنا نصف الساعة من الزمن. وبعد ذلك نصبح مهددين من الجانبين.

لقد نجحت مهمتنا نجاحًا منقطع النظير وتناثرت بقايا القطار على جانبى الخط كما نسف الجسر وتخرّبت معه مسافات طويلة من الخط. وأما القتلى فقد كان عددهم

كبيرًا، وبين الأسرى العسكريين التسعين كان يوجد خمسة من المصريين، سرعان ما تعرفوا علىّ وشرحوا كيف وقعوا فى الأسر فى أيدى الأتراك أثناء غارة قام بها دافنبورت، فكلفت أولئك الجنود الخمسة بقيادة الأسرى إلى نقطة التجمع بين الصخور.

كان (ويلز) و(بروك) قد نزلا إلى مكان الانفجار للحاق بى ورؤية نتيجة عملنا الجليل عن كثب. وقد انصرف «ويلز» إلى إحصاء عدد القتلى الذين خلفتهم قنابله بينما راح «بروك» يبحث عن الذهب التركى بين البقايا.

فى هذه الأثناء جاءنى أحمد يقول إن سيدة مسنّة فى العربة قبل الأخيرة تريد أن ترانى فكلفته بإحضار جمال لنقل المدافع قبل أن يداهمنا العدو والجميع مشغولون بالغنائم، ثم توجهت لرؤية السيدة. لقد كانت سيدة عجوزًا بالفعل يدل مظهرها على أنها من علية القوم، وكانت مضطربة للغاية، فبادرتنى بالسؤال: ماذا يعنى هذا؟ فقدمت لها بعض التفسيرات. وأخبرتنى بعد ذلك، بأنها صديقة قديمة لفيصل. ثم سألتنى: والآن ما العمل؟ لقد كانت هزيلة جدًا عاجزة عن السير معنا. فأكدت لها أن الأتراك سيصلون قريبًا ويعتنون بالجميع بينما نحن يتعذر علينا ذلك فى وضعنا الحرج. قبلت السيدة العجوز كلامى، ورجتنى أن أبحث لها عن جاريتها التى أرسلتها فى طلب الماء، ففعلت وبعد بضعة أشهر تلقيت سرًا من دمشق رسالة وسجادة بلوخستانية بديعة، من قبل السيدة عائشة ابنة جلال الليل فى المدينة تذكارًا لمصادفة غريبة:

لم يحضر أحمدُ الجمالَ. وكان رجالى الذين استبدَّ بهم شيطان الجشع قد تناثروا فى الصحراء مع البدو. وهكذا وجدت نفسى وحيدًا مع «يلز» و«بروك» فى مكان الفاجعة حيث يخيم سكون غريب الآن. فخفنا أن نضطر لأن نهرب بعد قليل تاركين المدافع للعدو. وإذا بنا نشاهد عن بعد جملين قادمين نحونا بأقصى سرعتهما. وكان على متنهما «زعل» و«حويمل» اللذان لاحظا غيابنا فسارعا إلى البحث عنا.

كنا نلف الشريط الكهربائى عندما وصل «زعل» وقفز عن بعيره طالبًا إلىَّ ركوبه. فآثرت أن أحمل الشريط وجهاز التفجير الأمر الذى حمل «زعل» على التهكم من غنيمتنا الغريبة، بينما غرق الآخرون فى الذهب والأسلاب الثمينة. حملنا مدفعين على جمل

«حويمل» الأعرج وحملنا الآخرين على جمل وجده «بروك» ضالاً بالقرب من المكان. ثم أركبنا «بروك» على جمل «زعل» بسبب ما يقاسيه من ألم الزحار. وتولى (حويمل) قيادة الجمال إلى نقطة التجمع.

وقبل أن نترك المكان رأينا أن نشغل بال العدو الذى أصبح قريبًا منا، فجمع «زعل» و«ويلّز» كميات القنابل والخرطوش الباقية لدينا ثم أشعلوا فيها النار، وبدأت أصواتها تدوّى تباعًا فيما كنا نحن نسرع الخطى للحاق برفاقنا. وعلى أثر سماع ذلك ظن العدو أننا متحصنون وكثيرو العدد، فتوقف عن التقدم وبدأ فى رسم خطة لتطويقنا.

وهكذا تمت العملية على الوجة الأكمل، ولم نفقد سوى رجل واحد متهور وأصيب ثلاثة من رجالنا بجراح خفيفة. وفيما نحن نحصى الرجال صرَّح أحد عبيد فيصل بأن سالم غير موجود. فجمعت الرجال واستجوبتهم بشأنه، وعرفت أخيرًا على لسان أحدهم بأنه مسجى على الأرض بالقرب من القاطرة، وتأكدت من صحة ذلك عندما تذكر «يلّز» بأنه شاهد بين الجرحى شخصًا تنطبق عليه أوصاف سالم ولكنه لم يتنبه ساعتئذ إلى أنه واحد من رجالنا. لم يقل لى أحد شيئًا عن هذا الأمر من قبل، فاستشطت غضبًا، لأن نصف الحويطات على الأقل، يجب أن يكونوا على علم به، ولا يجهلون بأننى مسؤول عن سالم. وهكذا بسبب خطأ من الحويطات تركت أحد الأصدقاء خلفنا للمرة الثانية.

طلبت متطوعين للبحث عنه، فتقدم «زعل» ومعه اثنا عشر من عرب النواصرة. وعلى جناح السرعة امتطينا ظهور مطايانا واجتزنا السهل بأقصى سرعة فى اتجاه الخط الحديدى. ومن على التلة الأخيرة المطلة على الخط، بدا لنا القطار يعج بالأتراك الذين قدرنا عددهم بمائة وخمسين على أقل تقدير. ظهرت لنا محاولتنا عقيمة. فسالم يجب أن يكون قد لاقى حتفه على أيدى الأتراك الذين لا يأخذون أسرى من العرب بل يقتلونهم ويفظعون بهم، ولذا توجب علينا أن ننزع قصة سالم من رءوسنا. ولكن كى لا نعود عبثًا قررت أن نأخذ معنا بعض ما كنا قد تركناه فى معسكرنا القديم. ولكن ما إن تسللنا إلى هناك حتى أمطرنا العدو بوابل من الرصاص، وأخذ فى الالتفاف حولنا بعد

أن تبين له قلة عددنا. فقاومنا مقاومة الأبطال، وعلى الأخص «زعل» الذى تولى إلهاء العدو عنا ليغطى انسحابنا نحو قاعدتنا.

بعد أن تراجع العدو تاركًا إيانا وشأننا خوفًا من أن يصبح بعيدًا عن قاعدته وصلنا إلى المعسكر وأعطينا إشارة المسير، وكان الوقت قد قارب العصر، كما كانت المياه قد نضبت منا فاضطررنا أن نعرج على بئر المدوّرة كى نتمكن بعد ذلك من مواصلة السير حتى وادى الرمّ. لقد كانت البئر قريبة جدًا من المحطة لذلك كان علينا أن نذهب إليها بحذر شديد ونغادرها بأسرع ما يمكن حتى لا يفاجئنا الأتراك فى ذلك المكان ونحن بدون دفاع.

أثناء المسير تقدم «يلّز» و«بروك» منى وطلبا سيفًا كتذكار لأول حملة غير نظامية يشتركان فيها. وفيما أنا أذرع القافلة لهذا الغرض صادفت فجأة خدم فيصل ووراء أحدهم سالم يتلوى من آلام جراحه.

أسرعت خببًا نحو فرحان أسأله تفسيرًا لذلك. فروى لى بأن سالم كان قد قفز نحو القطار بعد القنبلة الأولى التى قذفها عليه «بروك»، فأطلق عليه النار أحد الأتراك من الخلف، إلا أن الرصاصة لم تصب منه مقتلا، رغم مرورها بالقرب من العمود الفقرى. وأثناء السلب انتزع منه الحويطات معطفه وخنجره وعقاله وبندقيته، وبعد ذلك عثر عليه «مقبل» أحد خدم فيصل، وحمله معه ليفر دون اعلامنا. غير أنه، أى فرحان، لحق به فى الطريق، وأعفاه من تلك المهمة، وأخذ سالم منه وعالجه بنفسه. وعندما شفى سالم لاحظت أنه احتفظ تجاهى بشىء من الضغينة لأننى تخليت عنه جريحًا، وأنا مسؤول عنه لأنه فى إمْرتى. وكنت فى نظره قد خنت الأمانة. وهذا عار كبير عند العرب.

وصلنا إلى البئر بعد ثلاث ساعات، وما إن تزودنا بالماء اللازم، حتى تابعنا المسير عشرة أميال أخرى كى نصبح فى مأمن من شر العدو. وبعد ذلك توقفنا لقضاء الليل وطلع علينا الصباح ليجدنا منهكى القوى، ولكن سعداء. وبما أننا كنا بدون أحمال أنا و«يلّز» و«بروك» فقد تولينا مهمة الكشافة وسبقنا القافلة كى نصل إلى وادى الرمّ قبيل غروب الشمس.

وصلنا أخيرًا إلى حيث كنا نخيّم بالقرب من المياه فوجدنا موسى حارسنا لايزال مستيقظًا. فأوقدنا النار وتعشينا، ثم نمنا نومًا عميقًا حتى الصباح، ولم يوقظنا وصول الآخرين فى الساعة الأخيرة من الليل.

بعد استراحة يومين توجهنا إلى العقبة حاملين أكاليل الغار ومعلنين أن القطارات التركية باتت تحت رحمتنا. وفور وصولنا إليها سارع «يلز» و«بروك» بالسفر إلى مصر على متن أول باخرة متوجهة إلى هناك بعد أن تيسر لهما كسب معرفة مشرفة، وبعد أن عرفا داء الزحار، وعاشا على حليب النياق، واجتازا على ظهر البعير ثمانين ميلاً فى اليوم بدون ألم ولا تأفف وبعد أن بات أمرًا مفروغًا منه حصولهما على وسامين من اللنبى لشجاعتهما.

* * *

مضت عدة أيام فى التحدث مع فيصل فى السياسة والتنظيم والاستراتيجية بينما كان يجرى إعداد العدة للحملة المقبلة. وحسن الطالع الذى واجهنا، فى مهمتنا، كان قد عصف بالمعسكر بكامله، وفن نسف القطارات مهيأ لأن يصبح شعبيًا فيما لو تمكنا من تلقين أصوله إلى عدد من الرجال يكفى لتوسيع نطاق العمل، وإرسال عدة حملات إلى أماكن مختلفة فى الوقت نفسه. وقد كان الكابتن «بيزانى» أول المتطوعين، وهو الرئيس المجرب للفرقة الفرنسية فى العقبة والجندى المتحرق شوقًا للمغامرة واحراز الانتصارات ومن ورائها المكافآت. ثم اكتشف لى فيصل ثلاثة شبان من أبناء خيرة العائلات الدمشقية يرغبون فى ترؤس حملات الغزو على القطارات. عدنا بعد ذلك إلى الرمّ لنعلن أن شرف قيادة الحملة قد رسا على قاسم وعشيرته. وفى الحال بدأ الرجال يتدفقون علينا طالبين الانضمام إلى الحملة، يدفعهم إلى ذلك ما سمعوه عن الحملة السابقة وما شاهدوه من غنائمها. فاضطررنا أن نرفض الكثيرين واستبقينا ١٥٠ رجلاً وعددًا كبير من الجمال على أمل أن نعود بها محملة بالغنائم.

قررنا فى هذه المرة أن نعمل فى جهة معان. ولذلك كان علينا أن نتجه نحو «بترا»، وننتقل من الحر إلى البرد، ومن الجزيرة إلى سوريا.

قال لنا الدليل بأن الكيلومتر رقم ٤٧٥ يناسب تمامًا لوضع لغم عنده. ولكن هذه القطعة من الخطة كانت مراقبة من عدة مخافر محصنة، فتوجب علينا أن نهرب دون جلبة. وبعد ذلك توجهنا إلى نقطة يمر فيها الخط فى واد، فوق ثلاثة جسور. وبعد منتصف الليل تسللنا إلى تحت الجسر ولغمناه بالمتفجرات. وقد استنفد منا ذلك مدة من الزمن جعلت نور الفجر يفاجئنا فى العمل. وبعد انتهائنا من ذلك انسحب رجالنا إلى مسافة ألف متر فى المنحدر الكثير الأشواك كى يكونوا بعيدين عن الأنظار خلال النهار.

دام انتظارنا طول النهار، ثم الليل الذى تلاه. فى صباح اليوم التالى بينما كنت أعقد اجتماعًا لمشايخ العشائر المشتركة فى الحملة صرخ الحارس يعلمنا بقدوم قطار نحونا.

لقد كان قطارًا خزَّانًا قادمًا من «معان» مرَّ فوق اللغم دون أن نفجره تحته. شكرنى الأعراب على تصرّفى الحكيم هذا لأن سلب الماء لم يكن ما يحلمون به. وعلى كل حال كان اللغم قد فسد ولم يعد صالحًا. وعند الظهر تسللت مع مساعدى إلى تحت الجسر من جديد لنضع تحته لغمًا كهربائيًا. فى هذه المرة ومن تحت الجسر الجنوبى نقلنا المتفجرات إلى تحت الجسر الوسطى، وبعد ذلك اختبأ الرجال بين العليق على مسافة ٣٠٠م. من الخط إلى جهتنا. وعدنا إلى الانتظار من جديد طول ذلك النهار نرقب تحركات الدوريات التركية فى الصباح وعند الظهر وفى المساء.

وعند الساعة الثامنة من صباح اليوم التالى تعالت سحب من الدخان فوق معان، كان يخلفها وراءه قطار متجه نحونا. غير أن دورية من ستة أنفار كانت قد اتجهت نحونا فى الوقت نفسه الأمر الذى أقلقنا لأنه فى حالة وصولها إلى الجسر قبل القطار فهى بلا شك ستنذره، وتبوء كل جهودنا بالفشل.

لدى الحساب تبيّن لنا أن القطار سيسبق الدورية بمسافة ٢٠٠ إلى ٣٠٠م. فأصدرنا الأوامر بأن يأخذ كل من رجالنا مكانه ويستعد. كان القطار يتقدم على مهل فيما كنت أنا أراقب عن بعد مائة متر عن اللغم. ومن مكانى كنت أرى، علاوة على اللغم، رجالنا حول جهاز التفجير والرشاشات. وعندما سمع فايز وبدرى صوت القاطرة تمر من فوق

جسرهم بدءوا يرقصون رقصة الحرب حول الجهاز الكهربائى الصغير. وأما الآخرون، المختبئون فى الحفرة فقد أومأوا لى بأن اللحظة قد حانت. ولكننى فضّلت الانتظار ريثما تصل القاطرة فوق الجسر تمامًا، وعندها أعطيت الإشارة المتفق عليها، وضغط فايز على الجهاز، ثم ردد الوادى صدى الانفجار الهائل كما حصل فى «المدوّرة» قبل أسبوع من هذا التاريخ. وبعد طلقات ثلاث من مدافع «لويس» علا الصراخ، وأغار رجالنا على القطار وكأنهم سيل عرم.

فى هذه الأثناء سارع أحد الأتراك وفك المقطورات الأربع الأخيرة لتسقط فى الوادى المجاور. فحاولت جدًا منع ذلك، حتى لا يضيع علينا هذا القسم من الغنائم، ولكن عبثًا، حيث عاجلنى ضابط تركى بطلقة من مسدسه «الموزر» أصابتنى فى وركى.

كان من حصيلة عملنا هذا أن تهدم الجسر ونسف القطار. وأما القتلى من الأتراك فزادوا على العشرين، وكان من بين الأسرى أربعة من الضباط.

وكان ذلك القطار محملاً بما يقارب سبعين طنًا من المؤن الضرورية جدًا، كما ورد فى اللائحة المرافقة. فأرسلنا نسخة من تلك اللوائح إلى فيصل، لتشهد بنجاحنا. ثم كلفنا «بيزانى» بمراقبة الغنائم، فيما كنت بمساعدة فراج وسالم والضغلان، أحمل جهاز التفجير والأشرطة على أحد الجمال. وعندما كنا على وشك الرحيل ظهرت فى الأفق على مسافة ٤٠٠م النجدات التركية، غير أننا تمكنا من الإفلات من يدها ولم يصب أحد من رجالنا بأذى.

بعد ذلك عمد تلامذتى وحدهم إلى مزاولة فن النسف بالمتفجرات، وتعليمه إلى غيرهم. وكانت أخبار أرباحهم تعصف من قبيلة إلى أخرى، وكأنها موجة متعالية دائمًا، حتى أن بنى عطية كتبوا إلى فيصل: «أرسل لنا أحد تلامذة لورانس، ولن نترك قطارًا يمر فى الجوار بعد ذلك إلا وننسفه». فأرسل لهم سعد، أحد بنى عقيل، الموثوق به، فنسف بمساعدتهم قطارًا مهمًا.

وفى الأربعة الأشهر التى تلت، نسف خبراؤنا المنطلقون من «العقبة» سبعة عشر قطارًا. وبعد ذلك أصبح السفر بالقطار، بالنسبة لأعدائنا، مغامرة محفوفة بالأخطار.

وفى دمشق بات المسافرون يتراحمون لحجز أمكنة لهم فى مقطورات المؤخرة. كما عمد عمال الخطوط الحديدية إلى إعلان الإضراب العام حفظًا لأرواحهم. ثم توقف النقل المدنى بالقطارات أو كاد وأصبح من المتعذر عليهم إمكانية الإخلاء السريع عند الحاجة للمدينة المنورة أو للقدس بعد أن تزايد الخطر البريطانى هناك.

فى هذه الأثناء وصلتنى برقية من مصر. ثم جاءت طائرة خاصة ونقلتنى إلى مركز القيادة العامة هناك. وكان اللنبى فى هذا الوقت يسعى جهده إلى تدعيم قوة الحلفاء فى فلسطين، فطلب إلىّ تقدير قيمة جهودنا على الخط الحديدى، وما إذا كانت ذات فائدة عملية، أم أنها فقط محاولة دعائية لفيصل؟!

عندئذ عرضت عليه خطتى، نترك الخط يعمل. ولكن فقط بطريقة تضطر قوات فخرى باشا إلى البقاء محجوزة فى المدينة المنورة، لأن حجزها هناك أوفر علينا بكثير من أسرها فى معتقلات مصر. والطريقة الأسلم والأضمن للحد من سير القطارات على الخط هو مهاجمة بعضها من وقت لآخر. والعرب يبذلون لهذه الغاية أقصى ما عندهم من جهود دون أن يتكبدوا مع ذلك أية خسائر عسكرية كما أنه لا يخفى أننا مازلنا فى الوقت الحاضر أعجز من أن نمنع السير نهائيًا على الخط لأن رأسه - أى نقطته الأقوى والأمنع - يوجد على مقربة من دائرة نشاطنا، غير أننا نفضل عدوًا ضعيفًا فى الجوار ما دام جيشنا النظامى ليس مستعدًا بعد للاستيلاء على معان.

سألنى اللنبى بعد ذلك، عن وادى موسى لأنه يعتقد بأن تحركات الأتراك تدل على أنهم سيضربون هناك بدون تأخر، فشرحت له أننا نتعمد جر الأتراك إلى معركة فى وادى موسى، ونعدّ لهم فخًا محكمًا لهذه الغاية. وافضليتنا عليهم فى ذلك أننا نعرف كل شىء عن تحركاتهم وقواتهم بينما هم يجهلون كل شىء عن حقيقتنا.

وفى النهاية صحَّ ما توقعته واستطاع «مولود» أن يشتت قوات جمال باشا التى هاجمته فى وادى موسى وكبدها خسائر فادحة وحرّر «العقبة» بذلك من كل خطر قريب.

■ ■ ■

6
فشـــل الغــــارة
على الجسور

(1)

لقد كان تشرين الأول شهر انتظار إذن بالنسبة لنا. وكنا نعلم فى الواقع أن اللنبى يعدّ مع (بولز) و(داونى) هجومًا على خط غزة - بئر السبع. أما الجيش التركى الصغير المتحصِّن جيدًا فى مواقعه والمزوّد بوسائل ممتازة للمواصلات الجانبية فقد كان سكرانًا بانتصاراته إلى درجة بات يعتقد معها أنه ما من جنرال بريطانى يستطيع أن يحتفظ بما ربحته له قواته بعد معارك ضارية.

كان الجيش التركى مخدوعًا لأن اللنبى استطاع فعلاً أن يخلق روحًا وثابة جديدة فى صفوف القوات الحليفة، وإذا كان (مورى) ورجاله قد عملوا دائمًا وراء غشاوة كثيفة من التحاسد المكتبى (البيروقراطى) فإن اللنبى جاء يقضى على كل ذلك بشخصيته الفذة. وحلّ الجنرال (بولز)، رئيس أركان حرب اللنبى سابقًا فى فرنسا محل (ليندن بل) و(بولز) رجل حى شجاع ساخر مخطط بارع وأفضل مساعد متوار عن الأضواء. ولكن لسوء الحظ لم يكن كلاهما حرًا فى اختيار معاونيه إلا أن تبصُّر (شيتوود) عرف كيف يخدمهما بأن اختار لهما (غى دوانى) ليكون الشخص الثالث فى الأركان العامة.

لم يكن عند (بولز) يومًا رأيًا خاصًا كما كانت تنقصه الوسيلة لتكوين ذلك. وأما (داونى) فكان متوقد الذكاء. كانت تنقصه حيوية (بولز) وكذلك اندفاع اللنبى وتفهمه الإنسانى.

انعكست هذه الميزات المتباينة على المخطط المعقد. فقد كانت غزة محاطة بخطوط من الخنادق على المستوى الأوروبى تؤمن لها عدة خطوط دفاعية. وقد كانت بالفعل أمنع

مركز للعدو جعلت القيادة البريطانية العليا تعتبرها هدفًا رئيسيًا فى حملتين رئيسيتين. ألحّ اللنبى القادم من فرنسا بأن يتمّ أى هجوم، على يد أكبر عدد ممكن من الرجال والعتاد، فوافق (بولز) على ذلك بإيماءة من رأسه.

لم يكن (داونى) الرجل الصالح لمعركة تصادم رأسى. لذلك كان يسعى لأن يقضى على قوة العدو بأقل توريط ممكن. وكأحد أساطين السياسة كان (داونى) يستخدم لقب (رئيس) إلى جانب الدهاء لتغطية حيله التى لها ما يبررها. فنصح بشن غارة على طرف الجبهة التركية من جهة بئر السبع. وكى يحصل على الانتصار بأقل ثمن أراد أن يبقى الجزء الأكبر من قوة العدو وراء غزة، ويتم ذلك فى حالة بقاء تجمع القوات البريطانية أمرًا مجهولاً عند الأتراك. عندئذ ينظر العدو إلى الهجوم الجانبى على أنه تظاهر غير ذى بال. فوافق (بولز) على ذلك بإيماءة من رأسه.

وهكذا تمت التحركات كلها وراء ستار من الكتمان المطبق. غير أن (داونى) وجد فى قلم استخباراته حليفًا نصحه بألا يكتفى بالإجراءات الاحترازية السلبية، وبأن يعطى العدو معلومات دقيقة ولكن وهمية عن المخططات التى هى قيد الدرس، لتضليله.

لقد كان (ماينرتزاغن) حليفًا يبغض العدو إلى درجة قصوى. وقد استطاع أن يقنع (داونى) بصواب فكرته، ثم اقتنع بها اللنبى بعد شىء من التردد. ووافق عليها أخيرًا (بولز)، وانصرف الجميع إلى العمل السريع الدقيق.

وضع (ماينر تزاغن) بدقة متناهية المستندات العسكرية الوهمية اللازمة ثم عمد إلى إيقاعها فى أيدى العدو بأية وسيلة ونجح فى مهمته، ووقع الأتراك فى الفخ، وأبقوا الجزء الأكبر من قواتهم وراء غزة مولين انتباههم واستعداداتهم شطر الساحل.

ومن جهتنا على الجهة العربية كانت لدينا معلومات دقيقة كافية عن العدو. فضباطنا العرب كانوا جميعًا قد سبق لهم وخدموا فى الجيش التركى، ويعرفون كل ضباطه معرفة شخصية. تدربوا مثلهم على الفنون الحربية نفسها، وتعودوا أن يفكروا بالطريقة ذاتها وأن يتبنّوا وجهات النظر عينها. وهكذا من خلال ضباطنا كنا نسبر غور عقلية ضباط العدو فتحسب لهم. وأما العلاقات بيننا وبين العدو فقد كانت مستمرة لأن السكان

المدنيين فى المناطق التى يحتلها الأتراك كانوا جميعهم لنا دون أن يكلفنا ذلك درهمًا واحدًا. وهكذا فقد كان لدينا جهاز الاستعلامات الأوسع والأضمن والأكمل والأرخص.

كنا إذن أفضل من (اللنبى) ندرك فراغ العدو ووهنه، وسعة الموارد الإنجليزية وقوتها. وعلى العكس كنا من جهة الجيش البريطانى نسىء تقدير أهمية المدفعية وتعقيد تحركات المشاة والخيالة. وفى رأينا كان يكفى للجنرال «اللنبى» شهر واحد من الزمن كى يحتل القدس وحيفا أيضًا، وتشتيت العدو فى الجبال.

وعندئذ تحين ساعتنا، ويتوجب علينا أن يجدنا (اللنبى) على أتم الاستعداد للإجهاز على العدو فى الوقت الذى لا يكون فيه قد حسب حساب قواتنا. وفى نظرى كانت النقطة الأهم «درعًا» حيث تلتقى الخطوط الحديدية القدس حيفا - دمشق - المدينة المنورة، وحيث تتجمّع القوات التركية لتتوزّع فيما بعد على كل الجبهات الجنوبية. ولحسن حظنا فإن «درعا» المقصودة يقع لنا فيها احتياطى هائل من الرجال الذين تدربوا فى معسكرات فيصل فى العقبة وعادوا ينتظرون منا إشارة العمل. فقد كان لنا فى تلك المنطقة قبائل الرولا، والسراحين، والسردية، والقريشية، وقبل كل هؤلاء أهالى حوران وجبل الدروز، وهم أقوى بكثير من ابناء القبائل وأشد عزمًا.

ساءلت نفسى فترة من الوقت إذا كان علينا أن نحرك دفعة واحدة كل هؤلاء الأنصار، ونقطع دفعة واحدة كل مواصلات العدو. فعلى أقل تقدير كان يمكننا تجنيد ١٢ ألف رجل. وهذا لعمرى كاف لاحتلال «درعا» عن طريق المباغتة ثم لتخريب كل خطوط المواصلات وبالتالى الاستيلاء على دمشق. وواحدة من هذه النتائج البادية فى مخيلتى كانت تكفى لشل حركة العدو فى جهة بئر السبع وجعل بقائه هناك أمرًا من المستحيلات. ولذلك كانت الرغبة جامحة عندى للمقامرة بكل رصيدنا.

إلا أنه فى هذه المرة أيضًا - وهى لم تكن الأولى ولا الأخيرة - كلفتنى شخصيتى المزدوجة، إذ إننى فى خدمة سيدين، كلفتنى غاليًا وحدّت من حرية تصرفاتى. فقد كنت أحد ضباط «اللنبى» وتابعًا له ولذلك كان ينتظر منى أن أفعل جهدى من أجله. وكنت كذلك مستشارًا لفيصل. وكان فيصل يثق بإخلاصى وكفاءتى لدرجة أنه كثيرًا ما كان يعمل بمشورتى دون مناقشة. ومع ذلك لم يكن فى إمكانى أن أشرح للجنرال «اللنبى» كل

دقائق الوضع العربى. كما لم يكن فى استطاعتى أن أكشف لفيصل عن كل مخططات الإنكليز.

كان السكان المحليون ينتظرون مقدمنا على أحرّ من الجمر ويتوسلون إلينا لتقديم موعد ذلك. وكثيرًا ما كتب لنا الشيخ طلال الحريدينى سيد السهل المحيط بدرعا يعلمنا بأنه مستعد لأن يسلمنا درعًا إذا أرسلنا لمساعدته بضعة من الفرسان فقط وذلك كعربون منه لولائه لفيصل. إن مغامرة ناجحة كهذه من شأنها أن تخدم «اللنبى» كثيرًا. ولكن فيصل لا يمكنه الإقدام عليها إلا إذا امّن سيادته على المنطقة المحتلة. والاستيلاء المفاجئ على درعا ثم التقهقر أمام نجدات العدو معناه حصول مذبحة هائلة فى المنطقة يذهب ضحيتها الأهالى الآمنون.

ومن ناحية ثانية لا يمكن تحريك هؤلاء القوم ودفعهم إلى العمل المسلح إلا مرة واحدة. وجهدهم يجب أن يكون قاطعًا فيها. وبإثارتها الآن قد نقامر بأفضل ورقة يحتفظ بها فيصل لليوم الفاصل الحاسم، خاصة أننا لسنا متأكدين من نجاح «اللنبى» السريع فى فلسطين. وبعد تفكير طويل رأيت حرصًا على مصلحة العرب الذين أحببتهم أن أؤجل عملية المقامرة هذه إلى وقت آخر أكثر مناسبة.

●●●

(2)

لقد كانت حياة الحركة العربية مرهونة بمزاج «اللنبى». ولذلك كان من الضرورى القيام بعمل ما أقل من الثورة العامة وراء خطوط العدو. عمل يتم عن طريق غزو لا يسبب الأضرار للسكان المحليين. ولكنه يرضى مع ذلك القائد البريطانى بمساعدته عمليًا فى مطاردة العدو. وهكذا بعد البحث والتدقيق وجدت أن أفيد عمل يمكننا القيام به هو نسف أحد جسور وادى اليرموك الكبرى.

ففى وادى اليرموك كان يمرّ الخط الحديدى الذى يربط مدن فلسطين بدمشق ونظرًا لوعورة المسالك اضطر الخط أن يسير مع مجرى النهر ويتخطاه مرارًا فوق جسور

شاهقة كان بناؤها من الأعمال الشاقة. وعلى الأخص الجسرين القائمين عند الطرفين فى الشرق وفى الغرب.

ونسف واحد من هذين الجسرين كان يكفى لقطع كل اتصال بين الجيش التركى الموجود فى فلسطين وبين قاعدته الموجودة فى دمشق مدة خمسة عشر يومًا على الأقل. ويحرم ذلك الجيش من كل أمل من الفرار تخلصًا من وطأة جيش «اللنبى» الذى يشن عليه هجومًا عامًا. وكى نصل إلى اليرموك كان علينا أن نجتاز حوالى ٤٢٠ ميلاً مرورًا بالأزرق. وبما أن الأتراك كانوا يعتبرون الخطر بعيدًا عن تلك الجسور فقد خففوا الحراسة عليها.

عرضت إذن هذا المخطط على اللنبى فطلب إلىّ تنفيذه فى ٥ تشرين الثانى أو فى أحد الأيام الثلاثة التى تليه. فإذا نجحنا وناسبتنا الظروف يكون معنى ذلك انعدام أى أمل بالنجاة أمام جيش «فون كريس» والانسحاب حتى دمشق. وعندئذ ستتاح الفرصة أمام العرب لأن يشنوا ثورتهم العارمة ويحتلوا دمشق بعد أن تكون قد انشلت تحركات العدو كليًا.

لمواجهة كل الاحتمالات كان يلزم أن يكون لدينا فى الأزرق زعيم قادر على أن يجمع حوله السكان المحليين ويعدّهم للضربة القاضية. فى ذلك الوقت كان ناصر، رائدنا المعتاد، غائبًا. غير أنه من بنى صخر كان يوجد على بن الحسين، الشريف الحارث الذى أبلى بلاء حسنًا إلى جانب فيصل فى الساعات الصعبة حول المدينة المنورة، ثم أصبح فيما بعد ساعد «نيوكمب» الأيمن حول «العلا».

كان «على» هو الذى ضمّ إلى حركتنا قبيلة بنى صخر. كما أن أملنا فى بنى سرحان كان كبيرًا وهم أسياد الأزرق. بالطبع كان عرب الرولا خلال هذا الفصل فى مراعيهم الشتوية. وهذا أفقدنا أفضل ورقة فى أيدينا كان يمكن أن نلعبها فى حوران. وكان فايز الغصين قد ذهب إلى «اللجاه» لإعداد العدة لنسف الخط الحديدى فى منطقة حوران بمجرد استلام إشارة منا لذلك. وكنا قد خزّنا المتفجرات فى الأماكن اللازمة. وأما أصدقاؤنا فى دمشق فكانوا قد تلقوا تعليماتنا وباتوا على أهبة الاستعداد للعمل، وعمد

على رضا باشا الركابى حاكم دمشق العسكرى على عيون الأتراك ورأس العاملين لقضية فيصل فعلاً إلى اتخاذ كل ما يلزم للاحتفاظ بالسلطة عندما تحين الفرصة.

وتفاصيل خطتى كانت الانقضاض على أم قيس من الأزرق بقيادة رافع على رأس حفنة من الرجال لا تزيد على الخمسين. فالمدينة تشرف على الجسر الواقع فى الطرف الغربى من وادى اليرموك. وكانت الحراسة على ذلك الجسر مؤمنة من قبل ستة حراس لا أكثر، تشد أزرهم عند الحاجة حامية من خمسين جنديًا، تعسكر فى محطة «الحمة». وكنت آمل فى أن ينضم لنا فى غارتنا هذه بعض من قبيلة «أبى تايه» بقيادة (زعل). وذلك لأننى مع هؤلاء الشجعان أكون واثقًا من النجاح. وكى نحول دون وصول نجدات للعدو لابد من أن ننظف الجوار برشاشات، على يد فرقة من الهنود يقودها الجمادار حسن شاه وهو رجل صلب ومجرب. ومنذ عدة أشهر وهذه الفرقة تتولى قطع الخطوط الحديدية من جهة «الوجة» الأمر الذى جعلنا نوقن أن أفرادها قد أصبحوا هجانة بارعين.

وكانت عملية نسف جسور حديدية شاهقة بكميات محدودة من المتفجرات غاية فى الدقة وتتطلب سلسلة من الألغام مع جهاز تفجير كهربائى. فاستدعيت لذلك الضابط (وود) ليكون مساعدى فى هذه المغامرة المحفوفة بالمخاطر البالغة الأهمية.

كنا على وشك الانتهاء من استعداداتنا عندما برز حليف جديد غير منتظر هو الأمير عبد القادر الجزائرى حفيد البطل الذى يحمل الاسم نفسه والذى قاوم الفرنسيين بضراوة للدفاع عن الجزائر. لقد اختارت هذه العائلة مدينة دمشق مقرًا لها منذ جيل من الزمن على أثر نفيها من الجزائر، وكان لها مواقف مشرفة مع الوطنيين حتى أن جمال باشا شنق عمر، أحد ابنائها، على أثر معلومات كشفتها مستندات «بيكو». وقد روى لنا عبد القادر بالتفصيل كيفية هربه من «بروز» وعودته إلى دمشق بعد آلاف المغامرات عبر الأناضول. ويقال إن الأتراك قد عتقوه على أثر التماس مقدم من الخديو عباس حلمى الذى أوفده مفاوضًا إلى مكة. وبهذه الصفة كان عبد القادر قد قابل الشريف حسين وعاد محملاً بالهدايا.

تفانيًا فى سبيل العرب وهب عبد القادر فيصل اتباعه بأجسامهم وأرواحهم. وكان هؤلاء الأتباع منفيين يعيشون على الضفة الشمالية من وادى اليرموك. رقصنا طربًا لهذه المناسبة التى أتاحت لنا، هكذا دون مشقة، السيطرة على القسم الأوسط من الوادى وعلى القسم من الخط المار هناك. وبعد أن كنت قد طلبت إلى «رافع» موافاتنا إلى الأزرق عزفت عن ذلك كما استغنيت عن «زعل» ولم أفاتحه بالموضوع وقصرت كل جهدى العقلى والجسدى على وادى خالد وجسوره.

كنا نعد خطتنا فى هذا الاتجاه عندما وصلتنا برقية من الجنرال «بريمون»، تحذرنا من عبد القادر الجزائرى وتعلمنا بأنه جاسوس فى خدمة الأتراك. وقع علينا الخبر وقع الصاعقة، لأن من شأنه إذا كان صحيحًا أن يقضى على كل مخططاتنا، فقررنا مراقبة عبد القادر جيدًا، ولكن دون فائدة، ولم نستطع أن نضبط أى برهان ضده. فملنا إلى الاعتقاد بأن (بريمون) ألصق هذه التهمة بعبد القادر لأن الأخير لا ينفك يهاجم فرنسا فى كل مناسبة خاصة أو عامة بسبب احتلالها للجزائر.

دعا فيصل عبد القادر الجزائرى إلى مرافقتنا أنا وعلى، وأسرَّ الأمير فى أذنى: «أنا أعرف أنه مجنون ولكننى أعتقد أنه شريف. احفظوا رءوسكم واستخدموه»، فعملنا بنصيحة فيصل وقررنا أن نفيد من عبد القادر قدر المستطاع، غير أن تعصبه ومزاجه وتعذر تعايشه معنا، كل ذلك جعله يتخلى عنا فى منتصف الطريق ويذهب لا ندرى إلى أين؟!

●●●

(3)

كان الانطلاق صعبًا كالعادة، فأضفت إلى حراسى ستة بينهم محمود أحد مواليد وادى اليرموك، وهو شاب فى التاسعة عشرة من عمره، يشتعل حماسة.

وفى اليوم المقرر للسفر أكملنا باقى استعداداتنا. ثم تناولنا طعام العشاء وسرنا ليلاً. وكنا فى مرحلتنا الأولى نسير ببطء كما هى العادة دائمًا وكانت الجمال كالرجال ترفض الانسياق فى مغامرات جديدة.

استطال خط قافلتنا. وكان «وود» يسير فى المؤخرة، ورجالى المكلفون بإرشاد الفرقة الهندية سرعان ما رأوها تغيب عن أنظارهم. لأنها وحدها مع «ثورن» كانت قد قصرت عن المنعطف لجهة الشرق وسط الظلام الحالك الذى يخيم فوق وادى أثم. فتبع الإنجليزيان الطريق الرئيسية نحو قويرة. وبعد سير عدة ساعات قررا انتظار طلوع النهار وسط وادٍ جانبى. وأى منهما لم يكن يعرف المنطقة من قبل، كما كانا غير واثقين من العرب، لذلك تبادلا الحراسة فى تلك الليلة. ولما توقفنا عند منتصف الليل للاستراحة، ولم نجدهما معنا ساورتنا الشكوك والمخاوف بشأنهما. وقبل الفجر عاد أحمد وعزيز وعبد الرحمن بتكليف منا للبحث عنهما ونقلهما إلى وادى الرم.

بقيت مع لويد على رأس القافلة نقودها بين الحنايا والمنعطفات بين الوديان والتلال المؤدية إلى الرم. وقد أثبتت لنا التجربة أن الهنود مازالوا هجانين فاشلين. ولما وصلنا إلى وادى الرم الذى أكسبته أشعة الشمس أولوانًا بديعة وجدنا «وود» و«ثورن» هناك وقد عثر عليهما عبد الرحمن واقتادهما عبر طريق قصيرة مرهقة وكان «وود» مريضًا مستلقيًا مكان مخيمنا القديم. ويظهر أنه تألم كثيرًا من الجوع والحر والقلق. ورفض غاضبًا أن يأكل الطعام الذى استحصل عليه عبد الرحمن من خيمة بدو على حافة الطريق.

وفى اليوم التالى ركبنا مطايانا فإذا بعلى وعبد القادر يطلان علينا. ولما كانا يتخاصمان فقد عمدنا أنا ولويد إلى تناول الطعام ثانية معهما لأن واجبات الضيافة تقضى بوقف النزاع وتناسى الأحقاد. ولحسن الحظ كان لويد من ذاك الطراز من المسافرين القادرين على تناول أى طعام مع أى كان وكيف ما كان وفى أى وقت. وبعد ذلك حثثنا الخطى للحاق بالقافلة. فاجتزنا سهل القاع، ولحقنا بالقافلة فى وادى حفيرة حيث توقفنا وقضينا ليلتنا هناك.

فى صباح اليوم التالى صعدنا المنحدر المؤدى إلى «بترا»، وقبيل الظهر وصل الجميع إلى القمة سالمين دون أى حادث. ثم هبطنا بعد ذلك إلى واد مخضوضر، وتوقفنا لتناول الطعام.

* * *

توجهت إلى الشمال للاستكشاف، ومعى عواد شاب من بنى شرارة كنا قد ألحقناه فى خدمتنا فى وادى الرم بدون استقصاء. طفنا حول «أبو اللسن» للتأكد من أن الأتراك مستمرون فى بطالة لائقة. فقد كان من عادتهم فى الواقع لدى أول إنذار أن يسارعوا فى إرسال دوريات الخيالة إلى أنحاء «بترا» ولم أكن أرغب فى أن أجرّ رجالى إلى معركة عديمة الفائدة. كان «عواد» فى الثامنة عشرة من عمره سليم البنية خيالاً بارعًا، صمم لحسن معاملتى له على أن يتفانى فى إرضائى. وإرضائى فى هذا الظرف كان يعنى السير فى طريق معان المكشوفة للفت نظر الأتراك. وما إن وقع نظرهم علينا حتى هبوا لمطاردتنا فيما قفلنا نحن عائدين، الأمر الذى اضطرّهم لأن يرسلوا فرقة البغالين تشد فى أثرنا إلى جهة الشمال بالاتجاه المضاد للخطر. وقد برع «عواد» فى تأدية هذه المهمة على خير ما يرام.

تسلّقت وإياه بعد ذلك قمة جبل مشرف إلى «بترا» والأودية المؤدية إلى «أبو اللسن» وبقينا حيث نحن، حتى بعد الظهر نراقب الأتراك وهم يبحثون عبثًا عنا ويشقون فى تلك الأرض الوعرة فيما كان رفاقنا ينعمون بساعة القيلولة وجمالنا تمرح فى المراعى الخضراء. وعندما رأينا قافلتنا تتقدم عبر ممر ضيق وعلى رأسها على سارعنا إلى ملاقاتها. وفور وصولى أخبرنى على بأنه قد تخاصم من جديد مع عبد القادر وبات يتمنى الخلاص منه ومن رفقته المزعجة. وأما عبد القادر الذى كان لا يعرف شيئًا عن الطريق فقد رفض بإصرار أن يشكل معنا أنا ولويد قافلة خاصة على سبيل الاحتراز.

تابعنا سيرنا إلى الأمام، على أمل أن يلحق بنا عبد القادر فى المساء. وبما أنه لم يكن معه دليل فقد أعرته «عواد» واتفقنا على أن نلتقى فى مخيم «عودة». اجتزنا فى ذلك النهار عددًا من الوديان والتلال. ومن على قمة التلة الأخيرة أشرفنا على محطة غدير الحاج المعزولة والوحيدة وسط سهل فسيح. كان الوادى وراءنا محجوبًا وراء ستار كثيف من الضباب فقررنا أن نبقى حيث نحن. وأوقدنا نارًا فى ذلك المساء. وقد خطر لحسن شاه أن يقدم إلينا بعد العشاء كوبًا من الشاى الهندى فرجوناه أن يفعل الشىء نفسه فى كل مساء.

بعد العشاء انصرفت مع لويد إلى تحديد اتجاه النقطة التى سنعبر الخط الحديدى منها بالقرب من «شدية». كانت النجوم متلألئة فى تلك الليلة، فاتفقنا على أن نعتمد على الجوزاء فى تحديد اتجاهنا. وعلى الأثر شددنا رحالنا وسرنا ساعات طويلة من السهل الفسيح.

تقدمنا عن القافلة أنا ولويد فى محاولة للعثور على الخط الحديدى تحاشيًا لحصول المحظور والاصطدام بدورية تركية. كانت مطايانا تسرع الخطى فى تلك الليلة المنعشة. ومن غير أن ندرى سبقنا بمسافات الفرقة الهندية التى لم تحسن مماشاتنا. فعمد قائدها حسن شاه إلى إرسال الكشاف تلو الآخر من رجاله، حتى لا يفقد أثرنا. وأصبحت فرقته فى النهاية مجرد سلسلة متصلة الحلقات من الكشافين فاضطر لأن يرسل من يقول لنا بوجوب تخفيف السير.

توقفنا وسط ذلك الليل الهادئ الذى لا يعكره سوى جلبة قافلتنا. وبعد أن نلنا قسطًا من الراحة عاودنا المسير ببطء هذه المرة رفقًا بالهنود، وامتد بنا الوقت وكذلك السهل، كأنه أبى أن يكون أقصر من الليل. عند ذلك راودنا الشك بأننا قد ضللنا الطريق فسارعنا إلى البحث عن بوصلة كانت موجودة بين حاجيات «لويد». وبعد أن صححنا اتجاهنا بواسطة إبرتها عاودنا المسير. وفجأة توقف «لويد» ليقول لنا إن انظروا إلى الأمام، ففى الأفق قبالتنا تمامًا كانت تقوم محطة «شدية» التى كدنا نصل إليها.

بسرعة أدرنا رءوس مطايانا إلى اليمين وسارعنا إلى الابتعاد يلفنا ستار الليل. ثم شكرنا الرب على خلاصنا بسلام ورحنا نتحسّس طريقنا من جديد. وبعد أن عثرنا على الخط الحديدى الذى تبين لنا بعد الاستكشاف أنه كان خاويًا، فاجتزناه بأقصى ما يمكن من السرعة وتوغلنا فى الصحراء إلى جهة الشرق. وقبل أن نغيب عن الخط أبى «ثورن» إلا أن يتسلق أحد أعمدة أسلاك البرق ويقطع الأسلاك. وبعد مسيرة ساعة أخرى أصدرنا أوامر التوقف ريثما ينبلج الفجر.

طلعت علينا شمس صباح اليوم التالى، ونحن فى الطريق من جديد بمحاذاة الخط كى نلقى تحية الصباح على أول قطار قادم من «معان» ثم ولجنا إلى سهل (الجافور)،

فيما كانت حرارة الشمس تزداد حدة. وعند الظهر وصلنا إلى مخيم (عودة) الكائن إلى شمال غربى البئر فوجدنا أتباعه من الطوايخة يتنازعون ويتخاصمون بسبب تقسيم الغنائم.

بذلت جهدى لكى أضع حدًا لهذا الخصام. وبعد توفيقى فى ذلك توجهت إلى خيمة محمد الضغلان لتناول الطعام معه. وبعد الغداء عرضت على «زعل» مشروع غارتنا على جسور اليرموك فلم تعجبه الفكرة. ومن الحديث معه تبين لى أن «زعل» تشرين يختلف كل الاختلاف عن «زعل» آب. وذلك لأن النجاح كان قد حول فارس الربيع الشجاع والمقدام إلى رجل شديد الحذر. وثراؤه الجديد جعل الحياة غالية عنده. وفى الربيع كان يقودنى إلى أى مكان، ولكن الغارة الأخيرة قد وضعت أعصابه فى التجربة. ولذلك بات يعلن الآن بأنه لن يقوم بأى عمل إلا إذا كان ذلك يهمنى شخصيًا.

طلبت منه على الأثر أن يرشدنى إلى كيفية تأليف فريقنا الجديد، فأشار على بثلاثة من الطوايخة يصلحون حسب رأيه للقيام بمهمة بائسة كهذه. غير أن قبول هؤلاء ما كان ليفيد فى شىء، بل على العكس سيضر لأن عجرفتهم ستغير الآخرين، ولن يتمكنوا وحدهم من القيام بالمهمة الصعبة. فأجبته بأننى أفضل البحث عن رجال فى مكان آخر، الأمر الذى جعل «زعل» يتنفس الصعداء.

كنا لانزال نتناقش مع «زعل» «الذى أثق به كل الثقة» فى أمر مشروعى غير المكتمل عندما دخل علينا شاب لاهث معلنًا أن فرقة من الخيالة الأتراك قادمة من جهة معان تتجه نحونا على جناح السرعة مخلفة وراءها ستارًا متعاليًا من الغبار. لقد كان عند الأتراك فى تلك الناحية فرقتان من الخيالة والبغالة اعتادتا أن تزورا قبيلة أبى تايه، من يوم لآخر. فهب الجميع لاستقبال القادمين.

كان على «لويد» أن يسافر إلى فرساى للاشتراك فى محادثات دولية هناك. فكلفنا «عودة» بأن يرافقه على ناقتى الشهيرة «غزالة» ويؤمن له اجتياز الخط الحديدى فى طريق عودته بسلام. ورؤية لويد يسافر ويتركنا كانت فى الواقع أمرًا محزنًا لأنه كان

يفهمنا ويساعدنا بكل ما لديه من حكمة وحنكة ويتمنى لنا صادقًا نجاح مهمتنا وقضيتنا. وقد كان لويد فضلاً عن ذلك الرجل الوحيد المثقف ثقافة كاملة فى الجزيرة العربية آنذاك. فأتاحت لى رفقته أن أعود إلى جو الحرب والقبائل والجمال، والنياق...

وأصدق دليل على ذلك أن ليلتنا تلك بدأت فى محاولة يائسة لإصلاح ذات البين بين الحويطات المتخاصمين.. وقد هدرت ساعات طويلة وأنا أحاول عبثًا تضييق شقة الخلاف، لأن جماعة أبى تايه كانوا معروفين بعنادهم وتصلبهم، كما كانت حرارة الحماسة قد خبت عندهم، بعد أن طالت مدة خدمتهم لقضية الثورة العربية.

شيئًا فشيئًا مع ذلك اقتربت من النجاح غير أن المناقشة كانت لا تزال مستمرة قبيل منتصف الليل عندما رفع «عودة» عصاه طالبًا السكوت. فسكت الجميع وهم يتساءلون عن موطن الخطر. ولكن ما هى إلا لحظات حتى تهادت إلى أسماعنا أصوات قصف بعيدة قال عنها «عودة» إنها أصوات قصف مدفعية اللنبى فى فلسطين. وكان هذا الخبر كافيًا لفضّ مناقشاتنا ومنازعات عرب الحويطات.

فى صباح اليوم التالى كان جو المخيم صافيًا هادئًا. ولدى وداعنا «للويد» و«عودة»، ضمّنى الأخير إليه بكل قوته، وأسرّ فى أذنى الكلمات التالية: «احذروا القادر». تابعنا سيرنا بعد ذلك فى وادى «الجافور» الذى بدا كأنه لا نهاية له ولكنه غاية فى الروعة والجمال. وهبط الليل علينا ونحن عند أسفل حاجز صخرى يقوم كالحائط فوق السهل فحططنا رحالنا وسط مكان منخفض تكثر فيه الأفاعى. كانت مراحل سيرنا فى هذه المرة قصيرة بطيئة رفقًا بالهنود الذين معنا، وكنا نقطع ٣٥ ميلاً فى اليوم فقط.

وكانت الأيام تتوالى علينا وكأننا فى نزهة مرتاحى البال نفسانيًا وجسديًا. وفى أحد الأيام توقفنا لتناول طعام الفطور، فإذا بنا نسمع إنذارًا من حراسنا. فقد أقدم علينا فرسان وهجانة من جهتى الغرب والشمال، وهم فى طريقهم إلى تطويقنا، وفى الحال هب الجميع إلى أسلحتهم واتخاذ مواضعهم الدفاعية، وفيما يشير الشريف على علينا بأن نطلق النار فقط بعد أن نتأكد من فائدة ذلك قفز عوّاد ضاحكًا واتجه نحو العدو

ملوحًا بطرف كمه الواسع فوق رأسه علامة الصداقة. أطلق العدو على «عواد» وأخطأه فرد هذا بالمثل وأطلق عيارًا ناريًا كاد يلمس رأس أول الفرسان القادمين تحذيرًا من الاستمرار فى إطلاق النار. على الأثر تجمع القادمون وبعد مداولة قصيرة حركوا عباءتهم جوابًا على إشارتنا الصديقة، وبدوا كأنهم يفعلون ذلك مرغمين.

ترجل واحد منهم بعد ذلك وتقدم نحونا فلاقاه «عواد» بحراسة بنادقنا. وكان ذلك الرجل واحدًا من بين صخر أصابه الذهول لدى معرفة من نكون. وعندئذ تقدمنا جميعنا بقيادة الشريف على وكذلك فعل المهاجمون. وتبين أن الحادث كان مجرد عملية غزو يقوم بها بنو زين من صخر المقيمون قبالتنا فى وادى باير.

وبعد أن نال الغزاة قسطهم من التأنيب القاسى من فم الشريف على أوفدناهم إلى باير ليعلنوا عن مقدمنا. وتبديدًا لهذه الغيمة رأى سيدهم مفلح أنه من الأنسب أن يقوم ورجاله بعرض أمامنا لتأكيد صداقهم وولائهم. وتخلل ذلك ألعاب فروسية وإطلاق عيارات نارية فى الفضاء وأهازيج وأدعية بالنصر والتوفيق والتحية لعلى بن الحسين و(لاورانز) بطل الحركة، الأمر الذى أثار حسد عبد القادر الجزائرى وجعله يمتطى فرسه ويبدأ مع حراسه السبعة فى إطلاق النار بطريقة مجنونة استفزت البدو، وكادت تؤدى إلى معركة كان الجميع فى غنى عنها.

وضعنا رحالنا بالقرب من الخرائب فيما كانت خيام بنى صخر السوداء منثورة فى الوادى أمامنا كأنها قطيع من الماعز. وبعد ذلك جاءنا رسول يدعونا إلى موافاة مفلح فى خيمته. غير أن على كان عليه أن يقوم بتحقيق قبل قبول دعوة مفلح. ففيصل كان قد أرسل منذ عدة أشهر على أثر التماس قدمه بنو صخر فرقة من البنائين لإصلاح ما هدمته متفجرات الأتراك من آبار وادى باير. وحتى الآن لم ينته العمل الأمر الذى استوجب إجراء هذا التحقيق لمعرفة سبب التأخير.

فى تلك الليلة أعد مفلح لنا عشاء فاخرًا لنا عشاء فاخرًا حقًا وأظهر كرمًا لا مثيل له عند غير العرب، فأكل الجميع حتى شبعوا. وبعد العشاء جلسنا أمام الخيمة المشرفة

على الوادى نستمع من وقت لآخر وسط هدوء الليل إلى قصف مدفعية اللنبى فى فلسطين.

أثناء جلستنا تلك عرضنا على مفلح أن يرافقنا مع خمسة عشر من رجاله فى غارة نقوم بها فى منطقة درعا. ولم نفصح عن الهدف المباشر لغارتنا بعد الفشل الذى أصابنا، بسبب ذلك، عند الحويطات. على كل حال لم يخب مفلح أملنا بل قبل العرض شاكرًا ووعد بأن يختار لمرافقته أفضل خمسة عشر محاربًا من قبيلته مع ابنه تركى صديق الشريف على بن الحسين الحميم ورفيق فتوته.

كان الليل قد سلخ ساعاته الأولى عندما تركت قافلتنا وادى باير مزودة بكامل حاجتها من الماء. أما نحن القادة فقد تأخرنا عن القافلة بعض الوقت ريثما ينهى بنو صخر استعداداتهم ويزور سيدهم مفلح قبر «أسد» جد العائلة.

بعد ذلك سلكنا طريقًا قديمة قادتنا عبر المنحدر إلى حيث يخيم الآخرون فى لحف قمة خارج وادى باير. ولكننا فى تلك الليلة لم نشرب القهوة ولم نتجاذب أطراف الحديث بل نمنا على صوت مدافع «اللنبى» تدك المواقع فى جهة فلسطين.

وفى اليوم التالى مررنا شمالى (ثلاث أخوات) التى تعتبر لبياض قممها وسيلة هداية فى المنطقة. وعند الغروب خيّمنا عند أحد روافد وادى (جيشا) بالقرب من بعض شجيرات نابتة هناك. فى تلك الليلة كانت أصوات المدافع تسمع بجلاء وقوة الأمر الذى حمل الأعراب على التمتمة أنهم أقرب الآن. الإنجليز يتقدمون كان الله فى عون البشرية ليخلصهم من هذا النوع من الأمطار. كان الأعراب يشفقون على الأتراك مستعبديهم الضعفاء لمدة طويلة من هذا المصير. وبسبب هذا الضعف نفسه كانوا لا يازلون يفضلون الأتراك (رغم ظلمهم وطغيانهم) على الأجنبى القوى وعدالته العمياء التى لا تعرف كيف تميز.

عاودنا المسير باكرًا على أمل الوصول قبل غروب الشمس إلى عمّارة. كانت كثبان الرمال تتتابع على مدى النظر وكانت الأودية قليلة العمق مغطاة بالأعشاب، وتؤدى كلها إلى وادى السرحان.

قبل الظهر أطلت علينا من وراء الكثبان قافلة من الجمال تجرى مسرعة نحونا، فسارع تركى على ناقته السريعة يستطلع الخبر بينما كانت القافلة لاتزال يفصلها عنا ميل من المسافة وهتف مفلح: آه هذا فؤاد على متن نقرائه يتقدم القافلة. إنهم حلفاؤنا وقد كانوا كذلك بالفعل. ففهد وأدهب من مشايخ بنى صخر كانا يخيمان مع رجالهما بالقرب من (زيزا) غربى الخط الحديدى عندما حمل إليهم خبر حملتنا فهبّا يحاولان اللحاق بنا قبل فوات الأوان... ولما أدركانا أنّبنى فهد بلباقة قائلاً: «هل تعتقد أنه يمكنك المرور فى منطقتنا سعيًا وراء المغامرة وأبناء أبيه يتظللون تحت خيامهم؟!».

كان فهد رجلا كئيبًا قليل الكلام رخيم الصوت، فى الثلاثين من عمره شاحب الوجه، غائر النظرات. وأما أدهب، أخوه الأصغر، فقد كان أكبر منه جثة وأكثر حيوية وأقل اعتناء بنفسه وهندامه وكان كل من الأخوين محاربًا مشهورًا بشجاعته.

وفى عمّارة هبّت علينا عاصفة هوجاء قارسة البرد، غطت مياه الآبار بالغبار فحرمتنا من لذة الشرب. وعند انبلاج نور النهار خفّت حدة العاصفة وهدأت الرياح فمشينا نحو بلدة الأزرق التى مازال يفصلها عنا نصف مرحلة. ولكن ما إن خرجنا من منطقة الآبار حتى فاجأنا كشافنا بإنذار جديد. فقد وقع نظرهم على عدد من الفرسان يختبئون بين الصبير. وكانت هذه المنطقة فردوسًا لعمليات الغزو. فتجمعنا فى المكان الأفضل للدفاع ثم وزعنا القوة بطريقة جعلت العدو يخرج من مخبئه بعد طلقات معدودات ويلوح لنا طالبًا الصلح. فتبين لنا بعد ذلك أنهم قبيلة السرحان، فى طريقهم إلى قسم يمين الولاء لفيصل. وبعد أن عرفوا من نحن عزفوا عن ذلك وقرروا الانضمام إلينا ثم حملونا إلى الذهاب معهم على عين البيضاء حيث تخيم قبيلتهم. وهناك جرى لنا استقبال حافل.

وزعنا مشايخ القبيلة على خيامهم تدليلاً على احتفائهم اللائق بنا. وكنا أنا وعلى وعبد القادر، و«وود» قد رسونا على «مطير» الذى أبدى كرمًا زائدًا فى تقديمه أفضل ما عنده من طعام لنا. وبعد العشاء أرسلنا فى طلب «مفلح بن بانى» الذى يقود رجالهم فى المعارك وعرضنا عليه حاجات فيصل والعمل اللازم لأجله ثم كشفنا عن المخطط الذى نوى تنفيذه.

أصغى إلينا السراحون جيدًا. ثم قالوا لنا إن نسف الجسر الغربى يكاد يكون من المستحيلات بعد أن ملأ الأتراك المنطقة المحيطة بمئات الحطابين العسكريين. وعملية غزو هناك لا يمكنها أن تمر دون أن يحسوا بوجودها. يضاف إلى ذلك عدم ثقتهم بجماعة عبد القاد المقيمين هناك فى الجوار. وأما فى تل الشهاب حيث يقع الجسر الأقرب إليهم فكانوا يخافون غدر القبائل المناوئة لهم من الخلف. هذا عدا تعذر المسير فى سهل «رمث» الموحل إذا أمطرت السماء.

هذه المحاذير سببت لنا الكثير من القلق، فبنو سرحان كانوا آخر ورقة فى يدنا، ورفضهم مؤازرتنا فى تنفيذ مهمتنا يعنى تعذر تنفيذ مخطط «اللنبى» فى الوقت المناسب. ولذلك قرر على أن يقوم بمحاولة أخيرة، فدعا مشايخ بنى سرحان إلى اجتماع عقد حول نارنا بحضور فهد ومفلح وأدهب. وعرضنا عليهم مخططنا بجلاء هذه المرة ومن زاويتهم الخاصة. وقد وفقنا إلى اقناعهم بمرافقتنا مهما كانت المحاذير. ولذلك نادينا عبد القادر قبيل الفجر وأبلغناه بأن السراحين سيرافقوننا وسيكونون تحت إمرته ليقودهم مع شروق الشمس إلى وادى خالد. تمددنا منهوكى القوى طلبًا لقسط من الراحة فترة من الوقت. ثم عمدنا إلى استعراض هجانة بنى سرحان. وكان أكثر ما اقلقنا كونهم يفتقرون إلى قائد حقيقى يقودهم فى المعركة. «فمطير» كان قد تقدمت به السنون و«بن بانى» تدفعه أطماعه إلى السياسة أكثر منها إلى الحرب. ولكن لم يكن فى اليد حيلة، ولم يكن بد من الرضا بالواقع. وفى الساعة الثالثة من بعد الظهر توجهنا جميعنا إلى الأزرق.

لم يكن الشريف على قد رأى الأزرق قبلا فتسلقنا القمة المحجوجرة مستعيدين ذكرى حروب الملوك الرعاة الأول وأغانيهم وقصص حبهم. ثم حملنا الخيال إلى التحدث عن الجحافل الرومانية التى ذرعت هذه الأماكن فى سالف الأزمان. وفجأة من القمة بدت لناظرنا القلعة الزرقاء القائمة فوق أكمة صخرية عالية ومن حولها فى الأسفل بساتين النخيل وينابيع المياه العذبة الرقراقة والمروج الخضراء.

بعد وقفة استطلاع هزّ على عنان بعيره فراح يهبط بحذر المنحدر الصخرى البازلتى حتى المرج الأغن بالقرب من الينابيع حيث سارع إلى الارتماء على العشب الذى قد اكتحلت به عينا ساكن الصحراء.

وعندما عدنا إلى أعمالنا لم نعثر لعبد القادر الجزائرى على أثر لا فى القصر، ولا بين البساتين والمروج وأخيرًا أرسلنا بعض الرجال للبحث عنه فعادوا ليقولوا لنا إن بعض الرعاة العرب شاهدوه يتجه شمالاً نحو جبل الدروز. لم يكن الرجال يعرفون شيئًا عن مخططنا وكانوا يبغضون عبدالقادر لذلك اغتبطوا بذهابه عنا، وأما نحن فقد وقع علينا الخبر وقوع الصاعقة.

من النقاط الثلاث التى كان من الممكن أن نهاجم فيها: أم قيس، كانت قد أسقطت. وبدون عبدالقادر الجزائرى كان وادى خالد محرمًا علينا، ولذلك لم يبق أمامنا سوى جسر تل الشهاب. وللوصول إليه كان علينا أن نجتاز مكشوفين السهل الواقع بين الرمثال ودرعا فى وقت تخلى فيه عبدالقادر عنا، وتوجه إلى مقر العدو لإعلامه بنوايانا ومخططاتنا. وبعد المداولة فى وضعنا الذى بات فى غاية الحرج قررنا أن نستمر فى تنفيذ مخططنا مهما كانت الظروف.

وفى صباح الغد شددنا رحالنا عبر وادٍ كثير الحصى ثم اجتزنا قمة وهبطنا فى وادى الحارث الذى كان العشب الأخضر يكسو مجراه. وتوقفنا لتناول طعام الفطور ولما طابت لنا الإقامة هناك بين الماء والخضراء أرسلنا أدهب وأحمد لصيد الغزلان فعادوا بثلاث غزلان أتاحت لنا فرصة إقامة وليمة عامرة باللحوم.

قطعنا فى مرحلتنا الثانية أميالا عديدة فى أراض غنية بالمراعى والمروج. وفى أبى صوانة عثرنا على حفرة مليئة بمياه المطر العذبة فقررنا أن نتخذ هذا المكان نقطة انطلاقنا للإغارة على الجسور. وفى الغد تزودنا بالماء اللازم للشرب وعاودنا المسير. كانت الصحراء فى تلك المنطقة تنتهى بمنخفض قليل العمق عند طرف سهل شاسع مزروع يمتد مستويًا حتى الخط الحديدى على مسافة عدة أميال، فاضطررنا لأن ننتظر

الغسق كى نجتاز الخط الحديدى. وكنا نعتقد بقدرتنا على الوصول إلى سفوح التلال القريبة من درعا فى الجانب الآخر من الخط الحديدى. وبالفعل توقفنا إلى ذلك، ثم توقفنا للاستراحة وتناول الطعام فى غدير الأبيض. قضينا تلك الليلة هناك، وكذلك نهار الغد لأن تحركاتنا فى النهار كانت محفوفة بالمخاطر. ولصعوبة الانتظار وجدنا ذلك النهار كأنه لا نهاية له. وبعد غروب الشمس كان يتوجب علينا التسلل إلى تلك الشهاب، ونسف الجسر هناك، ثم العودة إلى شرقى الخط الحديدى قبل طلوع الفجر. وهذا يعنى أننا سنقطع على الأقل ١٣٠ ميلاً، على متن الجمال خلال ساعات الليل الثلاث عشرة إلى جانب عملية النسف الدقيقة التى قد تتطلب منا وقتًا طويلاً. يضاف إلى ذلك أن فرقة الهنود التى معنا من المستحيل عليها مجاراتنا فى هذا العمل القاسى.

وهكذا وجدنا أنفسنا ملزمين أن نختار أفضل ستة خيالة من بين الهنود، ونعهد إليهم بأفضل مطايانا، ونكلفهم بقيادة حسن شاه أن يشكلوا قوتنا الهجومية. وأما بنو سرحان فقد عهدنا إليها لعدم ثقتنا بهم، بحراسة الجمال ونقل المتفجرات حتى الجسر. بينما شكل بنو صخر فريق الإغارة لثقتنا التامة بهم ولعلمنا بأنهم جنود بواسل.

* * *

كانت الشمس ترسل على المكان آخر أشعتها عندما تفرقنا. فسار فريقنا نحو القمة بخطى متثاقلة كأنه خروف يقاد مرغمًا إلى المسلخ. وبعد أن لفنا الظلام بوشاحه تقدمنا إلى الغرب عبر سلسلة من التلال والمنحدرات وأطللنا أخيرًا على الطريق. وكانت هذه الطريق نفسها هى التى رافقنى العرب فى اجتيازها لدى قدومنا إلى رابغ أول يوم لى فى الجزيرة العربية. ومنذ ذلك اليوم قبل اثنى عشر شهرًا، ونحن نكافح ونحارب لبسط سيطرتنا على الأميال المائتين بعد الألف. وكان لا يزال علينا الكثير للوصول إلى دمشق، نقطة الانطلاق ونهاية مطاف سفرنا المسلح.

ولكننا فى تلك الليلة كنا خائفين وكانت أعصابنا متوترة بسبب هرب عبدالقادر الخائن الوحيد لتجربتنا. إلا أنه كان عندنا، رغم ذلك أمل كبير فى النجاح، فقررنا ألا نهدره عبثًا.

كان مفلح الجمعان يسير فى المقدمة ونحن نتبعه فى هبوط المنحدرات واجتياز الممرات وتسلق المرتفعات يلفنا ظلام الليل. وتحدونا الرغبة فى إتمام العمل بأسرع ما يمكن، الأمر الذى جعلنا نسير بحذر شديد. وكانت إلى الشمال منا تتلألأ أنوار محطة درعا. هذه الأنوار التى ستخبو مع الفجر، حسب تقديرنا وتبقى كذلك مدة سنة من الزمن حتى نعيد نحن اضاءتها بعد سقوطها فى أيدينا. تابعنا سيرنا وسط الأراضى المحروثة فى سهل الرمثا، وبدأنا حوالى الساعة التاسعة نهبط المنحدر المؤدى إلى وادى اليرموك، حيث بدأ يتهادى إلى سمعنا صوت شلالات المياه تحت تل الشهاب. ولما اقتربنا من المكان ترجلنا بحذر كلى ثم عقدنا اجتماعًا عاجلاً لتوزيع المهام النهائية، وكان الليل قد بدأ يشحب أمام دبيب الفجر. وبعد أن وزعت أكياس المتفجرات على الرجال المولجين بنقلها تقدمنا نحو الجسر وراء كشافينا من بنى صخر. وفيما نحن نتقدم الجسر مرّ قطار قادم من الجليل كان ينقل أسرى إلى آسيا الصغرى. وبدا الجسر لنا أسود فى ذلك الليل، كما كان كل شىء هادئًا فى خيمة الحرس التى أرشدنا إلى مكانها النور المضاء أمامها.

كان «وود» الذى سيحل محلى فى نسف الجسر إذا أصابنى مكروه يُعدّ الهنود فى أماكن يستطيعون منها صب نيرانهم على العدو لتغطية انسحابنا. وأما على وفهد ومفلح وباقى الفرقة مع بنى صخر وحاملو المتفجرات فقد تقدموا حتى الخط الحديدى عند المنعطف الذى يسبق مدخل الجسر. وهناك توقف الجميع لأتقدم أنا وفهد وحدنا فتسللنا حتى الركائز الحجرية التى يستند إليها الجسر، ثم زحفنا على بطوننا فى ظل الخطوط وكدنا نصل إلى حيث العوارض الحديدية المعلقة. ومن هناك بات من الممكن علينا رؤية الحارس التركى الوحيد يستند إلى الركائز الحجرية المقابلة على مسافة ٦٠ مترًا منا. وفيما نحن ننظر إليه بدا الحارس يروح ويجىء يتثاقل أمام ناره دون أن تطأ قدمه الجسر الشاهق. تسمّر نظرى بذلك الحارس فبقيت منبطحًا أنظر إليه، وكأن لا فكر لى ولا إرادة بينما عاد فهد زحفًا على بطنه إلى النقطة التى تبدأ عندها ركيزة الجسر فى لحف التلة.

ما هو النفع من ذلك؟ فأنا أريد أن أنسف العوارض الحديدية نفسها، ولذلك عدت للبحث عن حملة المتفجرات. وقبل أن أصل إليهم تهادى إلى سمعى قرقعة بندقية تتدحرج من عل، قد أفلتت من يد أحد رجالنا. فذعر الحارس وأجال نظره فى المكان ليلمح على رأس التلة، فى ضوء القمر هنودًا يغيرون مكانهم للاختباء فى الظل. وعلى الأثر انتهر الأشباح وبدأ فى إطلاق النار وهو يصرخ برفاقه لإيقاظهم.

وما هى إلا لحظات حتى بدأت البلبلة فأخذ بنو صخر المتحصنون وراء الصخور يطلقون النار جزافًا والأتراك يسارعون إلى خنادقهم ويصوبون على منطلق نيراننا. والهنود يردون برشاشاتهم، والسراحون حملة المتفجرات يلقون بها فى الوادى ويفرون. وبقينا أنا وفهد وراء الركائز بعيدين عن أنظار العدو ولكن بدون سلاح، ثم جاءنا على وأخبرنا بمصير المتفجرات. وبما أنه كان من المتعذر علينا البقاء حيث نحن أو الذهاب للبحث عن المتفجرات تحت هذا الوابل من الرصاص الطائش فقد انسحبنا إلى الهضبة حيث كان ينتظرة «وود» وفرقته الهندية. وبادرته بالقول إن كل شىء قد انتهى. وفى الحال أسرع الجميع إلى مطاياهم وابتعدنا بأسرع ما يمكن فيما كان الأتراك لا يزالون يطلقون النار بلا هوادة. وفى هذه الاثناء، استفاقت قرية «طُرّة» على صوت الرصاص، وأضاءت أنوارها ثم تبعتها القرى الأخرى القريبة من الوادى وعلت الجلبة فى كل مكان. ثم شيئًا فشيئًا ابتعدنا ولم نعد نسمع صوتًا. وعند الفجر كنا قد وصلنا إلى الخط الحديدى فعمد «وود» وعلى وبعض كشافتنا إلى تقطيع أسلاك البرق، ريثما يتم مرور القافلة. وفى الليلة السابقة كنا قد اجتزنا هذا الخط على أمل نسف جسر تل شهاب وقطع كل اتصال بين فلسطين ودمشق، وها نحن الليلة بعد كل الجهود العقيمة نكتفى بقطع أسلاك البرق بين المدينة ودمشق. فى هذا الوقت كانت مدافع «اللنبى» لا تزال تدوّى وكأنها تعمدت تذكيرنا بالفشل الذريع الذى منينا به، وهكذا عدنا إلى «أبى صوانة» نجر ذيول الخيبة والغضب من أنفسنا وحماقتنا.

* * *

بلغنا «أبى صوانة» مع غروب الشمس، وبتنا تلك الليلة منهوكى القوى شاردى الأفكار. وفى الصباح استعدنا رشدنا ووجدنا أن الطعام سيصبح شغلنا الشاغل، وقد نفد ما حملناه معنا من الأزرق، وبما أنه كان لا يمكننا العودة خالين الوفاض فقد طلب بنو صخر مغامرة جديدة تعوض عن السابقة. ولما كان لايزال معنا حوالى ٣٠ ليبرة من المتفجرات فقد اقترح «على» نزولا عند طلبهم أن ننسف أحد القطارات القادمة من معان. سرَّ الجميع لهذا الاقتراح، وتسمرت العيون على طالبة الجواب، ولكن لم يكن فى امكانى مقاسمتهم هذا الرأى بالسهولة التى يريدون.

وبعد أن قلبت الأمر على جميع وجوهه نزلت عند إلحاح على وبنى صخر وقبلت القيام بهذه المغامرة، فهلل الرجال للقرار فرحين وقضينا ليلتنا تلك تدغدغ أفكارنا الغنائم المقبلة غير مكترثين بالجوع الذى ينهش بطوننا، ولا بالبرد والمطر اللذين يقضان مضاجعنا.

عند الفجر أرسلنا الهنود والأعراب غير الصالحين للمهمة إلى الأزرق. وكى أهون عليهم وقع الفشل، أرسلت (وود) معهم.

وأما الباقون وعددهم ستون رجلا فقد اتجهوا معى نحو الخط الحديدى، ومنهم من لم يكن يعرف المنطقة، فتوليت قيادتهم إلى (منفطير) المكان الأفضل من عدة نواح. مركز مراقبة، مخيم مرعى.. بقينا هناك حتى غروب الشمس وعيوننا مسمَّرة على السهل الممتد أمامنا حتى قمم جبل الدروز المكللة بالثلوج.

ومع الغسق هبطنا كى نضع اللغم عند الكيلومتر رقم ١٧٢ الذى بدا لى أفضل نقطة لذلك. ولكن ما كدنا نصل إلى المكان المقصود حتى قدم نحونا قطار من الشمال اضطرنا إلى الاختباء ريثما يمر. وبعد ذلك وضعنا اللغم تحت (عبّارة) من أربعة أمتار ثم أخفينا السلك الكهربائى وطوله ستون مترًا وسط الوادى الصغير.

بسبب الوحل أخذ العمل منا وقتًا طويلاً ولم ننته منه إلا مع انبلاج الفجر. وفيما كنت أحاول إزالة أثر عملنا أومأ لى حراسنا بأن أول دورية تركية تقترب. فاختبأت فى مكان هناك لتعذر وصولى إلى حيث كان الرفاق.

فى هذه الأثناء مر قطار قادم من الشمال فضاعت علينا فرصة نسفه. وتزايد حزننا بعد هذا الفشل الجديد وبدأ على يعزو ذلك إلى سوء الطالع. ويقول إن ما من شىء سيتم على ما يرام فى هذه الحملة كلها. وكان ذلك ملاحظة خطرة، لأنها قد تؤدى سراعًا إلى اكتشاف عين الشر، ولذلك تعمدت تغيير الموضوع، وكلفت حراسنا بأن يبتعدوا أكثر قليلاً إلى الشمال والجنوب.

لم يكن عندنا ما نأكله فادعينا لخداع أنفسنا بأننا لسنا جائعين ثم شغلنا عن ذلك المطر المنهمر بغزارة والبرد اللاسع كالسوط. وهكذا فى تلك الليلة، لم يكن عندنا طعام ولا عمل ولم نجد مكانًا نجلس فيه سوى الصخور المبللة والأعشاب المشبعة بالمياه والأوحال. ولكن هذا الطقس العاطل لم ينفك يذكرنى بأن تقدم (اللنبى) على القدس سيتوقف فالمطر ينتزع منه أفضل ورقة فى يده ألا وهى الصحو.

فى أفضل الظروف يبدو الانتظار متعبًا فكيف به فى مثل هذا الطقس؟؟!! وأخيرًا، قرابة الظهر، أعلمنا حراسنا بمقدم قطار من جهة الجنوب. وفى أقل من طرفه عين كان كل واحد منا فى المكان المعهود إليه، غير أن انتظارنا قد طال لأن القطار كان يتقدم ببطء ولم يصل إلا حوالى الساعة الواحدة. وفى الوقت المناسب ضغطت على جهاز التفجير أربع مرات متتالية، ولكن دون نتيجة فتأكدت من أن شيئًا ما قد حصل ولم يعد من الممكن إتمام المهمة. وبما أنه كان من المتعذر على معرفة ذلك فى الحال أو الانسحاب إلى حيث يتخذ جماعتنا مراكزهم فقد بقيت مكانى حتى لا ألفت أنظار العدو إلى فيوقفون القطار ويقضون علينا جميعًا خاصة وأن ذلك القطار الكبير كان يعج بالجنود والضباط. وما كاد القطار يبتعد حتى قفزت من مكانى بأسرع من البرق ولحقت بالرفاق.

فى هذه الأقناء مر قطار قادم من الشمال فضاعت علينا فرصة نسفه. وتزايد حزننا بعد هذا الفشل الجديد وبدأ على يعزو ذلك إلى سوء الطالع. ويقول بإن ما من شىء سيتم على ما يرام فى هذه الحملة كلها. وكان ذلك ملاحظة خطرة، لأنها قد تؤدى سراعًا إلى اكتشاف عين الشر، ولذلك تعمدت تغيير الموضوع، وكلفت حراسنا بأن يبتعدوا أكثر قليلاً إلى الشمال والجنوب.

لم يكن عندنا ما نأكله فادعينا لخداع أنفسنا بأننا لسنا جائعين ثم شغلنا عن ذلك المطر المنهمر بغزارة والبرد اللاسع كالسوط. وهكذا فى تلك الليلة، لم يكن عندنا طعام ولا عمل ولم نجد مكانًا نجلس فيه سوى الصخور المبللة والأعشاب المشبعة بالمياه والأوحال. ولكن هذا الطقس العاطل لم ينفك يذكرنى بأن تقدم (اللنبى) على القدس سيتوقف فالمطر ينتزع منه أفضل ورقة فى يده ألا وهى الصحو.

فى أفضل الظروف يبدو الانتظار متعبًا فكيف به فى مثل هذا الطقس؟؟!! وأخيرًا، قرابة الظهر، أعلمنا حراسنا بمقدم قطار من جهة الجنوب. وفى أقل من طرفه عين كان كل واحد منا فى المكان المعهود إليه، غير أن انتظارنا قد طال لأن القطار كان يتقدم ببطء ولم يصل إلا حوالى الساعة الواحدة. وفى الوقت المناسب ضغطت على جهاز التفجير أربع مرات متتالية، ولكن دون نتيجة فتأكدت من أن شيئًا ما قد حصل ولم يعد من الممكن إتمام المهمة. وبما أنه كان من المتعذر علىّ معرفة ذلك فى الحال أو الانسحاب إلى حيث يتخذ جماعتنا مراكزهم فقد بقيت مكانى حتى لا ألفت انظار العدو إلىّ فيوقفون القطار ويقضون علينا جميعًا خاصة أن ذلك القطار الكبير كان يعج بالجنود والضباط. وما كاد القطار يبتعد حتى قفزت من مكانى بأسرع من البرق ولحقت بالرفاق.

كان مفلح بادى الغم لاعتقاده بأننى قد تعمدت ترك القطار يمر. ولكن بعد الإطلاع على حقيقة الأمر الذى سبب فشلنا قال بنو سرحان: نحن الذين سببنا لكم هذا النحس.. تاريخيًا كانوا على حق. ولكن بما أنهم أرادوا بذلك رجمًا بالغيب فقد ألمحت ساخرًا إلى شجاعتهم قرب الجسر فى الأسبوع الماضى، وقلت إن قبيلتهم من الأفضل لها أن تترك الحرب إلى أهلها، وتنصرف إلى رعاية المواشى. فما إن أنهيت كلامى حتى هب السراحون يريدون أن يمزقونى إربًا للاهانة التى وجهتها إليهم. غير أن بنى صخر صدوهم ووقفوا إلى جانبى. وما إن سمع على الضجة تتعالى حتى أسرع، وأنهى القصة بالتى هى أحسن ثم تناسى الجميع الحادث كأنه لم يكن. وبكلماته المعسولة استطاع على أن يعيدنا إلى رشدنا وإلى المهمة التى جئنا من أجلها. فاستعاد الرجال ثقتهم بأنفسهم وانصرفت أنا لمعالجة جهاز التفجير واصلاحه. وتوفقت إلى ذلك.

عاد كل منا على الأثر إلى مكانه بالقرب من الخط الحديدى. ولكن عبثًا فلم يمر أى قطار. وهبط الليل علينا مضاعفًا برودة الطقس ورطوبته فصار الجميع يرتجفون وتصطك أسنانهم، وقضينا الليل بكامله على هذه الحال. وفى الصباح ذبحنا ناقة لعدم إمكاننا تحمل الجوع أكثر من ذلك. وفيما نحن نأكل صرخ حارس الشمال بأن قطارًا قادمًا من الشمال يقترب منا بسرعة. وفى الحال نسى الجميع طعامهم وهبوا إلى مراكزهم، وما إن وصلت القاطرة فوق اللغم حتى ضغطت على جهاز التفجير ودوى الانفجار بقوة مرعبة قاذفًا نحوى كتلاً من التراب والحجارة سببت لى جراحًا فى ساعدى الأيسر وساقى اليمنى وأدارت لى رأسى. فزحفت متثاقلاً إلى معقل رجالنا وأصبحت بين نارين: العدو من الوراء ورجالنا المتحصنون من الأمام. وما إن وقع نظر الشريف علىّ على حتى سارع إلى نجدتى مع تركى وبنى صخر وعدد من الخدم واقتادونى إلى مكان أمين. ومن هناك بعد أن تأكدت من أن جراحى ليست ذات بال ألقيت نظرة لجهة الخط لأرى نتيجة عملى، فوجدت أن العبارة قد نسفت وتهدمت والقاطرتين قد تناثرت اجزاؤهما، والمقطورات قد خرجت عن الخط. إحدى تلك المقطورات كانت مزدانة بالأعلام، لأن محمد جمال باشا القائد العام للجيش الثامن التركى كان يسافر فيها على جناح السرعة للدفاع عن القدس ضد «اللنبى». وقد لاحظنا إلى جانب القائد العام وجود شيخ دينى رجحنا أن يكون أسعد شقير، الإمام الموالى للأتراك، فقررنا قتله، وصوبنا عليه نيراننا وأرديناه قتيلاً.

غير أن هذا ما كان ليفيدنا بشىء ويغير أوضاعنا لجهة التحسن. فحظنا فى نهب ما فى القطار كان ضئيلاً جدًا لوجود أربعمائة جندى تركى فيه عدا المسافرين الذين استعادوا رشدهم وأخذوا يطلقون علينا النار بدورهم. وكان العدو قد تمكن من جرح فهد وأجبر مفلح وأدهب على التراجع حيث كنا متحصنين نحن فوق التلة. ولما اقترب العدو منا على المنحدر أصليناه نارًا حامية أجبرته على التقهقر مخلفًا وراءه حوالى العشرين قتيلاً، عدا أولئك الذين تساقطوا بالقرب من القطار ويعدون بالعشرات.

لم يبق سوى أربعين، وبات من المتعذر علينا القيام بأى عمل حاسم، فتقهقرنا نحو القمة حيث كانت المطايا فركبناها على جناح السرعة وهربنا إلى الشرق لنجد ملجأ لنا

فى الصحراء. وبعد أن سرنا حوالى ساعة من الزمن، وتأكدنا من زوال الخطر توقفنا لاستعادة أنفاسنا ثم قصدنا مكانًا ظليلاً فى وادى «خليل» لنتناول طعامنا لأول مرة منذ ثلاثة أيام. وبعد ذلك ضمدنا جراح فهد وباقى الجرحى. وفى اليوم التالى عدنا إلى الأزرق حيث استقبلنا استقبالاً حافلاً وقد تبجحنا زورًا بأننا عدنا منتصرين.

●●●

(4)

كانت السماء قد صممت على متابعة إرسال المطر وحرمت «اللنبى» بذلك من حلمه اللذيذ بالطقس الجميل وحالت بينه وبين تقدمه السريع هذه السنة فى جبهة فلسطين. ولكننا قررنا مع ذلك أن نبقى فى الأزرق. وذلك لأن الأزرق ستكون بالنسبة لنا مركزًا للتبشير بالثورة العربية تنطلق منها لتمتد إلى الشمال كما ستكون مركزًا صالحًا جدًا لجمع المعلومات عن العدو وتحركاته، وستكون أخيرًا حاجزًا بين نورى الشعلان والأتراك. ووجودنا هناك سيحول دون ارتداد الشعلان وانضمامه إلى العدو على الأقل خجلاً منا. وهكذا بدت الأزرق لنا المقرّ الأفضل، خاصة أنه من الممكن تحويل قصرها العتيق إلى مقر عام لنا يقينا شر البرد فى ذلك الشتاء القارس.

أقمت أنا فى برج الباب الجنوبى وكلفت حراسى الحوارنة بتغطية سقفه بالطين والأغصان بينما أقام على فى برج الجهة الشمالية الغربية حيث عينا زعيمهم حسن شاه قاضيًا. وكمسلم مؤمن كان أول ما فعله حسن شاه اصلاح المسجد وجعله صالحًا للصلاة. وبعد ذلك تولى حسن شاه وضع الرشاشات فى الأماكن الملائمة فى أعلى الأبراج تحسبًا لكل طارئ، ونظّم قضية الحراسة الدائمة.

فى هذه الأثناء كنا نحن ندرس قضية التموين التى زاد من صعوبتها كون الطرقات المؤدية إلى «العقبة» أصبحت غير صالحة للسير فى هذا الشتاء الفريد من نوعه فى تلك المنطقة المحاذية للصحراء. وفى النهاية استقر رأينا على إرسال قافلة إلى جبل الدروز الذى يفصلنا عنه مسير يوم واحد وأوكلنا أمرها إلى مطر الذى عاد من مهمته محملاً بكل ما يلزمنا من مؤن.

ما هى إلا بضعة أيام حتى اشتد المرض على «وود» أنيسى الوحيد، فقررنا أن ننقله إلى (العقبة)، مهما كلف الأمر وعهدنا بهذه المهمة إلى أحمد وعبدالرحمن ومحمود وعزيز الذين عادوا من هناك على رأس قافلة مؤن أخرى.

وما إن شاع خبر وجودنا فى الأزرق حتى أخذ الضيوف يتدفقون علينا جماعات جماعات، ويوميًا تقريبًا. فتارة كانت تلك الجماعات كناية عن سلاسل متصلة من الاستعراضات البدوية يقوم بها قبائل: الرولا، شرارة، سرحان، سردية، صخر، وطورا كانت تضم فرسانًا من جبل الدروز أو من السهل الغربى. وكثيرًا ما كان يهبط علينا لاجئون سياسيون من سورية أو تجار غير معتادين على السفر فى مثل هذا الطقس. وفى أحد الأيام استقبلنا مائة من الأرمن المساكين الهاربين من الجوع وظلم الأتراك. وأحيانًا كان ينزل فى ضيافتنا ضباط عرب بأسلحتهم الكاملة، وقد هربوا من الجيش التركى لينضموا إلى الثورة العربية.

وهكذا فى كل يوم كنا نستقبل أناسًا من كل حدب وصوب كلهم يريدون الاستطلاع عن الشريف فيصل، وعن الجيش العربى وأحيانًا عن الجيش البريطانى ويصرون على رؤيتى والشريف على شخصيًا لسماع ذلك من أفواهنا. كان التجار من دمشق يحملون إلينا كثيرًا من الهدايا: حلويات عربية أقمشة سجاد و... فنرد إليهم الجميل بأن نهديهم نحن بدورنا ما ينقصهم فى دمشق: سكر، ارز، قطن. وسرعان ما شاع الخبر بأن كل شىء متوافر فى «العقبة» يصلها بطريق البحر المفتوحة، فأخذ الناس يتهافتون للانضمام إلى حركتنا خدمة لمصالحهم بعد أن كانوا من قبل يستجيبون فى ذلك إلى عاطفتهم.

وأفضل ورقة فى يد فيصل لكسب هذه المناطق الشمالية لقضيته كانت شخصية أخيه الشريف على. فما من أحد كان يراه ويجالسه إلا ويرغب فى أن يتاح له ذلك مرة أخرى. فقد جمع على بين الجاه والثروة والذكاء والهيبة والوقار، وكلها أمور سحرت من حوله وجعلته ذا شعبية كبيرة.

أمضينا كل تلك المدة محجوزين وراء أبراجنا نقتل الوقت فى الحديث وسرد الحكايات والخرافات ففكرت أن نفيد من هذا الوقت وننطلق إلى استكشاف منطقة درعا. وفيما

كنت أفكر فى ذلك هبط علينا فى صباح ممطر دون سابق انذار طلال الحريدينى الخارج على القانون الذى وضعت جائزة كبيرة ثمنًا لرأسه. وقيل لى إن قتلاه من الأتراك يزيدون على الثلاثة والعشرين، وبأنه لا يخرج إلاّ وبرفقته ستة أتباع من أشجع الفرسان. وما إن تأكد لى من حديثى الطويل معه خلال اليوم الأول لوصوله أنه معنا قلبًا وقالبًا حتى غمرنى البشر وكشفت له عن رغبتى. وافقته الفكرة وطابت له فقرر أن يرافقنى ويقدم كل خدمة لازمة فى منطقة درعا التى ترهبه والتى له فيها الكثير من الأصحاب والأتباع.

وفى الغد قادنى طلال عبر طريق يعرفها جيدًا إلى تل عرار المشرف على درعا بالقرب من خط دمشق الحديدى. وبعد ذلك انتقلنا إلى مزيريب على خط فلسطين، وكنت خلال كل ذلك اخطط للمحاولات المقبلة عندما سنعلن الوثبة العامة التى ستكتب لنا النصر الأكيد. وربما كان ذلك فى الربيع المقبل.

* * *

كى يكون استطلاعى السرى كاملاً وافيًا فى حوض حوران كان من الضرورى زيارة درعا قاعدته. فقد كان فى مقدورنا فى الواقع أثناء هجومنا العام أن نعزلها من الشمال والغرب والجنوب، بنسفنا الخطوط الحديدية الثلاثة التى تربطها بدمشق شمالاً، وبالمدينة جنوبًا، وبالقدس غربًا. ولكن كان الأفضل لنا الاستيلاء على نقطة الوصل، والانطلاق منها توسعًا فيما بعد. وبما أن طلال كان معروفًا كثيرًا فى وسط المدينة فقد اعتذر عن مرافقتى إليها وتابعت سيرى إليها وحدى مع مرافقى من رجالى. وعند طرف المدينة ترجلنا وكلفت خادمى حليم بأخذ المطايا والتوجه إلى بيت نسيب الكائن فى الطرف الجنوبى من درعا. وقد كان مخططى أن أطوف فى المحطة وأنحاء المدينة بصحبة فارس كى نصل إلى بيت نسيب بعد غروب الشمس فمظهر فارس يدل على أنه فلاح بسيط لا يثير الشكوك، وكنت أنا قد تخفيت بثياب حليم الرثة الممزقة.

قصدت أول ما قصدت الخط الحديدى الذى يربط درعا بفلسطين. ومن وراء منعطف استراتيجى تفحصت المحطة فوجدت أن المكان مغطى كثيرًا لا يصلح لغارة

مفاجئة. وقررت على الأثر أن استطلع خطوط الدفاع الشرقية وسجلت خلال ذلك كل ما يلزم من معلومات عن تلك الخطوط. وفى هذه الأثناء كان الجنود الأتراك يروحون ويجيئون دون أن يعيرونا أى انتباه.

وعند زاوية المطار، فى الطرف الجنوبى من المحطة ولجت إلى داخل المدينة. كان يوجد هناك أكواخ قديمة، يدور حولها الرجال. فعمد أحدهم، وهو جندى سورى، إلى إلقاء اسئلة عن قوانا لمعرفة مدى قوة «الحكومة» حيث نعيش وقد كان، كما لاحظت، من أولئك التائقين إلى الهرب من الجيش التركى، وهو يبحث عن وسيلة أمينة لذلك. ولكننا استطعنا أخيرًا أن نتخلص منه ونتابع سيرنا وتجسسنا. غير أننا ما كدنا نبتعد حتى سمعنا صوتًا ينادى بالتركية، ولما حاولنا تجاهل ذلك، أسرع أحد الرقباء وامسكنى بذراعى قائلا: «البيك يطلبك». لم يكن هناك مجال للهرب أو للعراك لكثرة الشهود، ولذلك أطعت وتبعت الرقيب بينما بقى فارس حيث هو دون أن ينتبه إليه أحد.

وراء السور كانت تقوم أبنية المعسكر. قادنى الرقيب إلى أمام أحدها حيث كان يجلس ضابط تركى قدمنى إليه بعد أن أجرى معه حديثًا طويلاً بالتركية. سألنى الضابط عن اسمى، قلت:

- (أحمد بن بكر، شركسى من القنيطرة).
- (أنت فرارى؟)
- نحن الشركس، لا نخضع للخدمة العسكرية).

وعلى الأثر فغر فاه صارخًا:

- (كذاب. خذه شاويش حسن، وافعل اللازم حتى يرسل البيك فى طلبه).

اقتادونى إلى قاعة كبيرة فيها عدد من الجنوب المتسخة الثياب، ثم انتزعوا منى حزامى وخنجرى وأمرونى بالاغتسال، ثم قدموا لى شيئًا من الطعام. بقيت هناك طول النهار رغم كل محاولاتى الخروج بأى ثمن. وكل ما فعلوه من أجلى هو محاولة تطمينى، وقولهم إن حياة الجندية ليست بالسوء الذى أظن. وبعد ذلك قالوا قد تحصل على إذن

بالخروج غدًا إذا اشبعت فى هذا المساء رغبات البيك. بدا لى أن هذا البيك هو الحاكم الناهى وأضافوا قائلين: (إذا لم يكن راضيًا فترسل إلى مدرسة المشاة فى بعلبك). تظاهرت بالبله وسعيت جهدى لإخفاء شخصيتى.

وخلال السهرة جاء ثلاثة رجال فى طلبى فظننت أن الفرصة قد جاءت كى أهرب، ولكن ظنى خاب وبقى الحراس ممسكين بى ونحن نجتاز الممر ثم الخطوط الحديدية، لنصل إلى دارة من طبقتين يحرسها عدد كبير من الجنود. أدخلونى إلى غرفة «البيك» فى الطابق الأول، وكان ساعتئذ متمددًا فوق سريره فى ثياب النوم، يرتجف ويتصبب منه العرق كأنه مصاب بالحمى. لم يرفع رأسه ساعة دخولنا، وكل ما فعله أن أومأ إلى الحراس بالخروج، ثم عاد إلى صمته بعد أن أشار إلى بالجلوس قبالته على السجادة. وبعد برهة رفع رأسه وبدأ يتفحصنى من رأسى إلى أخمص قدمى، ثم طلب إلىّ أن أقف واستدير. فأطعت، وإذا به يأخذنى بين ذراعيه عنوة، فتملصت بعد أن تبينت غايته، ووقفت قبالته يملأنى الحبور لاكتشافى بأننى كنت ندًا له، فى العراك على الأقل...

أخذ «البيك» عندئذ يلاطفنى ويتغزّل بقوامى ولون بشرتى الأبيض واستدارة قفاى، ثم وعدنى بإعفائى من الخدمة العسكرية والسخرة مجزلاً لى العطاء... كل هذا مقابل إشباع رغباته الجنسية الشاذة.

ولما قابلته بالعناد والصمم غيّر لهجته وأمرنى بخلع سروالى. وعندما لاحظ ترددى انقض على فرددته. عندئذ صفق بيديه مناديًا الحارس الذى دخل فورًا وأوثق ذراعى ببعضهما. فى هذا الوقت كان البيك يكيل لى الشتائم المقذعة، ثم أمر الحارس بتمزيق ثيابى ففعل. وعلى الأثر ظهرت آثار اصابتى الأخيرة بالرصاص والشظايا فاعترى إلبيك الذهول. ولكنه سرعان ما استعاد رشده وعاد إلى التطلع النهم إلى جسدى العارى. عندئذ عيل صبرى فهجمت عليه وضربته بركبتى على بطنه فتراجع ليرتمى على السرير مزمجرًا من الألم فيما كان الحارس يستغيث برفاقه ورئيسه. دخل هؤلاء وأوثقوا لى رجلى بعد يدى. ولما لم يعد فى إمكانى القيام بأية حركة مقاومة استأسد البيك من

جديد وبصق فى وجهى، ثم خلع خفه وراح يصفعنى به على وجهى متوعدًا. بعد ذلك أغرز أظافره فى عنقى ثم أسنانه. وبعد ذلك قبلنى. ولما أشبع رغبته هذه استل حربة الحارس وأخذ ينكزنى بها، فصرخت من الألم، فيما كان الدم يسيل على فخذى. وقد بدا على البيك أنه مغتبط جدًا بما يفعل.

بلغ منى اليأس اقصاه، فتكلمت. وعلى الأثر تغيرت ملامح وجهه وقال بصوت الوائق:

- «يجب أن يكون معلومًا عندك بأنه من الأفضل لك الاستجابة إلى رغباتى.»

ولما رفضت من جديد، أمر رئيس الحرس بجلدى. فاقتادنى إلى غرفته متوعدًا ثم انقض علىّ بسوطه جلدًا مبرحًا حتى أدركه التعب فكلف رجاله بمتابعة الجلد واستمروا فى عملهم حتى فقدت الوعى. وفى الصباح التالى أيقظتنى رفسة رئيس الحراس ثم سوطه ينهال على جسدى الممزق من جديد. وبعد أن تعب من ذلك أمر ثلاثة من رجاله بأن يمسك اثنان منهم برجلى والثالث برأسى ويشد كل إلى جهة. وفيما هم ينفذون الأمر طلبنى البيك، فغسلوا لى وجهى ومسحوا الدماء عن جراحى، ثم نقلونى إليه. ولكن منظرى أرعبه فأمر بإرجاعى واحتفظ برئيس الحراس الوسيم فى غرفته لبعض الوقت. أخذونى إلى تخشيبة وراء دارة الحاكم لقضاء ليلتى الثانية هناك وكلفوا خياطًا ارمينيًا بتضميد جراحى. ولكن واحدًا من الحراس تبين لى من لهجته أنه درزى همس فى أذنى قبل انصرافه بأن الباب لن يقفل بالمفتاح.

بقيت نائمًا منهوك القوى حتى التباشير الأولى من الفجر إذ ايقظنى من سباتى واعادنى إلى الحياة صوت قاطرة تتحرك. اكتشفت عندها بأن آلامى قد زالت، فتطلعت حولى، ثم تحركت وقمت لأرتدى شيئًا على جسدى، فلم أجد سوى ثياب رثة سارعت إلى ارتدائها كيف ما كان، وقفزت من النافذة ثم من على السور، ورحت أركض باتجاه القرية، بأسرع ما يمكن. وعند الجسر كان يوجد عدد من الآبار شربت من إحداها وغسلت وجهى، ثم تابعت سيرى السريع فى الوادى باتجاه الجنوب حيث أصبحت فى مأمن عن الأنظار وقد لاح لى الوادى وأنا أجتازه أنه الطريق الأصلح للقيام بغارة مفاجئة مباغتة

على درعا. وهكذا أثناء هربى تمكنت ولو متأخرًا، أن أحل المشكلة التى من أجلها جئت إلى المدينة.

صادفت وأنا فى طريقى إلى القرية رجلاً يركب جملاً فرجوته أن يركبنى خلفه لألم فى قدمى، ففعل، شفقة على. وفى القرية وجدت فارس وحليم قلقين جدًا، فقصصت عليهما كل ما صادفنى فى درعا. وأثناء الليل أعددت العدة لرؤية الجسر الحجرى الكبير، الكائن قرب بيت نسيب. وبعد ذلك ركبنا مطايانا وعدنا إلى الأزرق.

* * *

قبيل وصولنا إلى الأزرق سبقنا إلى هنا «كسورى» أمير صلخد الدرزى. وكانت هذه أول زيارة يقوم بها الشريف على، روى لنا خلالها نهاية قصة الأمير عبدالقادر الجزائرى. ومن القصة تبين لنا أن عبد القادر بعد تركه صفوفنا توجه إلى صلخد ودخلها دخول الفاتحين تحت الراية العربية ووسط استعراض كبير جعل أهل القرية يذهلون، والحاكم التركى يحتج بشدة على اعتبار أن مثل هذه المظاهرات تعد تحديًا له وإهانة لشخصه. وفيما كان الحاكم يزوره فى الديوان الذى اتخذه لنفسه أعلن عبد القادر أن سلطة الشريف فيصل قد شملت جبل الدروز برمته، وأنه أى عبد القادر قدم إلى صلخد ممثلاً عنه، وهو يرى بأن يبقى كل فى وظيفته.

وفى صباح الغد قام عبد القادر باستعراض آخر عبر المنطقة جعل الحاكم الصبور يقدم شكوى جديدة. وعندئذ استل عبد القادر سيفه المكى المرصع بالذهب وأقسم بأنه سيقطع به رأس جمال باشا. فلامه الدروز الحاضرون على ذلك وقالوا إنهم لا يقبلون أن تقال مثل هذه الأشياء فى بيوتهم وأمام صاحب السعادة الحاكم. وعلى الأثر طار صواب عبدالقادر وراح يكيل لهم الشتائم ويقذفهم بأقذع الكلمات والصفات الأمر الذى أغضب الدروز كثيرًا. ولكن عبدالقادر لم يكترث بل خرج من المنزل وامتطى حصانه مع مرافقيه السبعة صائحًا بأنه يكفيه أن يضرب قدمه فى الأرض حتى يهب جبل الدروز هبة واحدة للوقوف بجانبه.

ودائمًا مع مرافقيه السبعة قاد الغرور الأمير عبد القادر إلى درعا التى دخلها على الطريقة ذاتها. وبما أن الأتراك كانوا على علم سابق بهوسه فقد تركوه يفعل. وعندما أخبرهم بأننا سنهاجم جسر تل الشهاب فى وادى اليرموك لم يأخذوا ذلك على مأخذ الجد. ولكن ما إن أكدت الأحداث أقواله حتى غيروا رأيهم وأرسلوه وسط حراسة مشددة إلى دمشق. وهناك استقبله جمال باشا وسخر منه ما طاب له ذلك ثم أطلق سراحه بعد أن نال وعدًا منه بالعمل لمصلحة الأتراك عن طريق إثارة السكان المحليين وتشويه غاية الثورة العربية.

كان الطقس فى الأزرق رديئًا جدًا فى تلك الأيام لما فيها من برد وثلوج وعواصف وجليد... لذلك لم يكن فى إمكاننا القيام بأى عمل سوى الصلاة وتبادل الآراء والأحاديث، وفض مشاكل البدو والقرويين. وبعد أن طال أمد ذلك قررت أن أسافر إلى الجنوب لأرى ما إذا كان من الممكن عمل شىء فى منطقة البحر الميت.

أعطيت ما كان قد تبقى معى من أموال إلى الشريف على ليصرف منه على رجاله حتى الربيع، وتركت الهنود فى عهدته كذلك. وبعد ذلك أعددت العدة للسفر وودعت عليًا وداعًا مؤثرًا. ثم توجهت إلى الجنوب يرافقنى خادمى رحيل.

تركنا الأزرق مع غروب الشمس. وسرعان ما تبين لنا أن رحلتنا ستكون شاقة لأن مياه الأمطار كانت قد غمرت كل الطرقات بشكل جعل المسير فوقها أمرًا فى غاية الصعوبة. وقد تمكنا من وادى بطم ولم نصل إلى «الغدف» إلا عند منتصف الليل. وهنا بدا لنا أن متابعة السير أصبحت من المستحيلات نظرًا للإنهاك الذى أصابنا. فقررنا أن نبيت فى «الغدف» بين الأوحال ريثما ينجلى نور الصباح. ولما استيقظنا مع الفجر وجدنا أن الرياح تعصف بشدة، ولكن الأمطار كانت قد انقطعت والأرض بدأت تجف، فسارعنا إلى ركوب مطايانا مغتنمين فرصة الجفاف الثمينة هذه. وبعد الظهر وصلنا إلى سفوح (ثلاث أخوات).

وفيما نحن نحث الخطى نزل علينا فجأة أربعة رجال من على المنحدر وقطعوا علينا الطريق مدعين أنهم من الحويطات. ولكنهم كانوا يكذبون لأن وسم جمالهم كان يدل على

أنهم من بنى فايز. وكى أتخلص منهم لجأت إلى الحيلة متظاهرًا بالبله. ولما داهمنا الليل كنا قد وصلنا إلى وادى (باير) فتوقفنا نصف ساعة ثم تابعنا المسير العسير فى مثل تلك الليالى المطرة الباردة رغم إحساسى بأن حرارتى كانت مرتفعة من جراء الحمى ورغم توسلات (رحيل) بالتوقف حتى الصباح.

وعندما انبلج الفجر كنا قد وصلنا إلى الجفر يلفنا ستار كثيف من الضباب. وفى الساعات الأولى من النهار وصلنا إلى مخيم (عودة)، فتوقفنا للتحية ولتناول شىء من تمر الجوف. وبعد استراحة وجيزة ركبنا من جديد على أمل اجتياز الخط الحديدى فى تلك الليلة. ولكنا ظللنا الطريق وكدنا نقع فى أيدى الأتراك قرب مخفر أبو اللسن. واضطررنا للنجاة أن نقوم بدورة كبيرة أوصلتنا إلى بترا. وفى القاع توقفنا ساعة للقيلولة لعلمنا بأنه بات من المتعذر علينا الوصول إلى العقبة فى مدة ثلاثة أيام.

وعند منتصف الليل وصلنا إلى العقبة حيث قضينا باقى ليلتنا خارج المعسكر. وفى الصباح دخلت على جويس وهو يتناول فطوره.

فيما بعد جاءت أوامر مشددة تطلب إلى التوجه على جناح السرعة إلى فلسطين. فنقلنى كروال على متن طائرته حتى السويس ومن هناك توجهت إلى المقر العام لقيادة اللنبى بالقرب من غزة. وكنت أقدم تقريرًا له عن فشل خطتنا فى وادى اليرموك عندما جاءته رسالة سريعة من شتوود يعلمه بسقوط القدس. فقرر على الأثر دخول المدينة فى احتفال استعراضى مهيب دعانى إلى المشاركة فيه كضابط فى الأركان البريطانية العامة. وكان هذا كرمًا زائدًا منه.

■ ■ ■

7
حملة الشتاء

■■



(1)

بعد الاستعراض عدنا بالسيارة إلى القيادة العامة. وفى الحال سارع الجميع هناك إلى سلال الأطعمة الباردة وساد جو من الصمت حيث انصرف الجميع إلى تناول الطعام. وفجأة قطع الصمت دخول السيد (بيكو) الممثل السياسى الفرنسى الذى كان «اللنبى» قد أذن له بالمسير إلى جانب «كليتون» أثناء الاستعراض، وقال: «ابتداء من الغد يا عزيزى الجنرال سأتخذ الإجراءات اللازمة من أجل إقامة حومة مدنية فى القدس».

لم يعرف التاريخ، مطلقًا، كلمة تصدر بهذه الجرأة. وتلا ذلك صمت رهيب جعل الأفواه تبقى مفتوحة من الذهول، فيما استدارت الأنظار كلها تجاه الجنرال «اللنبى» الذى بدا فى تلك اللحظة عاجزًا عن الرد. وبدأ يساورنا القلق. وفجأة تورد وجهه وقال بجفاف: «لا يوجد فى المنطقة العسكرية سوى سلطة واحدة هى سلطة الجنرال القائد العام أى سلطتى أنا.» فتمتم بيكوك «والسير غراى، السير ادوارد غراى» فقطع اللنبى عليه كلامه بقوله: «السير ادوارد غراى سيهتم بالحكومة المدنية التى ستقوم عندما أرى الوقت مناسبًا لذلك».

بعد تناول الطعام ركبت إلى جانب «اللنبى» و«دانى» فى السيارة للقيام بجولة استطلاعية والعودة إلى المعسكر. وأثناء ذلك علمت منهما أن القوات البريطانية التى وصلت إلى الجبال الكائنة بين الرملة والقدس باتت تتقدم ببطء نظرًا لوعورة المسالك ومقاومة الأتراك العنيفة فى تلك المنطقة. ولشد أزر القوات البريطانية كان «اللنبى»

يرغب منا إذن أن نتجه شمالاً نحو البحر الميت ونحاول الاتصال بجناح قواته الأيمن وتكوين جبهة واحدة معه إذا كان ذلك ممكنًا. ولحسن الحظ كنت قد واجهت إمكانية القيام بمثل هذه المحاولة مع فيصل الذى كان يعد هجومًا على طفيلة كمرحلة أولى ضرورية.

وقد رأيت الوقت مناسبًا أن أسأل «اللنبى» عما يعتمد أن يفعله فيما بعد. فأجابنى بأنه سيتريث حتى أواسط شباط ثم يشن هجومه على «اريحا». ولما كان القسم الأكبر من إمدادات العدو يأتى عن طريق البحر الميت فقد طلب إلى «اللنبى» اعتبار وقف هذه الإمدادات هدفًا ثانيًا إذا نجحت مهمتنا فى طفيلة. كنت آمل أن أفعل أكثر من ذلك فأجبت: إذا استمر الأتراك فى خوفهم وقلقهم يمكننا الاتصال بالجيش البريطانى عند طرف البحر الميت الشمالى، وإذا كان من الممكن تسليم الخمسين طنًا من المؤن والذخائر اللازمة يوميًا لفيصل فى أريحا فقد نترك «العقبة»، ونتخذ من إحدى قرى وادى الأردن مقرًا جديدًا لنا لنكون على مقربة من العمليات بعد أن أصبح الجيش العربى قادرًا على حماية ساحتنا على الضفة الشرقية.

راقت الفكرة للجنرال «اللنبى» و«دانى». فتسهيلات التموين هذه يمكنهم بكل سهولة منحنا إياها بمجرد إصلاح الخط الحديدى المؤدى إلى القدس فى أواخر كانون الثانى. وبعد شهرين من ذلك التاريخ يصبح فى مقدورنا نقل مقرنا العام إلى وادى الأردن.

من هذه المحادثة خرج برنامج واضح المعالم. على العرب أن يصلوا إلى البحر الميت فى أقرب وقت ممكن. وعليهم بعد ذلك أن يقطعوا خط التموين عن أريحا قبل أواسط شباط. كما أن عليهم أخيرًا أن يصلوا إلى وادى الأردن قبل نهاية شهر آذار. لتنفيذ المرحلة الأولى كان يلزم شهر كامل من الاستعداد، ولكن بما أن كل التدابير التمهيدية قد سبق لنا واتخذناها فقد رأيت أنه فى إمكانى الحصول على إجازة قصيرة. وهكذا فقد توجهت إلى القاهرة وأمضيت أسبوعًا كاملاً فى التدرب على المتفجرات.

بعد مرور أسبوع رأيت أنه من الأنسب العودة إلى «العقبة» التى وصلتها صباح عيد الميلاد. كل شىء على ما يرام، قال لى جويس، فالوضع قد تحسن كثيرًا وتغير تغيرًا

محسوسًا بعد انتظار مولود. لقد تجمع الأتراك فى «أبو اللسن» فى البدء. ولكننا بغاراتنا المتواصلة على الخط الحديدى أجبرناهم على التقهقر إلى جنوبى معان. ولما كان عبدالله وعلى يضيقان عليهم الخناق كذلك من جهة المدينة المنورة فقد اضطر الأتراك لنقص فى الرجال إلى سحب بعض قوات «أبو اللسن» ودعم المراكز المهددة.

أفاد مولود كثيرًا من هذا الانسحاب، فأقام له مراكز كشافة على الهضبة، وقطع طريق التموين على معان بسطوه على ما كانت تحمله القوافل إليها. وقد سببت هذه الأعمال الكثير من القلق للعدو فاضطر لأن يسحب عددًا آخر من قواته التى حشدها فى أبو اللسن.

وهكذا فقد حان الوقت لأن يصبح الأتراك أضعف من أن يستطيعوا الصمود والدفاع عن مركز مهم كبير كأبى اللسن. وفى أول كانون الثانى تولى مولود طرد العدو إلى المريجة، فانقض البدو على مؤخرته وفتكوا بها. بينما سارع الباقون إلى (وحيدة) الواقعة على مسافة ستة أميال من معان. غير أن جنودنا تبعوا العدو إلى هناك فاضطر إلى الانسحاب إلى (سمنة) على أبواب معان. وهكذا فى السابع من كانون الثانى كان مولود ورجاله يدقون أبواب معان، ويزرعون قلوب الأتراك هلعًا وخوفًا.

لقد أتاح لنا تطور الأوضاع بهذا الشكل أن ننعم بعشرة أيام من الراحة، فقررنا أن نذهب أنا وجويس فى رحلة استجمامية استطلاعية إلى (المدورة) على متن سيارة بعد أن شق جليمان ودوسيت ورجالهما المصريون الخمسون طريقًا إلى قويرة. واخترنا لذلك سيارتين من ماركة (رولز) زودناهما بكل ما يلزم لرحلتنا التى ستستغرق أربعة أيام. ثم انطلقنا بسرعة ١٠٥ كيلو مترات بالساعة. وقضينا ليلتنا الأولى فى وادى أبو صوانة. وفى صباح اليوم التالى توجهنا إلى (المدورة) فوصلنا إلى مقربة منها بسهولة فائقة شجعتنا على العودة والتزود بالسيارات المصفحة ومدافع الجبال للقيام بعملية مباشرة. وفى الغد انطلقنا من قويرة من جديد لنصل إلى حيث عسكرنا فى الأمس على مقربة من المدورة عند غروب الشمس. ومع تباشير الصباح الأولى خرجنا نجوب الجوار

للاستكشاف، وعند المساء وقع اختيارنا على مكان مناسب تحجبه التلة الأخيرة بالقرب من تل شحم، المحطة الثانية إلى الشمال من المدورة.

فكرنا فى البدء أن ننسف أحد القطارات، ولكن المنطقة بدت لنا مكشوفة والدوريات التركية تجوبها باستمرار بكثرة. فقررنا أن نهاجم نقطة صغيرة محصنة أمامنا تحميها بعض الخنادق. وبعد أن أكملنا استعداداتنا ووقفنا أنا وجويس نرقب العملية عن كثب، بدأت مدافعنا الستة تقصف الهدف ومصفحاتنا تهاجمه وتسير عليه كأنها كلاب مسعورة. كانت المفاجأة مذهلة على الأعداء فراحوا يطلقون نيرانهم دون تسديد ولكنهم عاندوا ولم يستسلموا ونحن لم نكن نرغب فى حملهم على ذلك فانسحبنا بعد جولة صغيرة إلى الأعلى، ثم إلى أسفل الخط كى نستطلع جيدًا. وبعد ذلك ونزولاً عند رغبة رجالنا المتعطشين إلى القتال والنصر تقدمنا إلى الجنوب حتى أصبحت شحم قبالتنا. ومن هناك قصفنا المحطة بعدد من القنابل حمل الأتراك على الانسحاب منها والهرب نحو نقطة حصينة قريبة. وهكذا أصبحنا أسياد المحطة وبات فى إمكاننا الدخول إليها بدون أقل عناء. ولكن بما أن ذلك لا فائدة منه فقد قررنا الرجوع نحو الجبال. فالمشكلة التى كانت تشغلنا كانت الوصول إلى الخط، مع عتادنا (مدافع ومصفحات) من خلال عقبات السهل والجبل. وما أن عثرنا على حل لهذه المشكلة، حتى عجزنا عن التفكير بما يجب عمله.

كان الخط على مسيرة يوم من قويرة بالنسبة لنا، كما أن النقل عليه أصبح تحت رحمتنا. والقوات التركية الموجودة فى الجزيرة العربية متجمعة لم يكن فى مقدورها مواجهة سيارة مصفحة واحدة فى أرض مكشوفة كالتى نسيطر عليها. وهكذا فجأة تحول الوضع فى المدينة من سيئ إلى أسوأ، بالنسبة للعدو، بل أصبح لا يرتجى منه شىء. وكانت الأركان العامة الألمانية قد تأكدت من ذلك. وبعد زيارة فولكنهاين لـ (معان)، حيث الأتراك أصروا على البقاء فى المدينة. فهى كل ما تبقى لهم من سيادة على الأماكن الإسلامية المقدسة والحجة الوحيدة للاحتفاظ بقلب الخلافة.

وفى المقابل كان الإنجليز مصممين على الاستيلاء على المدينة المنورة. لذلك ما انفكوا يقدمون إلى على وعبدالله كل ما يطلبانه من مال ومتفجرات من أجل العمليات التى يقومان بها ضد الأتراك انطلاقًا من قاعدتهما فى ينبع.

●●●

(2)

بعد عودتى إلى العقبة كرست الأيام الباقية لتنظيم شئوننا الخاصة. وكان أول ما فعلته تشكيل فرقة لحراستى الشخصية بعد أن شاع صيتى وذاع، وبات معروفًا أننى شخص ذو أهمية. عندما بدأنا أعمالنا منطلقين من رابغ وينبع كان الأتراك يبدو عليهم حب الاستطلاع ثم الضجر. وأخيرًا قر رأيهم على القول إن الإنجليز هم الذين حركوا الثورة العربية ويتولون قيادتها. وكنا نحن نتملق أنفسنا كذلك بردنا القيمة التركية العسكرية إلى وجود النفوذ الألمانى فى تركيا.

على كل حال كثيرًا ما ردد الأتراك هذه القصة إلى درجة أصبحت معها أمرًا مقبولاً كأركان الإيمان، وبدءوا يقدمون جوائز من ١٠٠ ليرة ذهبية ثمنًا لرأس أى ضابط بريطانى ميتًا كان أم حيًا. وفيما بعد زادت قيمتى فى نظرهم جعلوا لرأسى ثمنًا خاصًا ضاعفوه بعد استيلائنا على العقبة. وبعد نسفنا لقطار جمال باشا بات ثمن كل منا أنا وعلى عشرين ألف ليرة ذهبية أحياء وعشرة آلاف ليرة أمواتًا. وهكذا جمعت حولى فرقة بلغ عدد أفرادها التسعين نصفهم من بنى عقيل كنت أدفع لكل منهم ست ليرات استرلينية فى الشهر. اخترتهم فردًا فردًا مع مطاياهم بصورة دقيقة جدًا. وكان فى إمكان الواحد منهم أن يصل سير النهار بسرى الليل دون أن يشكو تعبًا أو عناء، ويمكنه فى ظرف نصف ساعة فقط أن يستعد لسفر قد يدوم ستة أسابيع، هى الحد الأقصى للسفر فى الصحراء. ومن الجدير بالذكر أن رجالى هؤلاء كانوا ينتسبون إلى ثلاثين قبيلة مختلفة بينها دماء ثأر ولولا سهرى عليهم وتشددى لقتلوا عدوًا جديدًا فى كل يوم. كان تباغضهم يمنعهم من التكتل ضدى، كما كان الخلاف المستحكم بينهم ييسر لى ولمبعوثى إيجاد جواسيس لنا فى كل مكان بين العقبة ودمشق وبئر السبع وبغداد. وستون منهم ماتوا فى خدمتى.

(3)

بعيدًا عن خط النار فى (العقبة) كان فى إمكاننا أن نرى الوجة الآخر للوسام. لذلك غمرتنا السعادة أخيرًا عندما تحررنا وخرجنا إلى جبال قويرة.

كان أول فصل الشتاء هذا يمنحنا أيامًا مشمسة دافئة تارة، وطورًا أيامًا قاتمة، كثيفة الغيوم لاسعة البرد.

بقينا فى (قويرة) حتى جاءنا الخبر بأن العمليات ضد طفيلة قد بدأت. وكانت «طفيلة» مركزًا مهمًا يشرف على الطرف الجنوبى من البحر الميت. وكنا قد قررنا أن نعمل من ثلاث جهات: الغرب والجنوب والشرق. على أمل أن نبدأ من الشرق بمهاجمة الجوف أقرب محطة على خط الحجاز الحديدى. وكانت مهمة قيادة هذا الهجوم قد أنيطت بالشريف ناصر المحظوظ يرافقه نورى السعيد رئيس أركان حرب جعفر وبعض القوات النظامية مع مدفع وعدد من الرشاشات. كان الشريف ناصر قد اتخذ من الجفر قاعدة له وخلال ثلاثة أيام وصل رسوله. وكالعادة تبين أن ناصر قد قاد حملته بدقة وكفاءة. أما (الجوف)، هدف الحملة، فقد كانت محطة محصنة، تضم ثلاثة مبان حجرية وعددًا من مراكز المراقبة والخنادق يحميها من الوراء مركز مراقبة حصين أقيمَ فوق تلة وزُود بمدفع وعدد من الرشاشات. وكانت وراء هذه التلة ترتفع قمة عالية هى الأخيرة التى تفصل بين (الجفر) و(باير).

هنا فى هذه القمة كانت تكمن نقطة الضعف فى الدفاع التركى. فالأتراك لقلة عددهم لم يكن فى إمكانهم الدفاع عن المحطة والقمة الجبلية فى وقت واحد. غير أن هذه الأخيرة كانت تشرف على المحطة، حيث فضّل أن يحتشد الأتراك. وذات ليلة احتل ناصر ورجاله دون أى عناء تلك القمة، ثم قطع الخط الحديدى قبل المحطة وبعدها وعزلها عن كل اتصال. ومع تباشير الصباح الأولى فاجأت قنابل مدفع نورى السعيد المركز التركى الحصين فوق التلة القريبة وأسكتت إلى الأبد المدفع التركى الذى كان مقامًا هناك.

على أثر ذلك طار ناصر فرحًا، وهب بنو صخر إلى مطاياهم منقضين على العدو الذى مازال متحصنًا وراء خنادقه رغم محاولات نورى السعيد الذى ردعهم عن هذا العمل الجنونى. غير أن العدو ما أن رأى هذا الهجوم الصاعق حتى خاف سوء المصير، وفر محاولاً الالتجاء إلى المحطة. وقد أسفر هذا الهجوم فى جانبنا عن جرح اثنين جروحًا بليغة.

صوَّب نورى السعيد بعد ذلك نيرانه على المحطة وقصفها قصفًا شديدًا بالقنابل، فيما كان بنو صخر يتابعون انقضاضهم الجنونى على العدو. وأسفرت النتيجة عن سقوط المحطة واستسلام مائتى تركى بينهم سبعة ضباط.

أما الغنائم فقد كانت وفيرة: أسلحة، ٢٥ بغلاً، مؤنًا معدة لضباط المدينة المنورة، ٧ مقطورات مشروبات، سجائر، لحومات باردة إلخ...

وبعد عملية النهب التى اشترك فيها الجميع عمد جنود الهندسة إلى نسف قاطرتين وخزان المياه والمضخة ومفاتيح وصل الخطوط وجسر قريب. وكالعادة بعد النصر كانت الأحمال ثقيلة فخيمنا وراء المحطة التى أضرمنا النيران فى مبانيها. ونحو منتصف الليل سمعنا إنذارًا ثم ظهرت أنوار قطار قادم من جهة الجنوب. وبعد لحظات توقف القطار عند المكان الذى كنا قد قطعناه فى الليلة الفائتة. فأرسل (عودة) كشافة للمراقبة عن كثب، وما كاد الكشافة يعودون حتى دخل على مخيمنا رقيب جاء يطلب الانضمام إلى جيش الشريف. وكان هذا قد جاء من قطار للنجدة يحمل ستين جنديًا فقط مع مدفع واحد، ثم وعد بتسليمنا القطار دون قتال إذا تركناه يعود إلى رفاقه بأخبار مطمئنة. وعلى الأثر استدعى بدوره رجال الحويطات وذهب على رأسهم لإعداد الفخ. غير أن كشافتنا، وقد دفعهم الهوس إلى مهاجمة القطار كانوا قد فتحوا نيرانهم على العدو دون الرجوع إلينا فسارع سائق القطار إلى تغيير اتجاه سيره، وقفل عائدًا إلى معان. وكان هذا هو الشىء الوحيد المكدّر الذى واجهنا فى الجوف.

بعد هذه الغارة ساء الطقس من جديد واستمر تساقط الثلج ثلاثة أيام متتالية. فعاد ناصر ورجاله إلى مخيمهم فى الجفر، وهم فى حالة يرثى لها من الإنهاك تصطك أسنانهم من شدة البرد.

من ضمن مخططنا كان فى حالة نجاح مهمتنا فى الجوف إرسال قوة من عرب بترا بقيادة الشريف عبد المنعم، إلى شوبك، عبر الغابات والجبال. وقد تم ذلك رغم سوء حالة الطقس وتعذر المسير فى الغابات وعلى طرق الجبل الوعرة.

وما أن رأى العدو رجالنا الشجعان يتقدمون برباطة جأش رغم كل الصعوبات والأهوال حتى داخله الخوف والرعب وخرج من مخابئه ومغاوره، حيث كان يحتمى محاولاً الوصول إلى الخط الحديدى قبل أن يقع فى أيدى رجالنا. غير أن عبد المنعم تبع العدو إلى هناك وقصفه بالمدافع مرغمًا إياه على الاستسلام بعد سقوط العديد من الضحايا، ثم استولى العرب بعد ذلك على مخازن «شوبك» القائمة فوق قمة مرتفع مشرف على واد متعرج. ثم اتخذ عبدالمنعم من ذلك المكان الاستراتيجى مقرًا عامًا له وأخبر ناصر بذلك «مستور» الذى هب على رأس رجاله يجتاز الممر الشرقى فى طريقه إلى طفيلة.

غير أن ناصر ربح قصب السباق فقد انطلق من الجفر مجتازًا المسافة كلها فى مرحلة واحدة، وبعد سرى ليلة عاصفة أطل مع خيوط الفجر الأولى على الوادى الذى يلتحف طفيلة ثم أنذر القرية بالاستسلام تحت طائلة القصف بالمدفعية. لم يكن الأتراك سوى ١٨٠ شخصًا فى الرقية. ولكن كان يقف إلى جانبهم بنو محيسن، ليس حبًا بهم، بل نكاية بخصم محلى، هو ذياب الذى أعلن ولاءه لفيصل. وهكذا كان الرد الذى تلقاه ناصر من قعر الوادى طلقة طائشة.

لكى يرد عرب الحويطات على النار تحصنوا وراء حاجز صخرى. ولكن هذا لم يرض «عودة» الليث العريق الذى استشاط غضبًا لأن قرويين مأجورين قد تجرأوا على الوقوف فى وجه بنى تايه أسيادهم التقليديين. وما هى إلا لحظات حتى شوهد «عودة» بعدها يهز زمام فرسه ثم يهبط كالسيل العرم إلى الوادى، حيث تقوم بيوت القرية ويقف فى مواجهة تلك البيوت مهددًا متوعدًا: «أيها الكلاب، ألا تعرفون عودة؟» وما أن عرف الأهالى صوته المزمجر الراعد حتى خانتهم قواهم وارتعدت فرائصهم. وبعد مضى ساعة

واحدة فقط على هذا التهديد كان ناصر يحتسى كوبًا من الشاى فى منزل مضيفه حاكم القرية التركى وقد استسلمت القرية دون قتال.

وفى الليلة الثانية وصل «مستور» إلى القرية. ولكن رجاله من المطالقة عندما رأوا أخصامهم بنى تايه يحتلون أفضل المنازل بدأ الشرر يتطاير من عيونهم. فاضطر الشريفان تحاشيًا لكل اصطدام أن يفصلا بين القبيلتين.

وفى صباح اليوم التالى استفاق الأهالى على تخاصم القبيلتين وتبادلهما الشتائم والتهديدات. ومما زاد من خطورة الوضع فى ذلك اليوم محاولة بنى محيسن تأكيد سلطانهم على أهل القرية الأمر الذى بدا صعبًا بالنسبة للسنوسيين الذين استقدمهم الأتراك من شمالى أفريقيا ومنحوهم أفضل الأراضى الزراعية، وبالنسبة للمهاجرين الأرمن الذين لجئوا إلى هناك بعد التنكيل الذى أصابهم على يد جماعة تركيا الفتاة فى سنة ١٩١٥.

ساد سكان طفيلة قلق رهيب فى ذلك اليوم. وكنا نحن كالعادة تنقصنا المؤن وحيوانات النقل. وكان الأهالى يرفضون تقديم أى عون لنا. لذلك ساورنى الاعتقاد بأنه فى استطاعتهم أن يطردونا من قريتهم. ولكن لحسن حظنا لم يكن عندهم أى ميل للمقاومة. وهكذا كان عدم الاكتراث أقوى حليف للنظام الذى فرضناه. كان فيصل قد كلف شقيقه الشاب زيد بقيادة هذا الهجوم على البحر الميت. وكانت هذه أول حملة لزيد فى الشمال. ولذلك انطلق بحماسة زائدة لاستلام منصبه. وقد اختار جعفر باشا ليكون مستشارًا فنيًا له. وعندما وصل زيد وجعفر إلى «طفيلة» كنا على قاب قوسين من الكارثة بسبب محاولة متعب وعناد الثأر لأبيهم عبطان من (عودة) الذى كان ابنه قد قتله فيما مضى. ولتلافى الكارثة عمد زيد إلى شكر (عودة) ثم دفع له نصيبه وطلب إليه الرجوع إلى صحرائه. وأرسل بنى محيسن ليكونوا ضيوفًا على أخيه فيصل. وبفضل المال الذى حمله زيد معه تحسن وضعنا الاقتصادى. وبعد ذلك عيّنا أحد الضباط حاكمًا ونظمنا خمس قرى لتكون منطلقًا لنا فى عملياتنا الحربية المقبلة.

ومع ذلك سرعان ما حادت مخططاتنا عن الطريق التى رسمناها لها. وكنا لا نزال نتناقض عندما حاول الأتراك فجأة أن يستعيدوا طفيلة منا. فكانت هذه المحاولة كافية لإذهالنا. ولم يكن ليخطر ببالنا مطلقًا أن الأتراك يأملون أو يرغبون فى الاحتفاظ بطفيلة. فـ «اللنبى» كان قد دخل إلى القدس. والمخرج من الحرب بالنسبة للأتراك أصبح منوطًا إلى حد بعيد بدفاعهم عن وادى الأردن. وسواء سقطت أريحا أو لم تسقط فإن طفيلة ستبقى قرية مغمورة لا تُعلق عليها أية أهمية. ونحن أنفسنا لم نكن متمسكين بها، وكل ما كنا نرجوه هو العبور منها إلى مواجهة العدو فى المراكز الأمامية. وفى وضع عسير كوضع الأتراك فى ذلك الوقت بدت المخاطرة لاستعادة طفيلة عملاً جنونيًا.

إلا أن حامد فخرى باشا الذى كان يتولى قيادة القطاع الثامن والأربعين فى جهة عمان كان يرى غير هذا الرأى أو تلقى أوامر عليا. فحشد ثلاثة أفواج مشاة «نحو ٩٠٠ نفر»، ومائة فارس، ومدفعين و٢٧ رشاشًا، ثم أرسلها إلى الكراك. ومن هناك، سار لمهاجمتنا واسترجاع طفيلة. فكان ذلك مباغتة لنا كاملة، ولم نشعر إلا وقد أصبح على مشارف القرية. وبناء على اقتراح جعفر أمر زيد بإخلاء القرية أثناء الليل، والتحصن وراء التلال المحيطة من جهة الجنوب. فساد القرية جو من الاضطراب والخوف والقلق لأن عودة الأتراك كانت تخيفهم. لذلك كانوا مستعدين إلى مساندة كل من يقف فى وجه هذه العودة غير المرغوب فيها. وكنت أنا سعيدًا ملاحظة ذلك لأنه يتفق مع رغبتى فى البقاء فى القرية والمقاومة بأى ثمن.

وأخيرًا صادفت «متعب» و«عناد» شيخى بنى جازى فأرسلتهما للبحث عن عمهما حمد العرار. ولما جاء هذا طلبت إليه أن يذهب إلى شمالى الوادى ويطمئن الأهالى بأننا سننجدهم إذا استمروا فى المقاومة، فتوجه إلى هناك على رأس عشرين من أتباعه بينما توجهت أنا إلى المرتفعات المقابلة لكى أتشاور مع الشريف زيد وكان الشريف زيد جالسًا فوق صخرة هناك يراقب بمنظاره عن كثب سير المعركة بهدوء أعصاب غريب. وكنت أنا

على العكس أتطير غضبًا لأن الأتراك بعملهم هذا قد تخطوا كل القواعد العسكرية. وراودنى الاعتقاد بأن عددهم يجب ألا يكون كبيرًا لسرعة تحركاتهم، لذلك اعتقدت أننا سنتمكن منهم لأن الطقس والمكان والعدد كل ذلك كان إلى جانبنا. وبعد البحث والتدقيق وجدت أن أفضل تكتيك للقضاء على العدو هو رفض العراك معه وجره إلى فخ يتيح لنا تطويقه فيما بعد. فنصحت قبل كل شيء بإرسال عبد الله مع مدفعى هوتشكيس لجس قوة العدو ومواقعه. فأصدر زيد أوامره بذلك وتسلق عبدالله المنحدر المقابل ثم أصلى الأتراك نارًا حامية أشعلت الحماسة فى قلوب أهل القرية الفرسان المطالقة فأغاروا على الفرسان الأتراك وأجبروهم على التقهقر حتى مشارف الوادى.

فى الواقع كان يتجمع القسم الأكبر من جيش الأتراك. ولذلك اضطر عبدالله إلى أن يتوقف بعد أن واجه العدو بسيل من القنابل. فأشرت على زيد بوجوب التقدم ومؤازرة عبدالله ولكنه آثر الانتظار ريثما تصل التعليمات من عبد الله نفسه. وبعد ذلك تقدمت بمفردى للاستطلاع، وتسلقت منحدرًا قادنى إلى رأس تلة مشرفة على الجوار، وجدت أنها تناسب جدًا لأن تكون آخر خط دفاعى لنا نحشد فيها احتياطينا. وقد كلفت بذلك بنى عقيل أتباع زيد الشخصيين وعددهم نحو العشرين.

وفيما كنت أتابع استطلاعى فى الشمال من جهة المعركة التقيت عبد الله وقد جاء ينقل الأخبار لزيد فقد نفدت منه الذخائر وفقد خمسة من رجاله، وحسب اعتقاده يوجد مع العدو مدفعان. وكان من رأيه أن يتقدم زيد ويواجه العدو فى معركة مكشوفة، فلم أزد شيئًا على ذلك وتركت أسيادى السعداء يتخذون قرارهم بأنفسهم. وفى انتظار ذلك انصرفت إلى دراسة المكان الذى ستدور فيه معركتنا المقبلة. لقد كان سهلاً صغيرًا تحيط به سلاسل من التلال المخضوضرة ويمر فيه طريق طفيلة - الكراك. وكان الأتراك يسيرون على هذا الطريق ببطء وهم يردون على نيراننا بعد أن تمكن عبدالله من احتلال التلة الغربية واتخذها خطًا لنيراننا مؤقتًا. وفيما كنت أتطلع حولى رأيت جنود العدو يتسلقون التلة الشرقية وراء الخندق الذى يمر فيه طريق الكرك على أمل مفاجأتنا من الجانب الأيمن.

(5)

كنا نحن ستين شخصًا مقسومين إلى مجموعتين وراء التلة الأولى عند أسفلها والثانية عند أعلاها. فى الأسفل كان يوجد القرويون المشاة الذين قالوا لى إن ذخائرهم قد نفدت، ولم يعد فى إمكانهم الصمود، فطمأنتهم بأن الأحوال ستتحسن وأن احتياطينا فوق التلة سيشغل العدو عنهم ريثما يتزودون بالذخائر اللازمة ويعودون إلى مراكزهم. توجهت بعد ذلك إلى القمة لأتفقد رجالنا هناك. كان على رأسهم الشاب متعب الذى سعى جهده كى يبرهن لنا عن مقدرته فى معركته الأولى هذه. وفيما أنا اتحدث إلى «متعب» أصلانا العدو نارًا حامية أجبرتنى على التوازى مع الطلب إلى متعب بالصمود لمدة عشر دقائق إذا كان ممكنًا، ففعل ثم أخلى المكان ولحق بى إلى التلة الثانية، حيث كان يحتشد رجالنا من بنى عقيل.

كانت تلتنا هذه ترتفع نحو ٤٠ قدمًا وذات شكل مناسب للدفاع. وكان عليها ثمانون من رجالنا والآخرون يأتون تباعًا. كان حراسى هناك مع رشاشاتهم وكان لطفى يسرع الخطى إلى اللحاق بنا مع مائة آخرين من بنى عقيل يحملون رشاشين. وعلى الأثر عمدنا إلى تركيز الرشاشات.

وبعد الظهر وصل زيد ومعه مستور وراسم وعبد الله على رأس خمسين فارسًا من المطالقة ومائتين من القرويين وكانوا مزودين بخمسة رشاشات صغيرة وأربعة كبيرة وبمدفع جبلى.

ما إن رأى الأتراك تجمعنا حتى فتحوا النار علينا، فقررنا أن نتحرك وكلفنا راسم بأن يتولى قيادة خيالتنا الثمانين ويحاول تطويق جناح العدو الأيسر من وراء التلة الشرقية. ثم عمدنا إلى إظهار رجالنا فى الوسط كى لا نتيح للعدو فرصة ملاحظة حركة خيالتنا ورحنا نرد على نيرانه بالمثل. وفيما نحن كذلك جاءتنا نجدة تضم مائة رجل كلفناهم بتطويق جناح العدو الأيسر، من جهة الغرب.

نجحت خطتنا وفوجئ العدو بنيراننا تقصفه من الخلف ومن الأمام، فلم يعد يدرى ماذا يفعل. وعلى الأثر أصدرنا أوامرنا إلى الهجانة والمشاة من القرويين بأن يتقدموا

فسار محمد الغاضب على رأسهم يحمل راية بنى عقيل. وفيما كان راسم وخيالته يجبرون العدو على التقهقر نحو المنخفض كان رجالنا يحصدون الهاربين حصدًا، وكان قلب جيش العدو يتراجع مذعورًا أمام هجانتنا ومشاتنا المغيرين بقلوب عامرة بالحماسة. كانت حصيلة تلك المعركة الضارية التى انتهت بانتصاره «مدفعين» سكودا و٢٧ رشاشًا، و٢٠٠ حصان وبغل، و٢٥٠ أسيرًا، و٧٥٠ قتيلاً. ولم ينج من الأتراك إلا نفر قلائل استطاعوا الهرب نحو الخط الحديدى.

وفيما نحن عائدون إلى طفيلة أخذ الثلج يتساقط. ودامت الحال على هذا المنوال ثلاثة أيام متتالية لم نفعل خلالها شيئًا سوى الانتظار وإرسال تقرير بالنتائج إلى القيادة العامة فى فلسطين نلت من جرائه وسام الاستحقاق ورضا القائد العام.

●●●

(6)

كان الدرس الذى تعلمته من «الحسا» هو الربح الوحيد الذى أفدناه منها. فما من شىء يمكنه أن يجرنا بعد اليوم إلى معركة إلا إذا قررناها نحن. بعد ثلاثة أيام نظمنا عملية رصينة ناجحة بالتعاون مع عبد الله الغير الذى كانت مضاربه قائمة إلى الجنوب منا فى هذا الفردوس الأرضى القائم على الشاطئ الجنوبى للبحر الميت حيث الخضرة التى تأخذ الألباب. فقد حمل له رسولنا خبر انتصارنا فى طفيلة، وعرض عليه باسمنا مشروع غارة مشتركة على ميناء الكرك الواقعة على شاطئ البحر الميت، الهدف منها إتلاف الأسطول التركى الراسى هناك.

اختار عبدالله الغير نحو سبعين فارسًا من بدو بئر السبع وسار على رأسهم ليلاً قاطعًا الطريق الوعرة بين جبال مؤاب والساحل لكى يصل مع التباشير الأولى للفجر إلى مقربة من المركز التركى. ثم أغار على الجون الشمالى حيث كانت ترسو الزوارق البخارية والمراكب الشراعية التابعة للأتراك، وبالقرب منها بحارتها نائمون على الشاطئ غير عابئين بشىء فى أكواخ من القصب.

لم يكن هؤلاء البحارة مستعدين أبدًا لمعركة برية، فكيف بها تأتيهم على يد فرسان راكبين. لذلك ما كاد هؤلاء البحارة يفتحون عيونهم ليعرفوا ما الخبر حتى رأوا النار تلتهم أكواخهم والفرسان يطوقونهم وينهبون ما فى مخازنهم، ثم يثقبون مراكبهم فى عرض البحر الميت لإغراقها، فاستسلموا صاغرين دون مقاومة تذكر. وعاد رجالنا مكللين بأكاليل الغار يجرون وراءهم الأسلاب ويسوقون الأسرى وعددهم يناهز الستين. وهكذا فى ٢٨ كانون الثانى نفذنا المرحلة الثانية من أهدافنا: تعطيل حركة النقل عبر البحر الميت قبل أسبوعين من التاريخ الذى حددناه للجنرال اللنبى.

كانت المرحلة الثالثة من أهدافنا، مصب الأردن بالقرب من أريحا قبل نهاية آذار. وكان يمكن لهذه العملية أن تبدو سهلة المنال لولا الطقس السيئ والخوف من الآلام التى كانت تشلنا منذ يومنا الأحمر فى الحسّا. فى «طفيلة» كانت الأحوال قد تحسنت بعد أن أمدنا فيصل بالمؤن والذخائر وبعد أن وثق الأهلون بقوتنا وهبطت الأسعار. وكانت القبائل الضاربة فى منطقة الكراك تتصل يوميًا بالشريف زايد معلنة ولاءها واستعدادها لحمل السلاح إلى جانبنا ساعة نشاء.

ولكن حمل السلاح هو الشىء الذى كان متعذرًا علينا فى ذلك الوقت. فالشتاء القاسى كان يجبر الرجال والمشايخ على اللجوء إلى القرية اتقاء للبرد القارس والثلج. وفى الواقع كان الخروج فى مثل هذا الطقس إذا تمّ يعتبر ضربًا من الجنون. يضاف إلى ذلك أن الجمال غير معتادة على مثل هذا الطقس. وقد اضطررنا أن نرسلها إلى الغور بعد أن نفد عندنا الشعير وغطى الثلج العشب. وكانت الغور هذه على مسيرة يوم كامل عنا. وهكذا كتب لنا أن ننتظر ونتحمل البرد وقرص البراغيث. ومن يوم إلى آخر كان التوتر يزداد بيننا لعدم وجود ما يلهينا عن ذلك. وقد انفجر أخيرًا عراك بالخناجر بين عواد ومحمس اللذين نالا جزاءهما عددًا من الجلدات.

حملتنى هذه الحياة المملة تارة المثيرة للأعصاب تارة أخرى على تسريح رجالى من الحرس ريثما أذهب بنفسى إلى «العقبة» وأحضر ما نحتاجه من مال لعملياتنا المقبلة، بعد أن صرف زيد أكثر ما كان معنا على التموين فى طفيلة وعلى عملية الكرك.

وهكذا فى يوم صحو ركبت مع خمسة من الرجال وكانت وجهتنا قويرة. ولكن ما كدنا نصل إلى الرشيدية حتى عاد الجو إلى التلبد وأخذت الرياح تعصف باردة جداً من الشمال الشرقى. وعند شوبك بدأ المطر ينهمر بغزارة، ولكننا آثرنا متابعة السير على التوقف والموت من البرد. وهبط الليل ومعه الضباب الكثيف ليلفنا فى ناحية أذرع. وبعد عناد لا فائدة منه قررنا أن نتوقف فى مكان واقٍ ريثما يطلع علينا ضوء النهار.

وفى الصباح اكتشفنا أن الطريق تمر على مسافة ربع ميل إلى اليسار فاتجهنا إليها سيرًا على الأقدام لتعذر الركوب فى مثل ذاك الطقس الجليدى.

بعد ظهر ذلك اليوم كنا قد نجحنا فى قطع مسافة الأميال العشرة التى كانت تفصلنا عن أبى اللسن. وهنا أصبح الطقس أدفأ والسير أسهل. فركبنا مطايانا، نشد حتى سهل قويرة، حيث الدفء والراحة فى مخيم قواتنا المعسكرة هنا. فوصلناه بنجاح منهوكى القوى.

●●●

(7)

تلا وصولنا ثلاث ليال استراحة قضيناها فى معسكر المصفحات فى قويرة. ولحسن حظى وجدت هناك «آلن دوانى» و«جويس» وآخرين. فلم أشعر بوحدة أو بملل، بل شعرت بكثير من الغبطة. أما أصدقائى على العكس فقد اغتاظوا قليلاً من حسن طالعى. فالحملة الكبرى التى كانوا قد نظموها مع فيصل قبل أسبوعين على «المدوّرة»، آلت إلى الفشل. ومن أسباب ذلك كما قالوا كانت المشكلة المزمنة الناجحة عن وجود القوات النظامية مع قوات غير نظامية ثم محمد البدوى.

وهذا الأخير، وقد وضع على رأس بنى عطية كان فى أحد الأيام قد توجه مع رجاله نحو الآبار وأعلن التوقف للقيلولة التى دامت شهرين، وجعلت محمد البدوى ينسى واجباته بل العالم كله من حوله وقد نعم بالماء والكلأ.

فى هذه الأثناء وصلتنى من «العقبة» ثلاثون ألف ليرة ذهبية مع ناقتى الشهيرة «وديعة». ولما كان حراسى موزعين بين طفيلة والأزرق فقد طلبت من فيصل حاشية مؤقتة

فأعارنى فارسين من بنى عتيبة، أحدهما «سرج» والثانى «رميض». وكلف بمرافقتى أيضًا الشيخ «مطلق» الذى ذاع صيته أثناء الجولة الاستكشافية بالسيارات المصفحة فى ناحية تبوك الواقعة فى السهول المحيطة بالمدورة.

والسبب فى تلك الشهرة أن الشيخ مطلق كان مسئولاً عن الغارة لأنه كان الوحيد بين القائمين بها الذى يعرف الطريق. وفيما كان من على متن سيارة الفورد يدل على الطريق والسيارات منطلقة بسرعة بين كثبان الرمال انقلبت السيارة، وقذفت بالشيخ مطلق بعيدًا، الأمر الذى جعل سائقها مارشال يتوقف ويسرع مستعدًا لتقديم الاعتذار ولكن الشيخ نهض ونفض الرمال العالقة على رأسه وثيابه وفاجأه مارشال بقوله: «لا بأس عليك فلست معتادًا على ركوب هذا النوع من الحيوانات».

كان الذهب معبأ فى أكياس بمعدل ألف ليرة فى كل كيس فحملت أنا كيسين على ناقتى ثم كلفنا أربعة عشر من رجال الشيخ مطلق العشرين بحمل الباقى، بمعدل كيسين لكل منهم. وعند الظهر بدأنا المسير على أمل اجتياز مسافة محترمة قبل الوصول إلى الجبال، ولكن المطر بدأ يتساقط بغزارة لسوء الحظ بعد نصف ساعة من ارتحالنا فأعاق سيرنا.

أثناء ذلك لمح الشيخ مطلق خيمة مضروبة فوق تلة رملية هى خيمة الشريف فهد، ورغم إلحاحى بمتابعة السير قرر مطلق قضاء الليل هناك ورؤية ما سيخبئه الغد لنا لاجتياز الجبال. وبما أنه كان مصرًا على ذلك ولا مجال لإقناعه بتغيير رأيه فقد ودعته وتابعت طريقى مع حارسىَّ وستة من عرب الحويطات كانوا متجهين إلى شوبك انضموا إلى قافلتنا.

أخّرنا النقاش. لذلك لم نصل إلى معابر الجبال إلا عند هبوط الليل مما جعلنا بسبب المطر نحسد «مطلق» على الضيافة التى لاقاها فى خيمة الشريف فهد. وفيما نحن كذلك، تراءى لنا بريق نور إلى يسارنا فقصدناه عبر الوادى وإذا به مخيم صالح بن شفيع ومعتوقيه المائة من ينبع. فاستقبلنا وبتنا تلك الليلة ضيوفًا عليه.

فى الصباح الباكر ودعنا مضيفنا، وعدنا إلى متابعة سيرنا بين مطاوى الجبال التى غطّى الثلج قممها. وما أن وصلنا إلى القمة الأخيرة حتى واجهتنا ريح شمالية شرقية قارسة البرد إلى درجة جعلتنا نبحث فورًا عن ملجأ يقينا فتوجهنا نحو الوادى على أمل العثور على مخيمات بعض الأصدقاء هناك حتى لا يقضى رجالى نحبهم من البرد الشديد. وقد تحاشينا بذلك المرور فى المرتفعات التى يحتلها مولود ولم نصادف أيًا من رجاله الذين يواجهون العواصف بصبر وجلد.

منذ شهرين وهؤلاء الرجال التابعون لمولود يعسكرون فوق هذه المرتفعات على علو أربعة آلاف قدم عن البحر، لا ملجأ لهم سوى المغاور المحفورة فى لحف الجبل، ولا نار سوى تلك التى يشعلونها من الزبل المبلل. وكانت لا تستر أجسامهم المرتجفة سوى ثياب صيفية صنعت فى الأساس ليرتديها الجنود البريطانيون فى الصيف. كما لم يكن عندهم ما يفترشونه ويلتحفون به سوى أكياس الدقيق الفارغة.

أكثر من نصف هؤلاء الرجال قضوا نحبهم من البرد أو مرضوا بسبب الرطوبة، أما الباقون فقد صمدوا فى مراكزهم وكانوا فى كل يوم يصلون مراكز العدو الأمامية نارًا حامية تضطره إلى الانكماش والبقاء فى مكانه. لذلك ندين نحن لهؤلاء الأبطال بالشىء الكثير وبصورة أخص لمولود الذى كان لهم مثلاً وقدوة.

وتاريخ هذا المحارب القديم فى الجيش التركى كان صراعًا مستمرًا جره إليه تعلقه الشديد بالشرف وتمسكه العنيد بالقومية العربية. وفى سبيل هذا الإيمان الصامد بالشرف والقومية ضحّى مولود بمركزه أكثر من مرة. وكم يجب أن يكون قويًا ذلك الإيمان الذى حمل صاحبه على الصمود مدة ثلاثة أشهر فى وجه العدو الرابض فى معان رغم سوء الطقس.

وبالنسبة لنا كان اليوم الوحيد الذى أمضيناه فى تلك المنطقة كافيًا لإنهاكنا، وجعلنا نتمنى خلاصنا منه بأسرع ما يمكن. فعلى القمة بالقرب من «أبو اللسن» كانت الأرض مغطاة بطبقة سميكة من الجليد كما كانت الريح الباردة تلفح أجسامنا كالأسواط. وتابعنا

المسير فى هذه الظروف القاسية نمشى تارة ونركب طورًا، مقاومين البرد والرياح. وعند المساء وصلنا إلى «ساقية بسطة». ولكن خوفًا من أن يحل التعب بالرجال والمطايا، إذا ما توقفنا للمبيت قررت أن أتابع السير ليلاً. إلا أنه نحو الساعة التاسعة، ارتمى الرجال أرضًا ورفضوا بإصرار متابعة المسير. فنزلت عند طلبهم وجعلنا الجمال بشكل دائرة، ثم احتمينا بها من العاصفة متمددين داخل الحلقة.

عاودنا المسير مع الفجر بعد أن استعدنا قوانا. وقبيل الظهر بلغنا خرائب أدرع، فانحرنا إلى اليمين تحاشيًا للبدو الضاربين بين أذرع وشوبك. غير أن رفاقنا من عرب الحويطات على عكس ذلك، كانوا يريدون منا أن نسير رأسًا إلى حيث يخيم البدو. ومرافقيّ من بنى عتيبة كانا ثائريْن لما أصابهما من إنهاك. لذلك أصرا على الذهاب إلى الخيام المضروبة، فتوقفنا على قارعة الطريق نتجادل والثلج يتساقط علينا.

بالنسبة لى كنت أشعر بحيوية وسعادة وبنفور من الضيافة الطويلة العديمة الفائدة. وقد أتاح لى نفاد الأموال مع زيد، أن أنازل الشتاء فى هذه المعركة الفريدة. كانت عشرة أميال مازالت تفصلنا عن شوبك، ولكن كان لايزال أمامنا خمس ساعات من النهار فقررت أن أتابع طريقى وحدى غير عابئ بشىء يشجعنى على ذلك أن الطريق ملكى أنا وحدى، لتعذر خروج أى واحد آخر عربيًا كان أم تركيًا، فى مثل هذا الطقس. وأخذت أكياس الذهب الأربعة التى كانت مع «سرج» و«رميض» ثم تركتهما ينضمان إلى البدو، وتابعت طريقى.

عقب غروب الشمس توقف الثلج عن السقوط، وكنت حينئذ أهبط المنحدر المؤدى إلى نهر شوبك. وبعد صعوبات جمة نجحت فى عبور النهر المتجمد، وتسلقت التلة المقابلة متابعًا سيرى إلى القرية على أمل وجود الشريف عبد المعين فيها. وبعد أن اجتزت طريق القرية الرئيسى وصلت إلى القصر العتيق الذى اتخذه عبد المنعم مقرًا رسميًا له. وما أن ناديت حتى فتح لى باب كبير ولجت منه إلى الداخل معلنًا عن نفسى وعن حاجتى السريعة إلى عشاء أتناوله مع السيد، فاقتادنى الخدم إلى حيث يسهر الشريف عبد المعين.

وبعد التحية والسلام أعطانى عبد المعين ثيابًا جافة فتخلصت من ثيابى المبللة، واحتسينا بعد ذلك كوبين من الشاى بانتظار إعداد الخروف المحمر. وفيما نحن نتناول طعامنا شرح لى عبد المعين أنه ورجاله المائتين، لم يعد لديهم مال ولا طعام بعد أن حال الثلج دون عودة رسله الذين أرسلهم فى طلب ذلك من عند فيصل. ولإنقاذه من ورطته سارعت إلى إعطائه ٥٠٠ ليرة ذهبية على الحساب قائلاً: إن زيد يعانى هو الآخر أزمة مماثلة.

فى صباح اليوم التالى أعلنت عزمى على متابعة المسير، فأصر عبد المعين على إرسال اثنين من رجاله معى. ولكننى ما أن وصلت إلى السهل حتى أمرتهما بالعودة إلى سيدهما، وتابعت وحدى تارة على الأقدام وطورًا على متن «وديعة»، كما فعلت فى الأمس. فى هذه الأثناء كان المطر قد عاد ينهمر من جديد وعادت الرياح الشمالية الشرقية بسمومها كذلك تلفح جسمى الواهن. وبعد مسير ثلاث ساعات نجحت فى اجتياز السهل. ولما وصلت إلى معارج الجبال وجدت أن الثلج قد محا كل معالمها فرحت أتلمس طريقى بين الثلوج بصعوبة زائدة. وبعد ثلاث ساعات أخرى نجحت فى الوصول إلى قمة الجبل التى كانت الرياح الغربية قد خففت سماكة الثلوج عنها، فتابعت المسير وقد تشدد عزمى، وكانت فى الأسفل تمتد أمام ناظرى بيوت دانا وخلفها واحة وادى عربة المخضوضرة. وبعد صعوبات كثيرة أشرفت على قرية الرشيدية السنوسية فى الشمال.

فى هذه الناحية من الجبل التى تعرضت إلى أشعة الشمس طوال بعد الظهر والتى لا تصلها الرياح كان الثلج قد بدأ يذوب تاركًا طبقة من الوحل اللزج الذى جعل مسيرنا ضربًا من الجنون. هناك وجدت بعضًا من جنود زيد كان الطقس قد حجزهم ومنعهم من اللحاق بفيصل فى الوقت المناسب. وما أن سمعوا بمقدمى حتى خرجوا من بيوتهم لاستقبالى. ولما سألتهم عن الأخبار قالوا لى: إن كل شىء على ما يرام. ولذلك بعد استراحة وجيزة ركبت من جديد لاجتياز الأميال الثمانية الباقية التى مازالت تفصلنى عن طفيلة. ولما وصلت هناك سلمت زيدًا رسائله وشيئًا من المال، ثم أويت إلى فراشى طلبًا للراحة التى تقت إليها جدًا.

استيقظت فى صباح اليوم التالى لأجد نفسى أعشى تقريبًا بسبب الثلج ولكن بكامل قوتى يملأ الحبور صدرى. فرحت أبحث عما يشغلنى ريثما تصل الدفعة الثانية من الذهب. وقررت فى النهاية أن أتوجه إلى مشارف الكرك وأدرس عن كثب الطريق التى سنسلكها فى تقدمنا فى وادى الأردن. لذلك طلبت إلى زيد أن يستلم من الشيخ مطلق الأربع والعشرين ألف ليرة.

كان يوجد فى «طفيلة»، كما قال زيد، إنجليزى آخر. أدهشنى الخبر، فذهبت لزيارة الملازم «كير كبرايد»، وهو ضابط شاب من الأركان العامة يجيد التكلم باللغة العربية أرسله «ديدس» لإعداد تقرير للاستخبارات العامة عن إمكانات جبهتنا. وكان هذا بداية عمل مشترك لصالحنا، وعلى حساب «كير كبرايد» فقد بقى هذا الشاب الغامض العنيد مدة ثمانية أشهر الرفيق الصامت للضباط العرب.

كان البرد قد خفت وطأته وبات فى إمكاننا السير فوق المرتفعات فاجتزنا وادى «حسا» وأشرفنا على وادى الأردن الذى بدأت تتردد فى أعماقه أصداء تقدم «اللنبى» المظفر فى فلسطين. ومن الأهالى عرفنا أن الأتراك كانوا لا يزالون فى أريحا، فعدنا إلى (طفيلة) راضين عن جولة استكشاف أنارت لنا الطريق فى المستقبل بيننا وبين الإنجليز. كانت الطريق دائمًا ممكنة وأحيانًا سهلة. وكان الطقس جميلاً إلى درجة كان يمكننا معها أن نبدأ العمل دون تأخر، على أمل الوصول إلى غايتنا فى ظرف شهر من الزمن.

أصغى زيد إلى كلامى دون تأثر. وكان (مطلق) إلى جانبه فحييته وتبادلت معه بعض النكات. ثم عدت إلى تعداد ما يمكننا عمله فورًا، فأوقفنى زيد قائلاً: (ولكن هذا يتطلب أموالاً كثيرة). فقلت: (أبدًا، إن الأموال التى فى حوزتنا تفيض عن حاجتنا). غير أن زيدًا رد قائلاً بأنه لم يعد يمتلك شيئًا من المال وقد صرف كل ما حملته له منه. فظننت أنه يمزح فى بادئ الأمر، ولكنه أصر موضحًا أنه كان عليه ديون كثيرة إلى دياب شيخ طفيلة والى القرويين وكذلك إلى عرب الحويطات وبنى صخر.

اعترانى على الأثر ذهول كبير. فكلام زيد يعنى القضاء المبرم على كل مخططاتى وآمالى والعجز الكلى عن تنفيذ الوعد المقطوع للجنرال (اللنبى). ولكن زيد أصر ثانية

على أنه لم يعد لديه مال. فتركته حانقًا ورحت أبحث عن الحقيقة عند الشريف ناصر، الذى أجبرته وعكة صحية على ملازمة الفراش فصدقنى القول بأن الأمور ليست على ما يرام لأن زيدًا لا يزال فتيًا عاجزًا عن أن يقاوم مستشاريه الخبثاء وغير الشرفاء.

أمضيت تلك الليلة كلها فى التفكير والبحث عن مخرج من هذا المأزق، ولكن عبثًا. وفى الصباح لم أجد أمامى سوى إرسال كلمة إلى زيد، طالبت فيها بإعادة المال وإلا فإنى مضطر للذهاب. فرد علىّ بأن أرسل كشفًا بالحساب. وفيما أنا أعد حقائبى وصل (جويس) و(مارشال). فقد جاءا من (قويرة) لمفاجأتى. اطلعتهما فورًا على ما نحن فيه وقلت إننى عائد إلى مقر اللنبى لكى أطلب منه تكليفى بأى عمل آخر. تدخل جويس عبثًا مع زيد، ووعدنى أخيرًا بشرح الموقف كاملاً إلى فيصل.

كلفت (جويس) فضلاً عن ذلك بتصفية كل ما يتعلق بى هناك، وتمكنت من أن أغادر طفيلة بعد ظهر ذلك اليوم إلى بئر السبع بصحبة أربعة رجال فقط، وهى أقرب طريق مؤدية إلى مقر القيادة العامة. وفى قرية بوصيرة توقفنا للاستراحة وتناول شىء من الطعام. ثم تابعنا سيرنا على أمل الوصول إلى بئر السبع، فى صباح اليوم التالى. وفى وادى عربة ضللنا الطريق وأضعنا نصف الساعة من الزمن فى محاولة الاهتداء إلى الطريق الصحيح. فوفقنا إلى ذلك بعد جهد.

وفى المنعرجات الصغيرة التى تسبق وادى مرة وقع نظرنا فجأة على نار متأججة، ولكننا لم نجد أحدًا حولها رغم أنها تؤكد وجود أناس هناك. وبعد البحث تبين لنا أنها نار أشعلتها كتيبة سيارات مصفحة بريطانية تقوم بجولة استكشافية للبحث عن طريق صالحة للربط بين سيناء والعقبة. وكان أفرادها قد اختبأوا بين أشجار الغابة لدى سماعهم وطء أقدامنا.

وفيما نحن نعبر الممر مع الخيوط الأولى للفجر هطل علينا رذاذ خفيف ولكنه لم يعرقل سيرنا بل تابعنا اجتياز السهل. وعند الظهر وصلنا إلى بئر السبع.

حال وصولنا إلى بئر السبع علمنا أن أريحا قد سقطت. فهرعت إلى مقر قيادة (اللنبى) العامة ووجدت هناك (هوغارت) فاعترفت له بأننى أفسدت كل شىء وبأننى جئت أطلب من

(اللنبى) تكليفى بعمل آخر أكثر تواضعًا. لقد بذلت كل ما عندى من طاقة فى هذه القصة العربية وخرجت منها نهائيًا لا أحمل سوى حكم خاطئ على زيد، أخى فيصل، الرجل الطيب الذى كنت أكن له ود واحترام. والآن لم يعد يوجد فى جعبتى ما له أدنى قيمة فى السوق العربية. ولذلك جئت أطلب لنفسى الأشياء العادية المألوفة، وبالتالى عدم المسؤولية.

كنت أشكو من نفسى، فمنذ أن وطئت قدماى أرض العرب وأنا حر فى الاختيار، لا أتلقى الأوامر من أحد. وكنت قد تعبت كثيرًا حتى الإنهاك من لعب دور الحكم وما يحيط به. سنة ونصف السنة أمضيتها فى الحركة العربية وأنا أقطع على متن الجمل (١٥٠٠) كلم شهريًا، هذا عدا السفر بالطائرات أو السفن أو السيارات المصفحة. وكنت خلال هذه المدة قد جرحت مرارًا وقاسيت الكثير من الألم والجوع والبرد والقذارة.

وهذه المتاعب ما كانت لتعنى شيئًا نظرًا لعدم إكتراثى بما هو جسدى وإنما هناك الخداع المرهق الذى اضطررت أن أحمل نفسى وزره وهو ادعاء قيادة ثورة وطنية لعنصر آخر بعد أن لبست لها لباسًا لا عهد لى بمثله من قبل، وتسلحت بلغة أجنبية يصعب علىّ التبشير بها، مع يقينى التام بأن (الوعود) التى أطلقناها للعرب لن تكون لها أية قيمة عملية فيما بعد إلا بمقدار ما سيظهر العرب أنفسهم من قوة. وأما الآن بعد الذى رأيته وقاسيته فقد ضقت أنا بنفسى وبت أخاف من الوحدة والمسؤولية.

●●●

(8)

بقى هوغارت صامتًا. ولما انتهيت من حديثى اقتادنى بدبلوماسية إلى مكتب «كلايتون» حيث تناولنا طعامنا. وهناك علمت بأن (سماطس) قد جاء إلى فلسطين مبعوثًا من قبل وزارة الحربية ومعه تعليمات من شأنها أن تغير وضعنا كليًا تقريبًا. ولمدة أيام كانت الأركان العامة قد حاولت عبثًا دعوتى إلى مؤتمراتها واجتماعاتها. وقد أرسلت أخيرًا بعض الطائرات للبحث عن طفيلة فرمى الطيارون رسائلهم فوق (شويك) بين الأعراب الذين آثروا عدم الحركة فى ذلك الجو القارس البرد.

وبعد إطلاع (كلايتون) على عزمى رفض هذا رفضًا باتًا حججى وقال إن قضية تَركى للحركة العربية فى الظروف الجديدة ليست واردة أبدًا. فالشرق لم يكد يتحرك ويفيق من سباته. و(اللنبى) بدوره قال لى إن وزارة الحربية تعتمد عليه لرفع الضيق عن الجبهة الغربية. لذلك عليه أن يحتل على الأقل دمشق وحلب فى أقرب وقت ممكن ويجب القضاء نهائيًا على قوة تركيا الضاربة فى المنطقة ومصاعبه ناتجة حاليًا عن جناحه الأيمن الذى يعتمد على وادى الأردن. وقد استدعانى لمعرفة ما إذا كان العرب قادرين على تحمل هذا الحمل عنه.

لا مجال لأى تهرب أو تملص. فقد فرض علىّ أن أعود من جديد إلى لبس قناع الخداع فى الشرق. ورغم الاحتقار الذى أواجه به أنصاف الحلول سارعت إلى القناع لألعب الدور المناط بى. وكل ما قلته هو سؤال (اللنبى) إذا كان لا يزال يوافق على مخططى الذى كنت أعددته سابقًا لاحتلال وادى الأردن. فأجاب بالموافقة وسألنى إذا كنا لانزال قادرين على ذلك. فأجبت لا فى الوقت الحاضر. إلا إذا تمت تصفية بعض الأمور أولاً.

وقد كانت (معان) أولى هذه الأمور، وكان علينا احتلال هذه المدينة قبل الانتقال إلى منطقة أخرى. فلو زودت القوات العربية النظامية بوسائل نقل كافية، لبات فى إمكانها أن تنتقل إلى شمالى (معان) وتقطع الخط الحديدى بصورة دائمة الأمر الذى سيضطر حامية معان التركية على الخروج لمواجهة تلك القوات وعندئذ يلزمنا (٧٠٠) جمل للنقل وعدد من المدافع والرشاشات وضمان ضد هجوم محتمل من جهة عمان فيما نحن نصفى قضية معان.

ثم وضع مخطط شامل على هذه. وأمر اللنبى بإرسال وحدتين من الهجانة إلى (العقبة) كما وعد بتقديم ما يلزمنا من المدافع والرشاشات. أما بشأن حمايتنا من هجوم محتمل من جهة عمان فقد أعلن (اللنبى) بأن ذلك ليس صعبًا لأنه كان ينوى لحماية جانب قواته نفسها احتلال السلط على الضفة الشرقية من الأردن وإبقاء حامية هندية فيها. وفى الغد عقد مؤتمر لضباط الأركان ودعيت شخصيًا لحضور ذلك المؤتمر.

لقد تقرر فى ذلك المؤتمر أن ينتقل الجيش العربى على جناح السرعة إلى مشارف معان كمقدمة للاستيلاء عليها. ومن جانبهم سيجتاز الإنكليز نهر الأردن ويحتلون السلط، ثم يعمدون إلى تعطيل الخط الحديدى جنوبى عمان وبصورة خاصة النفق. وبعد ذلك سنرى إلى أى مدى سيسهم عرب عمان فى هذه العملية الإنكليزية.

■ ■ ■

8

تحريـر..
الأردن ودمشـق

■■



(1)

بعد وصول النجدات من الهند والعراق أصبح (اللنبى) قادرًا على وضع خطة للهجوم، طالما أن قواتنا وقوات العدو تكاد تكون متساوية فإن النصر سيكون مرهونًا بلباقتنا فى خداع الأتراك. كان يتوجب علينا إقناعهم بأن كل الخطر بالنسبة لهم يكمن فيما وراء الأردن. كان يمكننا الإسهام فى ذلك ببقائنا ساكنين مدة ستة أسابيع وبالتظاهر بالضعف الذى سيحمل الأتراك على مهاجمتنا وعندئذ يتزعم العرب قيادة الحركة فى الفترة الحرجة بقطعهم الاتصال عن طريق الخط الحديدى بفلسطين.

غير أن تكتيكًا كهذا للحيل والخداع يفترض حسن اختيار الوقت الأنسب للعمل الأفيد، بعد أن انهار التوازن نتيجة للانسحاب التركى السابق لأوانه فى فلسطين.

كانت ثقة «اللنبى» بنفسه قوية كالحائط. وقبل الهجوم قام بجولة على قواته المتجمعة سرًا بانتظار إشارة البدء فى التحرك. وأفصح لها عن يقينه من أنه بمساعدتها سيتمكن من أسر ثلاثين ألفًا من جنود العدو وكانت خطته تقضى بحشد قوات الخيالة والقسم الأكبر من قوات المشاة بين بساتين الليمون والزيتون فى «الرملة». وكان يأمل أن يتمكن فى الوقت نفسه بواسطة سلسلة من التظاهرات فى وادى الأردن من حمل الأتراك على الاعتقاد بأنه يحشد جيوشه فى تلك المنطقة.

وكنا آنذاك فى أواخر تموز. وفى نهاية آب يجب أن يبدأ التحرك على درعا. ومع ذلك كان يجب ارشاد فوج الهجانة فى تنفيذ مخططه وانذار نورى الشعلان كى يبدأ

استعداداته ودل السيارات المصفحة على طريق الأزرق وإيجاد أراضى صالحة لهبوط الطائرات. إنه شهر زاخر بالعمل. ونورى الشعلان الأكثر بعدًا كان أول ما شغل اهتمامنا. فطلبنا إليه أن يأتى لمقابلة فيصل فى الجفر حوالى السابع من آب. وتوجهت إلى «العقبة» حيث وجدت باقى حراسى على أتم الاستعداد للسير نحو النصر. وكنت قد وعدت الحوارنة منهم بأنهم سيحتفلون بهذه المناسبة الكبرى فى قراهم المحررة وتاريخ هذا التحرير بات وشيكًا. ثم تحركنا باتجاه قويرة، وما إن وصلنا إلى هناك حتى وجدت «سدونز» ينتظرنى مع طائرته لأن فيصل ونورى الشعلان يريداننى معهما دون تأخر فى الجفر، فركبنا الطائرة. وقبل منتصف الليل كان قد انتهى وضع الإشارات ليسترشد بها الرجال حتى نقطة الصفر. وكانت الساعة الرابعة إلا ربعًا صباحًا قد حددت لبدء العمليات العسكرية ضد المدورة. وكانت تباشير الصباح قد بدأت تلوح عندما بدأ الهجوم على المتراس الجنوبى، وبعد عملية قصف شديدة استطاع الرجال أن يستولوا عليه بسهولة. وفى الوقت ذاته كانت الفرقة الأخرى قد استولت على المحطة. وبعد عشرين دقيقة أخرى استسلم الأتراك بعد مقاومة عنيفة عند المتراس الآخر فى الوسط.

وأما المتراس الشمالى فكان يملك مدفعًا وبدا أنه مصمم على المقاومة، فراح يزرع باحة المحطة بالقنابل وقد أصبحت الآن فى أيدينا. وعندئذ صوب (بوكستون) كل حممه إلى الشمال. وعند الساعة السابعة صباحًا استسلمت البقية الباقية من الأتراك بهدوء. وأما نتائج تلك المعركة فكانت أربعة قتلى وعشرة جرحى من جانبنا وواحدًا وعشرين قتيلاً ومائة وخمسين أسيرًا من جانب العدو مع مدفعين وثلاثة رشاشات.

بعد ذلك انصرف الرجال لإتلاف الخطوط الحديدية وخزانات المياه. وعند الغسق أصدر (بوكستون) أوامره بالرحيل والتوجه إلى الجفر وقد ملأه البشر. وعرج (داونى) على أبو اللسن لتحية فيصل وإبلاغه رسالة اللنبى التى توصيه بالحذر لعدم التأكد من قدرة جيشه على دحر الأتراك فى فلسطين.

* * *

منذ مدة طويلة وفيصل على اتصال ببعض العناصر التركية بمعرفة جمال باشا الذى كان يفتح كل الرسائل. وجمال باشا فى كامل وعيه كان محمديًا لذلك كانت الثورة العربية تشكل حكمًا بالنسبة له. وكان مستعدًا لأن يفعل أى شىء كى يعوض عن تلك الخطيئة ضد المعتد.

ومما لا شك فيه أن التفاهم مع جمال باشا كان أمرًا مستحيلاً. فجمال باشا هو الذى أمر بشنق أصدقاء فيصل فى سوريا ولا يمكن لفيصل أن يتجاهل دماء أصدقائه وهو العربى الوفى. ولكن إبلاغ جمال باشا رفضًا لعرض السلام كان المقصود به زيادة الشق الوطنى الدينى فى تركيا.

لقد عرض الأتراك على فيصل أولاً استقلالاً ذاتيًا فى الحجاز، ثم ألحقوا سوريا بالحجاز واتبعوا الطريق بهما. غير أن فيصل بقى غير راض، فعرض مندوب جمال باشا عليه إعلان الشريف حسين ملكًا. وفى النهاية اعترف الأتراك بأن مطلب أسرة النبى فى تزعم الإسلام روحيًا لا ينقصه المنطق.

ومن الجدير بالذكر أن هذه العروض قد سببت انشقاقًا فى الأركان العامة التركية. فبينما رأى الرجعيون فى حركة الشريف حسين خروجًا على الطاعة لا يغتفر اعتبره التقدميون عملاً وطنيًا مخلصًا، ولكن الإنكليز دفعوا الشريف فى حبائلهم بوعودهم المعسولة، وكانوا يرغبون فى إعادته إلى جادة الصواب عن طريق المستندات بصرف النظر عن القوة العسكرية.

وأفضل ورقة فى أيدى معارضى السياسة البريطانية كانت اتفاق سايكس - بيكو الذى قضى بأن تتقاسم كل من إنجلترا وفرنسا وروسيا القيصرية تركة الرجل المريض - تركيا. وهذا الاتفاق قد كشف عنه السوفيات بعد ثورتهم على النظام القيصرى. وقرأ جمال باشا بنوده السرية فى حفل عام دعا إليه فى بيروت، وبذلك سبب الكثير من المتاعب ولو إلى حين فى وجه بريطانيا وفرنسا اللتين أرادتا إخفاء نواياهما الحقيقة بشأن البلاد العربية عن العرب.

لحسن حظى أننى كنت قد كشفت لفيصل قبل هذا التاريخ عن وجود مثل تلك الاتفاقية وأقنعته بأن أفضل وسيلة لكسر مفعول الاتفاق هى تقديم عون فعال للإنجليز. عندئذ سيكون من الصعب عليهم بعد النصر التضحية بحليف السلاح من أجل تنفيذ اتفاق ورقى. ولكن بما أننى لم أكن واثقًا من حسن تصرف الإنجليز فقد رجوت فيصل ألا يعتمد كوالده على وعودنا بل على قوته هو دون غيره.

وفى الوقت المناسب عرفت الحكومة البريطانية كيف تستر وجهها، وتلعب على عدة حبال لتقلل من وقع معاهدة سايكس - بيكو على العرب. فوعدت لجنة من الزعماء العرب فى القاهرة بمنحهم الأراضى التى يستطيعون أن ينتزعوها من الأتراك خلال الحرب. وسرعان ما سرى هذا الخبر فى كل أنحاء سوريا.

وأخيرًا كى تتجد الأتراك المغلوبين وتبرهن لنا على أنها قادرة على نثر الوعود فى كل الاتجاهات وإلى كل الفرقاء بعد وعدها رقم (أ) للشريف حسين، ووعدها رقم (ب) للحلفاء، ووعدها رقم (ج) للجنة العربية، طلعت الحكومة البريطانية بوعد جديد رقم ((د) أطلقته للورد روتشيلد القوة الجديدة التى دغدغت أحلامها بمكاسب ممكنة فى فلسطين. وفى أحد اجتماعاتنا استدار نورى الشعلان نحوى، وفى يده مجموعة من المستندات المتناقضة الصادرة عن الحكومة البريطانية وسألنى:

- «أى من هذه المستندات يجب أن نصدق؟»

ولكى أتخلص بلباقة كما فعلت فى الماضى أجبت:

- «آخرها من حيث التاريخ.»

وجمال باشا من جانبه لم يتقاعس عن تقديم العروض من أجل الصلح. وبعد اندحار (اللنبى) فى السلط أرسل لنا مذكرة بهذا الشأن مع محمد سعيد شقيق عبدالقادر الجزائرى.

وكان جواب فيصل على تلك المذكرة أنه سيأتى الوقت المناسب لعقد مثل تلك المعاهدة. وفى إمكانه ضمان ولاء جيشه لجمال باشا إذا أخلى الأتراك عمان لحكومة

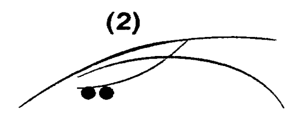
عربية تشكل فيها على الأثر. وما إن وصلت هذه الأخبار إلى أذن مصطفى كمال الثائر على السلطات التركية حتى أرسل إلى فيصل يرجوه عدم الانصياع لرغبات جمال باشا وطغمته. ويعد بالمساندة فى حالة نجاحه فى احتلال دمشق لإقامة دولة عربية مستقلة.

وفيما كانت هذه الاتصالات مستمرة بين فيصل والأتراك فى معزل عن إنجلترا كانت هذه من جانبها تتصل بالأتراك لإنهاء الحرب معهم فى معزل عن فيصل حليفها.

●●●



(2)



تجمعت قواتنا كلها فى الأزرق (الطائرات والمصفحات والمدفعية، والخيالة، والهجانة، والمشاة) كى تقطع الخطوط الحديدية الثلاثة التى تلتقى فى درعا. فقطع الخط الأول فى المفرق (الجنوب) والثانى فى عرار (الشمال) والثالث فى مزيريب (الغرب). وبعد غارتنا على درعا استطعنا أن نعود إلى الصحراء سالمين رغم غارات طائرات العدو علينا. فى اليوم التالى شن اللنبى هجومه. وفى بضع ساعات استطاع أن يشتت قوات العدو بصورة نهائية.

عندئذ قصدت فلسطين لتلقى الأوامر الجديدة والحصول على مساندة جوية. وبعد ذلك طوقنا درعا لكى نجبر العدو على اخلائها بأسرع ما يمكن. وفى هذه الأثناء أتم الجنرال (بارو) الربط بين قواته والقوات العربية. ثم تقدمت القوات البريطانية والعربية معًا إلى (الكسوة) حيث كانت ترابط القوات الأسترالية. ومن هناك سرنا إلى دمشق دون مقاومة تذكر. واجهتنا بعض الصعوبات من جراء الفوضى فى المدينة، فجاء اللنبى ووضع حدًا لكل صعوبة. وبعد ذلك إذن اللنبى إلىّ بالذهاب وقد تمت مهمتى.

* * *

شعرت بفرح داخلى عميق عندما خرجت من ذلك الجو الأربد، وأحسست أن الصداقة تتسلل إلى أعماقنا نحن الثلاثة: (ونترتون) الحديث العهد بيننا ضابط ذو خبرة وتجارب فى فرقة «بوكستون». أما «ناصر» الذى ظهرت مواهبه منذ الأيام الأولى فى المدينة فقد اخترناه مرة أخرى لقيادة حملتنا وتنظيم تحركاتنا المقبلة وأنه لجدير بأن

يكون أول الداخلين إلى دمشق ليضيف اكليلاً آخر من أكاليل الغار العديدة التى ضفّر بها رأسه فى المدينة والوجة والعقبة والطفيلة.

وفى الأزرق لقينا بعض خدم نورى الشعلان وسيارة كروسلى وضابط طيران ومرشدًا وبعض قطع بدل وخيمة من القماش حيث قضينا ليلتنا. وما إن طلع الفجر علينا حتى هجرنا المكان وصعدنا إلى جبل «مجابر» طلبًا للراحة والابتعاد عن المستنقعات. وحططنا رحالنا فى برج على بن الحسين الظليل. وعند المساء وصلتنا سيارة مصفحة لتضاف إلى وسائل دفاعنا وأن يكون لا خوف علينا من العدو، وسترشدنا ثلاث قبائل ضاربة بيننا وبين الخطوط الحديدية. ولم يكن للأتراك آنذاك سوى أربعين فارسًا فى درعا ولا أحد فى عمان. وكان العدو لايزال يجهل أمرنا رغم المحاولة الاستكشافية القصيرة التى قامت بها فى المنطقة إحدى طائرات العدو فى التاسع من أيلول. وكان موقعنا فوق الجبل بديعًا نرقب منه الطرق بين درعا وعمان.

وقد عرفت بعد حين أن «ونترتون» كان يستيقظ فى فجر كل يوم ليستطلع الأفق، خوفًا من مفاجأة غير سعيدة سببها عدم الاكتراث. وكذلك اعتقد البريطانيون فى «أم تايه» وشيخ سعد بأننا خسرنا قضيتنا. إلا أننى شخصيًا كنت واثقًا من النجاح فى تنفيذ مخططى.

وكانت هذه الخطط تقضى أولاً بالتظاهر حول عمان وتقطيع الخط الحديدى الذى يصلها بدرعا. وقد نفذنا هذه المرحلة بإقامتنا فى الأزرق فأوهمنا العدو بأننا نقصد عمان. وفى غضون ذلك دعا فيصل بنى زين إلى حمل السلاح وكانوا قد اتجهوا نحو «باير». كما تزيت «هورنى» بالثوب العربى وراح يستعد للانقضاض على «مأدبا» حالما يبدأ اللنبى هجومه على اريحا.

أما القسم المتعلق بدرعا من مخططنا فكان من الدقة بمكان. وكان علينا لإنجاحه أن نبدأ فى قطع الخطوط الحديدية من جهة عمان أولاً ومن جهة حوران ثانيًا، وكلفنا المصريين بالمهمة الأولى والجراكسة بالمهمة الثانية. وأما المهمة الثالثة وهى الانقضاض

على درعا مباشرة فكانت مجازفة لا يمكن القيام بها إلا بمعاونة الطائرات. وكان علينا انتظار «داونى» لمعرفة مدى العون الذى سيقدمه لنا سلاح الطيران.

وكان أول من وصل إلينا من بين القوات التى ستنجدنا هجانة الحرس الدين قدموا من وادى السرحان حيث نعموا بشهر من الراحة عند بنى الرولا. وأخبرونا بأن نورى الشعلان أكمل كل استعداداته. وفى ١٠ أيلول وصلت طائرتان من طائراتنا لتلحق بها فى اليوم التالى السيارات المدرعة مع «جويس» و«استرلنغ» ثم وصل يوينغ وبيك وسكوت وهايفنز مع المتاع وأصبحت الأزرق تموج بالرجال. وفى ١١ أيلول قدمت علينا من فلسطين وعلى متنها أحد ضباط الأركان. وقد حل محل «داونى» الذى أصيب بوعكة صحية. ومنه فهمنا أنه طرأ بعض التعديل على خطط «اللنبى» وبات علينا أن نتكل على قوتنا وندور حول درعا لنقطع عنها الاتصال بدمشق.

وفى فجر اليوم التالى أطل علينا فيصل مصحوبًا بمارشال تتبعه جيوشه ونورى السعيد الزاهى الزاهر دائمًا وجميل الطوبجى والجزائريون أتباع بيزانى. وعند الأصيل ظهر نورى الشعلان يصحبه طراد وخالد وفارس ودرزى والخفاجيون. وقدم إلينا كذلك عودة أبو تايه ومحمد الضغلان وفهد وأدهب ورؤساء بنى زين وبنى بانى وزعماء السراحين، وابن كنج السرديني، ومجيد بن سلطان من قبيلة عدوان القريبة من السلط. وفى المساء وصل طلال الحريدينى يتبعه خمسون خيالا من الفلاحين. وكذلك وفد علينا سوريون ودروز قادمون من العيسوية وحوران، وتدفقت علينا المؤن من كل حدب وصوب، وعم الفرح، فيما اغتنمت أنا الفرصة ولجأت إلى عين الأسد طلبًا للراحة طيلة يوم كامل. وكان «جويس» أثناء ذلك يكرس المسؤوليات التى طرحتها عن عاتقى ويحملها على منكبيه. فأمر «بيك» بأن يقود الفرقة المصرية المتحولة إلى مفرزة نسافين و«سكوت هايفنز» بأن يقود الجراكسة وكلفهما بقطع الخط الحديدى فى جهة أفدن.

* * *

وعند الصباح تحرك جيشنا. وكان رجال «أبى اللسن» يربى عددهم على الألف، وخيالة نورى الشعلان ناهزوا الثلاثمائة، هذا عدا الألفين من الجمال الذين طلبنا ابقاءهم موقتًا فى وادى السرحان ريثما تحين ساعة الصفر للعمل الأجل.

استوقفتنى المشاغل مع نورى وفيصل طول ذاك النهار. وفى اليوم التالى لحقت بالجيش على متن سيارة بلايموث، فاستقبلنى جويس بأخبار سيئة تقول إن الأعراب الضاربين حول الخط الحديدى يقيمون العقبات أمام «بيك» ويحولون بينه وبين تنفيذ المهمة الملقاة على عاتقه. وفى الحال تركت سيارتى وأخذت بعض المتفجرات وقصدت على بعيرى السهل الذى تقوم فيه خرائب «أم جمال». وكانت رؤية الخط الحديدى السليم من «أم جمال» كافية لأن تشغلنى عن الالتفات إلى مورفى وهو يغير بطائراته الـ «بريستول» على موقعين للأعداء ليزرعهما بالقنابل قبل أن يصاب بعطل اضطره لأن يهرب بطائرته المعطوبة إلى فلسطين لإصلاحها. وهكذا لم يبق لدينا سوى طائرة واحدة من طراز «ب. أ. ١٢» هزيلة لا تصلح حتى للاستكشاف.

وصلت إلى «أم تايه» عند غروب الشمس، فيما كان باقى الجيش لايزال يبعد عنها مسافة خمسة أو ستة أميال. وما إن روينا جمالنا حتى اندفعنا غربًا نحو الخط الحديدى مصممين على النسف بلا أقل تردد. وكان الليل يلفنا فلم نسمع أى صوت أو نداء، وكم كانت بهجتنا عظيمة عندما عثرنا على جسر كبير يمكننا نسفه وقطع الاتصال بين درعا وعمان لعدة أيام على الأقل. فقضينا تلك الليلة فى الاستكشاف على أمل العودة فى الصباح مع السيارات لنسفه.

وفى الصباح بعد التشاور قررنا إرسال سيارتين مصفحتين إلى الجسر لهدمه. بينما يتابع الجيش سيره نحو تل عرار المحطة المعترضة بين دمشق ودرعا على بعد أربعة أميال من هذه الأخيرة وبذلك يكون الجيش قد ملك زمام الخط فينزل عليه ويحط رحاله. ونحن نكون قد نسفنا الجسر ولحقنا به هناك فى ١٧ أيلول.

وعند الساعة الثانية زوالية فيما كنا نتقدم نحو الجسر مرت من فوق رءوسنا عدة طائرات من السلاح الجوى البريطانى فى أول غارة لها على درعا، فملأ هذا المشهد قلوبنا جذلاً. ولما وصلنا إلى مقربة من الجسر طلع علينا ثمانية جنود أتراك فحصدناهم بنارنا، ثم برز أربعة آخرون قتل واحد منهم وجرح الآخران. وهكذا سقط الموقع المحصن

فى أيدينا وبتنا نملك زمام الجسر وخطًا طويلاً من السكة الحديدية دون أن نخسر شيئًا. وكانت نتيجة عملنا موفقة للغاية.

وبعد ذلك أخذنا أنا وجويس نعد العدة لنسف الجسر البديع الهندسة وما إن أنهينا عملنا حتى ظهرت على مقربة منا دورية تركية. فسارعنا إلى أخذ طريق الهرب. ولكن ما كدنا نبتعد قليلاً حتى حصل عطل فى السيارة أوقفها عن التقدم، ولم يبق بيننا وبين الخطر الداهم سوى فترة عشر دقائق فقط. وبعد أن توصّل (رولز) إلى إصلاح العطب عاودنا المسير، وقضينا ليلتنا تلك فى «أم تايه» على أمل اللحاق بنورى السعيد فى اليوم التالى على خط دمشق شمال عمان لكى نقول له إن الخط الحديدى مخرب من جهة الجنوب وغير صالح للعمل لمدة أسبوع على الأقل بسبب نسفنا لجسر مهم عليه. وهكذا بات فى إمكان قواتنا أن تصل إلى درعا فى الوقت المناسب لأن تخريب الجسر قد أمن مؤخراتها وصان الأمير زيد المنعزل من ناحية أبى اللسن حيث كان الأتراك يحشدون جيوشهم فى طفيلة، ريثما يتم إصلاح خطوط مواصلات دمشق. وغزوتنا هذه كانت من سوانح الفرص.

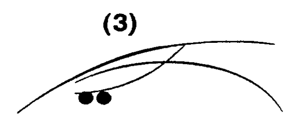
حسب تقديراتنا بلغنا الطريق التى سلكتها سيارات استرلنغ عند انبثاق الصباح. وعند الساعة الثامنة لحقنا بالجيش العربى على منحدر خفيف متصل بالخط الحديدى، حيث انتشر الجنود كى يهاجموا الاستحكام الصغير الذى يحرس الجسر الواقع بيننا وبين تل عرار الذى يشرف على المنطقة المحيطة بدرعا. وما هى إلا لحظات حتى اندفع الفرسان إلى الخط الحديدى للسيطرة عليه فيما راحت مدفعيتنا تصب جام غضبها على الاستحكامات التركية. ولم تأزف الساعة التاسعة صباحًا إلا وكنا قد أصبحنا بسهولة لا تصدق أسياد عشرة أميال من الخط الحديدى جنوبى دمشق.

وتدحرج العرب جموعًا جموعًا من الجبل ثم تجمعوا على قمة تل عرار المستديرة وبات فى مقدورهم أن يروا فى الأفق المحطات الرئيسية الثلاث. درعا، مزيريب والغزالة، أما أنا فقد كنت أرى إلى أبعد من ذلك. كانت تتراءى لى دمشق قاعدة الترك فى الشمال

والصلة الوحيدة مع استتبول وألمانيا قد انقطعت كذلك خطوط المواصلات فى جهات عمان ومعان والمدينة، وفى الغرب تراءى لى «ليمان فون ساندرس» معزولاً فى الناصرة وقد عزلت معه منطقة نابلس ووادى الأردن. كان ذلك فى السابع عشر من أيلول ولم يبق سوى ثمانى وأربعين ساعة لليوم المحدد للزحف العام وفقًا لمخطط «اللنبى». وخلال هذه المدة الوجيزة قد يتمكن العدو من تغيير مواقعه ومواجهتنا فى الشمال إلا أنه كان من المستحيل عليه التحرك قبل هجوم اللنبى.

●●●

(3)



وفيما نحن نتجه نحو خط فلسطين لتخريبه فى منطقة مكشوفة عادت طائرات العدو إلى التحليق فوقنا وقذفنا بالقنابل فحثثنا المطايا ونحن نعلن للقرويين بأن غرضنا هو المزيريب فنراهم يتدافعون للسير معنا ومشاركتنا فى حصد ثمار النصر.

ولما بلغنا المزيريب قدم إلينا درزى بن ضغمى وأخبرنا بأن نورى السعيد وجيشه هم منا على مسافة ميلين إلى الوراء. فسقنا جمالنا وارتوينا بدورنا. وبعد أن تمركزنا وراء الحصن القديم استطلعت حركة فى المحطة الفرنسية، ثم علمت من الأهالى أن الأتراك قد استولوا عليها عنوة. وكانت الشهوة إلى الإغارة عليها بالغة الحد، وتطوع عبدالله لتنفيذ المهمة، بعد أن آثرت أنا عدم القيام بها رغبة منى فى البقاء حيًا حتى بلوغ دمشق. ونجح عبدالله فى مهمته وكسب الكثير من الغنائم فدبت الحماسة فى نفوس الرجال واجتزنا النهر إلى الضفة الأخرى كى نسير على المحطة التركية التى تبعد عنا مسافة ثلاثمائة متر فيما كان طلال يشد فى أثرنا وذلك لنستولى عليها قبل بلوغنا جسر تل الشهاب هدفنا الرئيسى.

وما إن اقتربنا من المحطة حتى امطرنا العدو بوابل من الرصاص اضطرنا لأن نحكم خطتنا ونستخدم كل اسلحتنا. وبعد معركة يسيرة استسلمت المحطة فتزاحم الأهالى عليها ينهبون ما فيها فيما انصرفت مع «يوينغ» لاتلاف محطة التلغراف وهى مهمة لأنها نقطة الاتصال بين جيش فلسطين وشمال الإمبراطورية العثمانية. وهكذا تم لنا بعد تقطيع الخطوط الحديدية وأسلاك البرق تمزيق أوصال الجيش التركى الذى أصبح

معزولاً فى مواقعه. وهبوط الليل أنهت عمليات السلب والنهب وانكفأ الرجال لتناول طعام العشاء فيما أشعلنا النيران فى حطام المحطة. ونتيجة لمرأى النيران توافد علينا زوار كثيرون من المنطقة.

وكان علىّ أن أحسن وفادتهم لأنهم عيوننا المبثوثة هنا وهناك، ووفدت علينا موجات متتالية من رجال الشمال فى تلك الليلة، وهم على أحر من الجمر فى ترقب فجر الحرية الذى بات وشيكًا. ومن بين الوافدين كان أعيان درعا الذين جاءوا يعوضون علينا فتح أبواب مدينتهم لنا فطيبنا خواطرهم ووعدناهم بأن الفرج بات قريبًا، فعادوا إلى مدينتهم ينتظرون بفارغ الصبر قدومنا إليها.

* * *

ما كدنا ننتهى من أمر الوافدين من درعا حتى برز أمامنا وافد جديد هو زعيم قرية تل الشهاب الشاب الذى وصف لنا موقع الجسر ومخفره ومواقف حراسه. خالجنا شك فى صدق نية هذا الزعيم الشاب فى أول الأمر لعلمنا بأن والده المتوفى حديثًا كان من ألد أعدائنا والمناهضين لحركتنا، ولكنه استطاع أن يقنعنا بإخلاصه فى النهاية، وعرض علينا أن يقدم لنا صديقه الضابط التركى قائد المخفر. فأرسلناه ليعود بصاحبه وأومأنا للركب بالتوقف.

وبعد وقت قصير عاد الشاب وبصحبته ضابط ارمنى يتطير غضبًا على أسياده الأتراك. وصف لنا الموقف بكل دقائقه. وبعد التداول قرّ الرأى على أن يرابط رجالنا عند مشارف القرية فى الساعة الحادية عشرة تمامًا ومن ثم يأتى شيخ القرية الشاب ويقود نفرًا من رجالنا الشجعان إلى غرفة الضابط الأرمنى الذى سيتولى استدعاء معاونيه واحدًا واحدًا ليتولى رجالنا شد وثاقهم ليخلو لنا الجو للعمل.

وفيما كان حراسى يعدون المتفجرات التى سأستخدمها فى نسف الجسر كان ناصر يحذر الرجال ويطلب منهم السهر والتيقظ خوفًا من أن تكون هناك مكيدة ما. وفى الوقت المحدد تحرك جيشنا لتنفيذ المهمة الجديدة. وأثناء سيرنا تقدم منى رحيل

وأمسك بذراعى اليسرى وأرانى فى الظلمة عمودًا من الدخان الأبيض يصعد من الأعماق، وسرعان ما تبادر إلى أذهاننا أنه القطار فى تلك النواحى فأصدرنا أمرًا بالتوقف خوفًا من الكمين المزعوم. وبعد انتظار قلق فى أماكننا وفد علينا الشاب ليخبرنا بأن الخطة قد فشلت بسبب وصول قطار للمحطة يحمل جنودًا من الألمان والأتراك أرسلهم «ليمان فون ساندرس» من العفولة لنجدة درعا المعزولة. ثم أخبرنا بأن الكولونيل الألمانى الوافد أوقف الضابط الأرمنى لإهماله ثم بث الرجال فى الجوار للمراقبة. بعد سماع هذه الأخبار لم يخطر ببالى سوى الضحك حيث أصبحنا على مسافة مائة متر فقط من مراكز العدو.

عرض نورى السعيد ساعتئذ أن نشن هجومًا مباشرًا على العدو وقد يكتب لنا النصر بسبب عنصر المفاجأة. ولكننى رأيت أن ذلك قد يكبدنا الكثير من الخسائر واقنعت نورى السعيد بعدم جدوى عرضه، ثم اعتذرنا للزعيم الشاب المتفانى فى خدمة القضية العربية وأعطينا أوامر الانكفاء إلى الوراء. وأبقينا سرية صغيرة ترقب المكان ثم خطرت لنا فكرة إقلاق العدو وقذفه ببعض القنابل. ولكن سرعان ما تبينا سخافة الفكرة وقفلنا عائدين إلى مزيريب. وهناك عاودنا الحنين من جديد إلى عمل شىء نعوض به فشل خطتنا فى نسف الجسر فأرسلنا كتيبتين لنسف الخط الحديدى من على جانبيه.

وفى الفجر وصلت باقى القوات من تل عرار ومعها مدافع «بيزانى» وبعثنا رسولاً إلى «جويس» نعلمه بأننا سنعود غدًا إلى الجنوب بطريق نيزيب كى نتم الإحاطة بدرعا. وعرضت عليه أن يعود إلى أم تايه ليصل نقطة لتجمعنا نستطيع منها تخريب الخط الحديدى كلما عاود العدو إصلاحه. وذلك بانتظار تلقف أخبار اللنبى.

وسواء رضينا أم أبينا كان علينا أن نفعل ذلك. فدعونا الجيش إلى التحرك عبر محطة مزيريب فيما انصرفت مع «يوينغ» إلى نسف أماكن جديدة من الخط ريثما يصل رجالنا إلى رمثا ويتوارون عن درعا ومزيريب معًا. وما هى إلا لحظات حتى سمعنا ازيز ٨ مصفحًا ومجهزًا بالمدافع، فدب الرعب فى النفوس وسارعنا إلى اخلاء المكان والابتعاد

عن مكمن الخطر. ومما زاد الوضع حراجة أن طائرة عدوة حلقت فوقنا وبدأت تقذف باستمرار القنابل لتشتتنا أى تشتت.

صحا جويس فى أم تايه على صوت القنابل فأسرع إلى نجدتنا ووراءه حشود من البشر غريبة الأشكال مختلفة الألوان انتقوها من كل قرية ومن كل قبيلة فى حوران. وقد قدموا إلينا لإعلان الولاء والعزم على المؤازرة ولو بالكلام. فتركت لناصر مهمة استقبالهم ومجاملتهم وسافرت مع جويس وونترتون بعد أن تناولنا طعام الإفطار للبحث عن الطائرة العدوة التى هبطت فى مكان ما قريب. وفى هذه الأثناء ظهرت فى الجو طائرتان أخريان. ثم اتجهتا للهبوط فى الوادى. فشددنا فى الأثر. وبعد طواف خمسة أميال أحست الطائرات بمقدمنا فهربت اثنتان منها ونجتا من نيراننا بينما توقفت الثالثة فأمطرناها بوابل من الرصاص وعطلناها، الأمر الذى حمل ربانها على إشعال النار فيها. وفيما نحن عائدون رجعت الطائرتان بعد أن تزودتا من «درعا» بالوقود والذخائر للاقتصاص منا. ولكننا نجونا بأعجوبة ووصلنا إلى أم تايه سالمين وغفوت غفوة طويلة بسبب حاجتى الماسة للراحة بعد عناء طويل.

من الناحية الاستراتيجية كان علينا أن نبقى فى أم تايه التى تؤمن لنا زمام السيطرة على الخطوط الحديدية المؤدية إلى درعا. وبثباتنا فيها لمدة أسبوع نتمكن من خنق العدو من جانبنا كما يخنقه اللنبى من جانبه. وأما من الناحية التكنيكية الفنية فقد كان من الخطر البالغ علينا البقاء فى أم تايه. وكان من المستحيل على فريق ضئيل من النظاميين العرب أن يثبتوا فى مكانهم مطمئنين دون مناوشات تسترهم. وهذا ما سنواجهه قريبًا إذا بقينا بدون مؤازرة جوية.

فى ذلك الوقت كان الأتراك يملكون تسع طائرات على الأقل وكنا نحن على اثنى عشر ميلاً من محطتهم فى قلب الصحراء وعلى أرض مكشوفة تمامًا على مقربة من مورد ماء واحد. ومعنا من الجمال والخيل عدد كبير. وكانت القنابل الأولى كافية لأن تشتت الرجال غير النظاميين من حولنا وتجعل مقامنا فى أم تايه عبثًا لا فائدة منه. كما أن أول

قرية تسترتا من ناحية ليس لها مُدافع يدافع عنها وكانت تحيا حياة هلع من جراء غارات الأتراك المتواصلة عليها. فإذا كنا نبغى البقاء فى أم تايه وجب علينا أن ندافع عن الطيبة.

وهكذا تركز تفكيرى على أول مهمة يتوجب علينا القيام بها، فطلبت نجدات جوية من اللنبى. وبما أن طائرة البريد كانت ستنقل إلينا أخباره فى الغد. فقد رأيت من المناسب أن أطير إليه على متنها وأطلب النجدة بنفسى وأعود فى الثانى والعشرين. فلعل أم تايه تصمد إلى ذلك التاريخ إذا لجأنا إلى الحيلة وتظاهرنا بالانتقال إلى أم السراب البلدة القريبة حيث تكثر الخرائب الرومانية.

ولم يكن عندنا فرق بين أم تايه وأم السراب إذ المهم بالنسبة لنا كان الاحتفاظ بروح المبادرة. سُدت طريق درعا مؤقتًا فى وجهنا لعدم ثقة القرويين المحيطين بنا وشكهم فى نجاحنا.

إلا أن خط الحجاز كان لايزال أمامنا وبات علينا نسفه من جديد بعد أن تم إصلاح ما خربناه منه. وبعد عملية استكشاف قام بها «ونثرتون» تبين لنا أن هدم الجسر الكائن عند الكيلومتر رقم (١٤٩) لا يتم إلا بالرجال والمدافع بينما نسف جسر آخر إلى الجنوب منه لا يحتاج إلا إلى مفرزة واحدة حسنة التدريب.

فعرضت على «جويس» أن يعيد المصريين والجراكسة إلى العقبة ويعيرنى سيارة مصفحة فأرافقهم إلى الخط الحديدى وأنسفه بمساعدتهم، ثم قمنا إلى ناصر ونورى السعيد لنطلعهما على رحلتنا وعلى عودتنا يوم ٢٢ أيلول مصحوبين بطائرات حربية يمكنها اقتناص طائرات العدو. ومتى عدنا إلى أم تايه يمكننا أن نعوض الخسارة التى يكون العدو قد ألحقها بنا فى فترة غيابنا ويكون جويس قد مهد لنا أرضًا تصلح لهبوط طائراتنا العتيدة.

ومع غروب الشمس بدأنا التحرك فى الوادى باتجاه الخط الحديدى. ووقفت أنا مع جونور نراقب العدو الذى قد يفسد علينا خطتنا من جهة محطة المفرق، بينما تابع المصريون تقدمهم نحو الجسر ونسفوه كما هو مقرر.

أما أنا فقد ضللت الطريق وقضيت ثلاث ساعات تائهًا بين الوديان دون أن أعثر على الخط الحديدى ولا على المصريين ولا حتى على نقطة انطلاقنا. وتراءى لى أخيرًا نور فقصدته لأجد نفسى أمام المفرق، وفيما أنا أتراجع سمعت صفير قاطرة، وإذا بقطار يخرج من المحطة متجهًا إلى الشمال، فتبعته سيارتنا لعلها تبلغه قبل وصوله إلى الجسر المنسوف وبينما كنا نحاول عبثًا اللحاق به سمعنا انفجارًا هائلاً أمامه. فكانت متفجرات «بيك» قد فعلت فعلها فى الخط الحديدى.

ومرَّ بنا خيالة متجهون إلى الجنوب بأقصى سرعة، ففتحنا عليهم نيران مدافعنا الرشاشة. وما هى إلا لحظات حتى انكفأ القطار إلى الوراء هربًا من متفجرات «بيك» فصببنا عليه جام غضب مدافعنا وتهادت إلى أسماعنا أصوات الأتراك الهادرة خوفًا والتياعًا من هذا الهجوم الصاعق.

وبعد انتهاء المهمة حاولنا العثور على أصدقائنا فلم نفلح. فابتعدنا عن الخط الملتوية قضبانه إلى مسافة ميل وتوقفنا لقضاء الساعات الأخيرة من الليل فى النوم الذى كنا فى أمس الحاجة إليه. وعند الفجر استيقظت نشيطًا واهتديت على الطريق، فوصلت الأزرق بعد الظهر قبل المصريين والجركس وأطلعت فيصل ونورى الشعلان على أخبارنا.

وفى صباح اليوم التالى أطل «جويس» علينا فجأة وقد اغتنم فرصة الهدنة السريعة ليتوجه إلى «أبى اللسن» ويعاون زيد وجعفر المشتبكين مع العدو فى معان، ويتقدم مع «هورنبى» إلى قلب منطقة بنى صخر. وبعد برهة وجيزة وصلت طائرة فلسطين حاملة لنا أخبار النصر الساحق الذى أحرزه اللنبى على قوات العدو هناك. وبعد ساعة من الزمن وصلت سالما إلى فلسطين على متن تلك الطائرة.

ومن الرملة استقللت سيارة أوصلتنى إلى مقر القيادة العامة، وقابلت بطلنا الحربى العظيم فكان ساكنًا رزينًا لا تظهر عليه علامات التأثر إلا عندما يجيئه «بولز» كل ربع ساعة ويبشره بنجاح جديد.

وأثناء مقابلتى له لخص (اللنبى) لى مقاصده وشرح لى خططه المقبلة التى تقضى بأن يسير (شايتور) على رأس الزيلانديين إلى عمان، و(بارو) مع فرقته الهندية إلى درعا،

و(شوفيل) مع الأستراليين على القنيطرة. وبعد انتهاء الأخيرين من مهمتهما الأولى يسيران معًا إلى دمشق. وأما واجبنا نحن فى هذه العمليات الجديدة فقد كان مؤازرة الجميع وانتظار القوات الحليفة كى تدخل دمشق معًا.

بعد أن أكمل (اللنبى) كلامه شرحت له أن حاجة تحركاتنا إلى قوة جوية تغطى تحركاتنا يخيب آمالنا ويضعف قوتنا فضغط على زر الجرس. وما هى إلا لحظات حتى دخل علينا (سلموند) و(بورتون) للاشتراك فى المشاورات. وقد أسهما بقسط وافر من النجاح فى معارك فلسطين وانتهى دورهم هناك بعد أن قضى على قوة العدو الجوية. وبعد التداول استقر الرأى على تزويدنا بطائرتين من طراز «بريستول» وبطائرة من طراز (د. هـ. ـ ١٢) وأخرى من طراز (هندلى باج). ثم انصرفت لتناول الطعام ونيل قسطى من الراحة.

* * *

قبل طلوع الفجر كانت الطائرات مستعدة للتحليق. وقد دعى «روص سميث» مرشدى القديم لقيادة طائرة هندلى باج الجديدة، وبعد ساعة من الزمن كنا نحلق فوق أم تايه، ولما لم نجد أثرًا لرجالنا هناك أشرت بالتوجه إلى أم السراب حيث انكفأت قواتنا. وما إن هبطت بنا الطائرة حتى علمت بأن العدو يمطر أم تايه بقنابله منذ يومين لاعتقاده بأننا لا نزال فيها. ثم أطلعنى ناصر على كل شاردة وواردة حصلت أثناء غيابى. وأخبرنى «ونترتون» بأنه نسف الخط الحديدى مرة أخرى. وكان من نتيجة قدوم الطائرات أن قويت معنويات رجالنا واستعادوا حماستهم وحميتهم.

وبعد استراحة قصيرة نقلت للجميع أخبار انتصارات «اللنبى» المذهلة فى فلسطين حيث سقطت نابلس والعفولة وبيسان وسمخ وحيفا. فتملكتهم النخوة والحماسة وارتجت المضارب ثقة وجذلاً وتعالت الأصوات مطالبة بالزحف الفورى على دمشق. فقررت أن استخدم فيصل ونورى الشعلان ليشاهدا بأم عنيهما النصر الأخير.

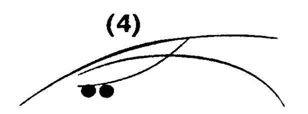
وفيما نحن نتناول طعام الفطور صرخ الحارس: ها هى طائرة عدوة تقوم من درعا باتجاهنا. وفى الحال سارع طيارونا إلى طائراتهم وأداروا محركاتها لاستقبال الزائر

الثقيل كما يجب. وفى أقل من خمس دقائق عادت طائراتنا سالمة بعد أن أسقطت الطائرة العدوة. وكنا لا نزال نتناول الفطور عندما أعلن الحارس مرة ثانية عن مقدم طائرة عدوة أخرى فهب طيارونا واسقطوها فى جهة تل عرار. ثم تركنا «روص سميث» ليعود إلينا على متن الطائرة الجديدة «هندلى باج» فيما توجهت أنا لإحضار فيصل ونورى الشعلان من الأزرق.

وما إن وصلت هذه الطائرة العجيبة إلى أم السراب حتى ذاع الخبر بأسرع من البرق فى كل المنطقة، ومالت كفة النجاح لصالح فيصل. وانصرفنا بعد التداول مع «بورتون» الذى قدم على متنها إلى إعادة تخريب الخطوط، تحمينا فى هذه المرة قوتنا الجوية الجبارة وتساندنا قوات نورى الشعلان غير النظامية التى أمدنا بها فيصل، وقد استقدمها من الأزرق. وفى اليوم التالى قام نورى السعيد تؤازره المدفعية والسيارات المصفحة وخيالة الرولا بقيادة نورى الشعلان نفسه مسافة طويلة من الخط الحديدى.

●●●

(4)



كانت غزوة نورى السعيد هذه المرة هى الضربة القاضية على الأتراك فلم يحاولوا بعد ذلك اليوم إصلاح الخط بين درعا وعمان مطلقًا. إلا إننا كنا نجهل هذا الأمر، وتابعنا تنفيذ مخططنا التخريبى على الخط الممتد أمامنا كالشبح المسئوم. وتقدمت فى اليوم التالى عند الفجر فى سيارة مع جميل و«ونترتون» كى نتفقد الخط جنوب محطة المفرق، فاستقبلتنا الرشاشات بحماسة لا عهد لنا بمثلها من قبل.

فتراجعنا مضطرين لننتقم من جسر قريب وندكه دكًا. ولكن نيران العدو تبعتنا. ومما زاد فى الطين بلة انقضاض جنود كانوا يختبئون عند الخط علينا ورمينا بالقنابل اليدوية، فتراجعنا مرة ثانية حانقين وصببنا جام غضبنا على طرف ضئيل من هذا الخط. إلا أن دفاع العدو المستميت عن هذا الجُسيِّر بعد غطيطه شهورًا كان موضع هزئنا وسخريتنا.

وعند عودتنا إلى أم السراب علمنا بأن ناصر يريد أن يعود ويعسكر فى أم تاية. وبما أن ذلك يعد أولى مراحلنا فى الطريق إلى دمشق فقد هللت للفكرة وسافرنا سعداء معتذرين إلى الخط الحديدى الذى أخلفنا بوعدنا معه فى تلك الليلة. وتحلقنا وتحادثنا منتظرين قدوم منتصف الليل موعد ضرب (هندلى باج) لمحطة المفرق الحصينة بالقنابل. وفى الموعد المحدد قامت الطائرة بمهمتها على أكمل وجه واستمرت تمطر المكان بقنابلها من زنة مائة رطل، حتى أضرمت النار فى الشاحنات الواقفة هناك وتوقفت مراكز العدو عن الضرب.

واحتدمت النيران طول الليل والنهار وكتبت فى الفضاء بأحرف من لهب نهاية الأتراك، فقرأها العرب وأذاعوها فى طول البلاد وعرضها. ثم وردتنا أخبار بأن الجيش

التركى الرابع قد أخلى عمان يجر ذيول العار وبأن بنى حسن يتولون ملاحقة الهاربين كالمشردين.

وتداولنا، وقد انتهت مهمتنا مع الجيش الرابع، فى أمر (درعا) التى ستكون ملاذ الناجين من الهاربين من الجيش الرابع. واستقر الرأى على وجوب حمل العدو على إخلائها بأسرع ما يمكن. فاقترحت لذلك أن نتقدم شمالاً ونجتاز تل عرار ونعبر الخط الحديدى عند فجر اليوم التالى ونحتل قرية (شيخ سعد) التى نعرفها جيدًا والتى يمكنها أن تشكل لنا حصنًا طبيعيًا إذا هوجمنا فيما بعد. فعضدنى طلال متحمسًا وأقرنى على ذلك نورى السعيد وناصر ونورى الشعلان. وتأهبنا للرحيل على أن تبقى السيارات المصفحة فى الأزرق لتساندنا فى اقتحام دمشق فيما بعد، وعلى أن تعود الطائرات إلى فلسطين وقد أنهت مهمتها ونظفت لنا الجو من الأتراك فنبلغ القيادة عن تقدمنا حتى «الشيخ سعد».

وفيما نحن نستعد للرحيل عادت إحدى الطائرات وألقت علينا قصاصة ورق جاء فيها أن مفرزة قوية من الخيالة دارت حول الخط واتجهت نحونا. وتبلبلت الأفكار لهذا الخبر غير المنتظر، فركضت لألحق بنورى السعيد وكان واقفًا مع ناصر على قمة الجبل لمراقبة تحرك قواتنا. وبعد التداول فى أمر التراجع، قر الرأى على الانسحاب نظرًا لأن «الشيخ سعد» ملائمًا لتوقفنا وأرسلنا النظاميين أمامنا إليها.

إلا أنه لم يكن بالإمكان ترك الأمور على غاربها، فأمر نورى الشعلان وطلال خيالة الرولا وحوران بالبقاء لمواجهة العدو وتأخير تقدمه ولحاقه بقواتنا النظامية. وفيما هم ينتظرون مقدمه وفد عليهم حليف لنا وأخبرهم بأن العدو لا يقصدنا وإنما هى شتات تسعى للوصول إلى درعا من أقرب السبل، فانقضضنا عليها وشتتنا شملها ونشرنا الرعب بين صفوفها وأسرنا العديد منها.

وكان هذا الحادث العارض قد أخرنا ليلة كاملة عن تنفيذ مخططنا. لأنه لم يكن من الممكن تسيير مفرزة ترتدى الكاكى وتجتاز حوران ليلاً مع جيش من الهجانة النظاميين

إلا إذا تقدمها فرسان من أهل البلاد ليسكنوا روع الأهالى ويفهموهم بأننا لسنا أتراكًا. وتوقفنا عند الأصيل ننتظر طلال وناصر ونورى الشعلان ليلحقوا بنا.

وقد أتاح هذا التوقف للبعض فرصة التفكير بعملياتنا. وجرى التساؤل فيما إذا كان من الحكمة اجتياز الخط الحديدى لاحتلال موقع الشيخ سعد المحفوف بالمخاطر والكائن على الطريق التى ستسلكها القوات التركية المنسحبة إلى الشمال. وحوالى منتصف الليل جاءنى «سابين» ليقول لى إننا فعلنا أكثر مما طلب منا. فقد طلب منا «اللنبى» أن نراقب الجيش التركى الرابع وها نحن نشرف على التقهقر الذليل. وبما أن مهمتنا قد انتهت فيمكننا أن نتجه شرقًا إلى «بسرى» الآمنة حيث يحشد نسيب البكرى الدروز لمؤازرتنا. وهناك يمكننا أن ننتظر سقوط درعا فى يد الإنجليز ومكافأتنا فى نهاية هذه الحملة المظفرة.

هذا المسلك لم يعجبنى لأننا فى حالة انسحابنا إلى جبل الدروز نكون قد تخلينا عن الخدمة الفعلية قبل إحراز النصر. واتحنا للجنرال اللنبى فرصة التفرد بالالتحام الأخير الذى سيكتب لنا النصر النهائى. وبما أننى كنت متمسكًا جدًا بالكرامة العربية. فقد كنت مستعدًا لخدمتها أن أتقدم مهما كان الثمن. وكان العرب قد دخلوا الحرب لاستعادة حريتهم. إن استرجاعهم لعاصمتهم التقليدية بقوة سلاحهم سيكون المعنى الذى سيفهمونه بصورة أفضل لحريتهم وسيادتهم.

كان هذا الواجب أمرًا سهلاً كالأشخاص الذين ليس عندهم من مهمة سوى التشدق بهذه الكلمة. وبالطبع بانقضاضنا على ـ الشيخ سعد ـ درعا نضيق على الأتراك أكثر من أية قوة إنجليزية، لأننا نستطيع أن نسد عليهم طريق دمشق. وهذا الربح لا يكلفنا الكثير من الأرواح. كما أن احتلال دمشق كان يعنى فى رأيى انتهاء الحرب فى الشرق وربما فى سائر أنحاء العالم لأن قوات المحور كانت مرتبطة ببعضها البعض كالحلقات ويكفى أن تنهار حلقة واحدة لتتلاشى الحلقات الأخرى الواحدة بعد الأخرى. ولذلك من أجل كل الأسباب المعقولة استراتيجية والتكنيكية والسياسية بل المعنوية والأخلاقية أيضًا كان علينا أن نتابع.

* * *

كنا قد توقفنا لانتظار طلال وناصر ونورى الشعلان. ولكنهم اخطأوا الطريق وتخطونا. وما إن تجمع شملنا من جديد حتى تابعنا السير شمالاً بين القرى. ولدى مرورنا أمام إحداها تراكض نسوة إلينا وهن يقلن بأصوات عالية بأن طائرة تحمل الشارة الشريفية قد حطت لتوها على مقربة من القرية. فهرع «بيك» إلى المكان الذى قيل إن الطائرة قد هبطت فيه فوجدها وعلى متنها طياران استراليان وقد أصيبت طائرتهما فى عملية استكشاف فوق درعا فهبطا فى هذا المكان اضطرارًا وهما يشكران النعمة الإلهية لأنهما قد هبطا بين أصدقاء. وبعد إصلاح العطب عادت الطائرة إلى قاعدتها سالمة.

وأثناء سيرنا كان الفرسان والهجانة ينضمون إلينا من كل حدب وصوب وكذلك الشبان المتحمسون الذين كانوا يسيرون فى ركابنا على الإقدام. وبعد الظهر وصلنا إلى الخط الحديدى فساءنا أن يكون العدو قد تمكن من إصلاحه وعمدنا فورًا إلى اتلاف كيلومترين من الخطوط.

وكانت عودتنا السريعة هذه إلى التفجير قد أذهلت العدو بالطبع وأرعبته، فقررنا أن نفيد من ذلك كل الإفادة واقتربت من نورى الشعلان وطلال وعودة وطلبت إليهم القيام بالعمل الذى يحلو لهم ويتفق مع وسائلهم. فعزم طلال المقدام على مهاجمة «أذرع» المستودع العظيم للحبوب فى الشمال، واختار «عودة» محطة «خربة الغزالة» المواجهة لأذرع هدفًا له. وأما نورى الشعلان فقرر أن يحتل طريق درعا الرئيسى لكى يصد كل مفرزة تركية قد تخرج لشن غارة علينا.

أحلام عذبة هزت وهدهدت الأبطال الثلاثة... وانصرف كل منهم إلى تنظيم برنامج غزوته. بينما تقدمنا نحن مع باقى أفراد الجيش على الطريق الذى يمر أمام خرائب مزرعة الشيخ مسكين التى بدت مقفرة موحشة تحت ضوء القمر. فتوقفنا هناك حتى طلوع الفجر. ومع خيوطه الأولى أيقظت حرسى الخاص ومشينا بخطى حثيثة كى نصل إلى الشيخ سعد فى ساعات الصباح الأولى. وكانت مفرزاتنا قد عادت من غزواتها الليلية بنصيب وافر من الغنائم. فعبد القادر الجزائرى لم يحسن الدفاع عن أذرع التى

استسلمت بدون مقاومة تذكر بعد أن انضم المتطوعون إلى صفوفنا. وهرب الجنود الأتراك وتبعهم عبد القادر ورجاله. فدخل طلال إلى القرية وأخذ كل ما استطاع حمله.

أما «عودة» فقد أطل علينا يختال بفعاله. وقد استولى على «خربة الغزالة» عنوة وعلى قطار مهجور وعلى مدافع، وأسر مائتى رجل بينهم بعض الألمان. ورجع نورى الشعلان يسوق أمامه اربعمائة أسير مع قطيع كبير من البغال وعدد من الرشاشات، وكى لا نثقل كاهلنا اعتقنا صغار الأسرى وأرسلناهم إلى القرى ليكسبوا عيشهم بالاشتغال عند الأهالى الموسرين.

فى هذه الأثناء حومت فوق رءوسنا طائرة حليفة ثم قذفت لنا برسالة تنبئنا باستسلام بلغاريا، فسادتنا موجة من الحبور والغبطة رغم أننا لم نكن نعلم بوجود جبهة فى البلقان. والتف حولنا سكان قرية شيخ سعد يدفعهم إلى ذلك شوقهم إلى رؤية جيش فيصل، هذا الجيش الذى كان عندهم وهم وسراب فإذا به يصبح حقيقة واقعة يدب فى أرضهم ويقوده أبطال يلقى اسمهم الرعب فى كل مكان أمثال طلال وناصر وعودة.

وبينما كان الرجال يتمطون على الأرض بعد طول الركوب صعدت مع ستة من المرافقين إلى أعلى الخرائب لكشف السهول الجنوبية. وكم كانت دهشتنا عظيمة عندما أبصرنا مفرزة صغيرة من النظاميين يرتدون الأزياء التركية والنمساوية والألمانية ومعهم ثمانى رشاشات محملة على البغال. وكان أولئك البائسون قادمين من الجليل ويحاولون الوصول إلى دمشق بمشقة بعد اندحار الجيش التركى أمام قوات «اللنبى» فى فلسطين، فقررنا ألا نطاردهم حبًا براحة جنودنا. إلا أن «درزى بن ضغمى» امتطى فرسه بهدوء فتبعه بعض الشبان الخفاجيين من أقاربه وهبط عليهم فجأة. ولما أراد الضباط المقاومة أجهز عليهم بسرعة فاستسلم الجنود واقتيدوا أسرى إلى خربة فى شيخ سعد.

ما كدنا ننتهى من أمر هؤلاء حتى تراءى لنا فى الأفق من جهة الشرق ثلاث أو أربع جماعات يتجهون نحو الشمال فأرسلنا إليهم بنى الحويطات. وبعد ساعة من الزمن عاد هؤلاء فرحين وكل منهم يقود فرسًا أو بغلاً: حيوانات يائسة مهشمة مثخنة بالجروح تدل

على شقاء أصحابها وعلى هول الصدمة فى فلسطين. وأما أصحابها فلم يشأ بنو تايه أسرهم بل أوكلوا أمر ذلك إلى غلمان القرية وبناتها كما قال لنا «زعل» مازحًا.

وجاءتنا أخبار من الغرب تقول بأن جماعات من الترك ينسلون بين القرى هربًا من مطاردة «شوفيل» فأرسلنا إليهم على جناح السرعة مفرزات من قبيلة «نعيم» الحسنة السلاح التى انضمت إلينا حديثًا وكان الشوق إلى القتال لا يزال يعتمر فى صدور أبنائها.

وفيما نحن منصرفون إلى تسوية بعض الأمور وإعداد العدة لليوم الكبير بعد أن ناهز عدد جيشنا ستين ألفًا تعالت فى الأفق الذى يحجبنا عن درعا سحب من الدخان الكثيف ثم هبط علينا رسول لينبئ طلال بأن الألمان قد اضرموا النار فى الطائرات والمخازن واستعدوا لإخلاء المدينة. وحومت، فوقنا طائرة بريطانية تركت لنا رسالة تقول بأن قوات «بارو» تقترب من الرمثا، وبأن فرقتين تركيتين قويتين احداهما من أربعة آلاف رجل والثانية من الفين، تتقهقران نحونا من جهتى درعا ومزيريب.

تراءى لى أن هؤلاء الستة آلاف جندى هم كل ما تبقى من الجيش الرابع فى درعا ومن الجيش السابع الذى كان يقاوم «بارو» فى الجليل. فإذا تمكنا من تشتيتها نكون قد أنهينا مهمتنا فى هذه المنطقة. ولكن لم يكن فى إمكاننا إخلاء الشيخ سعد قبل التأكد من هذا الأمر. ولذلك تركنا القوة الكبرى تمر على أن يتولى خالد وفرسان الرولا وبعض الفلاحين إنهاكها والفتك بجناحيها وساقيها.

أما الفرقة الثانية المؤلفة من ألفى جندى فقررنا أن نجابهها بنصف قواتنا النظامية مدعومة بمدفعين من مدافع «بيزانى» إلا أن طلال ساوره قلق شديد على بلدته «طفس» التى قد تمر تلك الفرقة منها وتخربها، فطلب إلينا أن نعجل فى احتلال المرتفع جنوب البلدة لحمايتها. ولكن لسوء الحظ لم يكن فى مقدورى تنفيذ رغبته بالسرعة التى يريد نظرًا للإنهاك الذى أصيب به رجالنا. وكل ما استطعت فعله هو التقدم مع حرسى نحو طفس ومحاولة الاشتباك مع العدو وعرقلة تقدمه ريثما تصل قواتنا وتجهز عليه. وفى الطريق التقينا بفرسان من العرب، يقودون قطيعًا من الأسرى الميسلوبين نحو شيخ سعد

وكانوا يعاملونهم بقسوة ولم أشأ التدخل للتخفيف عنهم لأنهم كانوا أتراكًا من رجال شرطة درعا الذين طالما ظلموا واستبدوا وعاثوا فسادًا فى المنطقة.

وأخبرنا الأعراب بأن فرقة رماحه جمال باشا قد دخلت طفس. وما كدنا نطل على القرية حتى تأكدت لنا صحة ذلك من رؤية النيران والحرائق ومن سماع الطلقات النارية بين الفينة والأخرى. وما هى إلا لحظات حتى بدأت تتجه نحونا جماعات بائسة من الشيوخ والنساء والأطفال لتروى لنا الكثير عن فظائع المجتاحين الذين أحرقوا القرية وفتكوا بكل حى تمكنوا منه.

ومن مكان عال شاهدنا العدو يتجمع خلف البيوت ويتجه نحو قرية «الشيخ مسكين» فما إن أصبح خارج القرية حتى فتحنا عليه نيران مدافعنا. وما كدنا نفعل حتى انضم إلينا «نورى السعيد» و«بيزانى» و«عودة» على رأس سائر القوات. وكان طلال ثائرًا يرغى ويزيد لما فعله أولئك الأوباش فى أبناء قريته. وبسرعة فائقة أمطرنا العدو وابلاً من الرصاص والقنابل وشتتنا شمله. ثم ساد المكان جو من السكوت الرهيب.

تقدمنا بحذر فيما كان الدخان يتصاعد من القرية وبين الأعشاب وقعت أنظارنا على ما تقشعر له الأبدان هولاً: قتلى وجرحى من نساء ورجال وشيوخ وأطفال، خراب دمار، أهوال وفظائع كان أبشعها رؤية جسد امرأة ملقى على حائط حظيرة بشكل مرعب، الجذع إلى أعلى والرأس إلى أسفل وقد سمرت تلك المنكودة على حائط من الطين بحربة غائصة حتى النصاب بين فخذيها العاريتين. وكان يبدو من شكل بطنها أنها حبلى. لم تكن هذه المرأة وحدها هناك فقد وجدنا حولها جثث عشرين أخرى تفنن الأوغاد فى التفظيع بها.

لدى رؤية هذه الفظائع تكدرت أيما تكدر وأطلقت ضحكة وحشية كأنها ناقوس الهول يدق فى السكون العجيب على تلك الهضاب العالية. فصرخت: يا للرجال، ويا لهذا الهول أن أشجعكم عندى من يأتينى بأكبر عدد من جثث هؤلاء الأتراك الأوغاد. فهب الرجال كالأسود الغاضبة يشدون فى أثر العدو المتناثر فى المعارج والمسالك يصبون عليها جام غضبهم قصاصًا له على وحشيته.

أما طلال الذى رأت عيناه ما حل بأبناء بلده فقد كان يئن كالنمر الجريح ويرفض أن يكلم أحدًا منا. وبعد أن ألقى نظرة فيها كل الغضب والثورة والألم على الجوار كأنه يبحث عن المحرمين، أسدل كوفيته على وجهه وضغط على عنان فرسه فراحت تعدو به كالسهم المارق إلى السهل نحو العدو.

انحدر طلال عن قمة الجبل وتخطى قاعًا عميقًا فذهلنا أمام هذا الجنوب وكأننا قد صعقنا فى أمكنتنا وهو مندفع كالسهم. وجمد الكون من حولنا وصمتت الطبيعة فلم يعد يسمع غير وقع سنابك فرسه. وتوقف إطلاق الرصاص من الجانبين وراح الجميع ينظرون إلى طلال الذى ما كاد يقترب من العدو حتى صرخ صرخة الحرب:

«طلال.. طلال..» فتساقط عليه زخ من رصاص العدو مزق أحشائه فخر صريعًا مع فرسه.

تابع «عودة» هذه المأساة حانقًا مزمجرًا ثم قال: «رحمة الله عليه. سيدفعون غاليًا ثمن قتلك يا طلال.» وهز اللجام وتقدم بتؤدة نحو العدو فيما دفعنا الفلاحين إلى تقطيع جناحى الأتراك.

استيقظ أسد القتال فى نفس «عودة» ساعتئذ، فأصبح بحكم الواقع والقدر رئيسنا جميعًا وتمكن بمناورة بارعة أن يجر العدو إلى أرض رديئة ويقطع أوصاله إلى ثلاث قطع. تولينا أمر تلك القطع الواحدة بعد الأخرى وأفنيناها عن بكرة أبيها انتقامًا لمذبحة طفس ولمقتل طلال أحد قادتنا الشجعان.

التقيت أثناء عمليات التنظيف والتعقيب بخالد فطلبت منه أن يدع هذا الأمر للفلاحين ويأخذ بنى الرولا ويلحق بأخيه طرَّاد الذى ذهب مع طائفة من رجال قبيلة عنزة إلى مشارف درعا ليتحقق من صحة الإشاعة القائلة بأن العدو قد أخلى المدينة، وذلك خوفًا من أن يقع طرَّاد فى كمين هناك. وفى أقل من ساعة حشد خالد قوة كافية من الفرسان والهجانة وشد فى أثر أخيه لمؤازرته. ولما بلغ المكان وجد أن أخاه قد تمكن من ضرب الحامية واحتلال المحطة عند الغروب. فهرع الرجال إليها ينهبون كل ما وصلت إليه أيديهم. وعند منتصف نهار اليوم التالى وصل رسل طراد ينبئوننا بسقوط درعا

فتقدم ناصر وتبعناه جميعنا للانضمام إلى قواتنا الضاربة فى درعا فبلغناها عند شروق الشمس.

احتل ناصر دار الحكومة واهتم بتنظيم إدارة عسكرية لحفظ الأمن ومراقبة المواقع مراقبة دقيقة. وفى أقل من ساعة وضعنا معًا برنامجًا كاملاً للعمل يثبت أقدامنا فى درعا.

ولما سألت عن أخبار الجنرال «باور» قيل لى إن رجاله ينتشرون الآن للإحاطة بدرعا فسارعت إلى قمة البويب ومنها إلى حيث يتخذ باور استعداداته لمهاجمة درعا كى أبلغه نبأ سقوطها فى أيدينا وأوفّر عليه عناء المعركة.

بعد التحية والسلام أخبرت «باور» بواقع الحال، فدهش للخبر وقال:

- «على كل حال سأذهب إلى درعا كما تشير التعليمات المعطاة لى لأشكل قوة حرس للمحافظة على الأمن».

فأجبته بأن العرب قد سبقوه إلى ذلك ونظموا حكومة عسكرية فى المدينة. ولما تقدمنا من الآبار عرض أن يتولى رجاله حراسة الآلات الرافعة للمياه، فنزلت عند رغبته وقلت له بأن رجاله سيكونون موضع احترام العرب. فنظر إلىّ شزرًا وقال:

- «يظهر لى أنكم تتصرفون فى درعا كأنكم فى منازلكم ولذلك لن أتعرض لكم، وكل ما هنالك أننى سأتولى أمر المحطة».

فاشترطت عليه لذلك ألا يتعرض حراسها لشئوننا وإلا لا يعترضون على استخدامنا للخط.

لم يكن «باور» قد تلقى تعليمات بكيفية التعامل مع العرب. كان يظن بأنه سيدخل المدينة فاتحًا فإذا به يحلّ على أهليها ضيفًا. وكنت أنا قد عقدت العزم آنئذ على أن أضع الحق فى نصابه وأسعى جهدى إلى تثبيت أقدام العرب فى ديارهم الحرة المستقلة مفوتًا على أبناء بلدى الإنجليز فرصة المناورة والمداورة اعتقادًا منى بأن هذا المسلك سيكلفنا غاليًا فى المستقبل.

وفى النهاية أذعن «باور» للأمر الواقع وحلَّ مع قواته ضيفًا علينا فى درعا. وفى اليوم التالى وصل الشريف فيصل من الأزرق وكانت قد وصلته أخبار انتصاراتنا فى درعا. فهرعنا إلى استقباله رسميًا فى المحطة بين التهليل والتصفيق حيث قدمت له تقريرًا عاجلاً عن منجزاتنا.

●●●

(5)

بعد أن تزود «باور» بالمؤن والعلف بات عليه أن ينظم إلى «شوفيل» بالقرب من دمشق ليدخلا معًا. وقبل ذهابه طلب «باور» إلينا أن نشكل جناحه الأيمن فى تقدمنا معه، فهللت لهذا الطلب الذى يعنى بأن يتولى تلك المهمة جيش الحجاز بقيادة ناصر الذى ما انفك يطارد الأتراك ويقطع أوصالهم ويبدد قواهم ليلاً ونهارًا دون انقطاع. وبما أنه كان أمامى عمل كثير فقد قررت قضاء ليلة أخرى هادئة فى درعا بعد ذهاب القوات، وذلك لأن المحطة كانت خارج البلدة فى قلب السهل الخالى على أبواب الصحراء وقد شوش الجنود الهنود عليها وحدتها وعزلتها وصمتها. كما أن وجود أولئك الجنود الهنود هناك مع ضباط بريطانيين ومعاملة هؤلاء لأولئك معاملة فيها كل التمييز والتفريق والمفاضلة العنصرية قد أثار حفيظة العرب الذين لا يألفون مثل هذا التمييز.

حاولت بعد العشاء أن أنام بيد أن الفكر شرد بعيدًا. فقد مثل أمامنا الآن الفوز المؤكد والغرض الأسمى. كما قرأت فى مخيلتى ذكريات سنتين مملوءتين بالشقاء والأمجاد وترددت أسماء كثيرة، الرمّ الفخمة، البتراء الزاهرة، بترا النظيفة، الأزرق القصى البعيد، إلا أن الرجال تبدلوا. فقد صرعت يد المنون أفضلهم، ومازالت خُشونة الأحياء تصدمنى.

وقبل انبلاج الفجر أيقظت «استرلنغ» واثنين من معاونى وتوجهنا إلى دمشق على طريق كثيرة الأخاديد ثم عبر الحقول وصلنا إلى الخط الحديدى الفرنسى وسرنا فى محاذاته. وعند الظهيرة أبصرنا راية «باور» مرفوعة فوق معسكره الذى أقامه عند جدول هناك. فقصدت إليه واعلمته وسط دهشته المتزايدة بأننا نقصد دمشق وسنترك فى كل قرية كلمة لطليعة البريطانيين ترشدهم إلى مكان وجودنا وتذكر لهم المسافة التى بينهم وبين العدو.

لم يكن أمامنا ما يعوقنا عن الوصول إلى الكسوة حيث يجب أن نلتقى «بشوفيل» وحيث يدنو الخط الحديدى من الطريق الذى نسلكه. وعلى ذلك الخط بعينه كان يوجد ناصر ونورى الشعلان وعودة مع رجالهم يشدون فى أثر الأربعة الآلايات التركية التى ارشدتنا إلى وجودها إحدى طائرات الحلفاء فى الشيخ سعد قبل ثلاثة أيام.

ولدى اقترابنا من الأتراك تهادت إلى سمعنا أصوات الرصاص والقنابل من وراء تلة تفصلنا عن الخط الحديدى. وما هى إلا لحظات حتى ظهرت طلائع فوج تركى من حوالى الفى جندى يمشون متجمعين ولا يتوقفون إلا ليطلقوا بعض القنابل من مدافعهم الجبلية ثم يعاودون الهرب. فأسرعنا للحاق بهم على متن سيارتنا «الرولز» فانكفأ بعض الفرسان العرب عن العدو واتجهوا نحونا، وسرعان ما عرفنا منهم ناصر ونورى الشعلان ومعهما حوالى ستين من رجالهما ولما وصلا أخبرانا بأن ما نراه الآن هو البقية من السبعة آلاف تركى الذين قدّرتهم طائرتنا بأربعة آلاف. وما زال «عودة» يجهز عليهم ليفنيهم تمامًا وقد تحصّن مع رجاله عند جبل معين. واستطاع «عودة» فعلاً أن يكتب نهاية الجيش التركى الرابع فى ذلك المكان قبل أن يرخى ليل ذلك النهار سدوله.

أما نحن فقد تابعنا طريقنا إلى الكسوة التى بلغناها قبل منتصف الليل وقد غصت بالآلاف من الناس الذين قدموا إليها.

* * *

الآن انتهت حربنا. غير أننا لا نزال مع ذلك نقضى الليل فى الكسوة. لأن الأعراب أشاروا علينا بالحذر مما قد تخبئه لنا الطرقات غير الآمنة، ولأننا كنا لا نرغب فى أن نموت بلهاء وعلى أبواب دمشق محط آمالنا. كان الاستراليون يرون فى عملياتنا العسكرية نوعًا من السباق الذى تشكل دمشق نقطته النهائية. ولكننا فى الواقع كنا جميعنا قد أصبحنا تحت إمرة (اللنبى) والنصر لم يكن سوى ثمرة عبقريته وجهود (بارتولوميه) ووفقًا للمخطط التكتيكى الذى وضعناه، كان على الفرسان لاستراليين احتلال مشارف دمشق الشمالية والغربية بين الخطوط الحديدية قبل وصول القوات الحليفة إلى المدينة من جهة الجنوب. وأما نحن فى الغرب فقد كان علينا انتظار تقدم البريطانيين

البطء لأن (اللنبى) كان يرغب فى أن نكون حاضرين عند دخوله إلى المدينة لعلمه اليقين بما تمثله دمشق فى عيون العرب، وليقينه بأن وجود العرب إلى جانبه يوفر عليه الكثير من العناء مع الأهالى الذين التفوا بمجموعهم حول الشريف فيصل. وأعطانا (اللنبى) فرصة ليلة كاملة كى نقنع الدمشقيين باستقبال الجيش البريطانى كحليف لهم فى مدينتهم.

وكان هذا الطلب يعنى بلا ريب ثورة فى المسالك إن لم يكن فى الرأى. إلا أن لجنة فيصل فى دمشق كانت منذ عدة شهور على أتم الاستعداد لاستلام زمام الأمور فى المدينة فور انهيار الحكم التركى. وكان يكفينا الاتصال بتلك اللجنة لشرح نوايا الحلفاء لها وكل شىء يتم على ما يرام. فما إن أرخى الليل سدوله حتى أرسل ناصر عددًا من فرسان الرولا إلى دمشق فى محاولة للاتصال بعلى رضا رئيس لجنة فيصل هناك أو بشكرى باشا الأيوبى لإفهامها أن المساعدات ستصل إليهما مع الصباح إذا تمكنوا من تشكيل حكومة فى أثناء الليل. غير أن الحكومة فى الحقيقة كانت قد تشكلت منذ الساعة الرابعة بعد الظهر قبل أن نفكر نحن فى الأمر. لم يكن على رضا موجودًا فى دمشق آنذاك وقد عينه الأتراك أخيرًا قائدًا لجيشهم المتقهقر من الجليل أمام قوات (شوفيل). إلا أن شكرى باشا كان قد وجد عونًا غير منتظر له فى الأخوين الجزائريين محمد سعيد وعبد القادر، وبمساعدة الأنصار تمكن من رفع العلم العربى على مبنى البلدية قبل غروب الشمس فيما كانت الصفوف الأخيرة من الجنود الأتراك والألمان تخلى المدينة وتمر كسيفة أمام دار البلدية.

رغب ناصر فى دخول المدينة تحت جنح الظلام فأثنيته عن عزمه وأقنعته بأن من الأليق لمقامه دخولها فى الصباح. واكفينا بأن أرسلنا إليها أنصارنا بأربعة آلاف من رجالنا ثم حاولنا النوم وسط ذوى الانفجارات التى خلفها المنسحبون وراءهم وأيدينا على قلوبنا خوفًا من أن تكون المدينة العظيمة قد كتب لها أن تقدم رمادها ثمنًا لحريتها.

ومع انبلاج الفجر سارعنا بالسيارة إلى قمة الجبل الذى يشرف على ساحة دمشق ظانين أننا لن نرى سوى أنقاض وخرائب. غير أنه لم يكن هناك شىء مما خشيناه بل كانت

المدينة بين الخمائل الخضراء كعادتها دائمًا جوهرة متلألئة تداعبها أشعة الشمس فتقدمنا فى الطريق المسور فيما كان يسرع نحونا أحد الفرسان ويقدم لنا عنقودًا من العنب وهو يقول: (إن دمشق تحييكم وترحب بكم). وكان هذا الفارس مبعوث شكرى باشا إلينا.

كان ناصر منتحيًا عنا قليلاً فأطلعناه على الحوادث ليكون على علم بها ويدخل دمشق دخولا جديرًا بخمسين معركة نازل فيها العدو. وكان نورى الشعلان إلى جانبه فخبت فرسه الخبب الأخير وتوارى فى غيمة من الغبار فتركناه يتقدم بأبهة وملت مع «استرلنغ» إلى جدول قريب طلبًا لقسط من الراحة.

ولما ازفت ساعة اللحاق بناصر تقدمنا فى الشارع الذى أوصلها إلى سراى الحكومة على ضفاف بردى. وكان الشارع آنذاك غاصًا بالجموع المحتشدة كما كانت الجماهير تحتل الشرفات والسطوح والنوافذ والأبواب. بعضهم يذرفون دموع الفرح والبعض الآخر يحيون بوجل وينادوننا بأسمائنا دون أن يملوا النظر إلينا.

وفى سراى الحكومة كانت العالم قد تبدلت فغصت السلالم والمدارج والدهاليز والباحات بالناس يغنون ويهزجون ويرقصون ويتعانقون، واصطفت الجماهير لمرورنا نفسح لنا حتى بلغنا الردهة الداخلية حيث لقيت ناصرًا البهى الطلعة جالسًا وإلى جانبه نورى الشعلان يحيط بهما الأخوان الجزائريان محمد سعيد وعبد القادر عدوى القديم، فوقفت مشدوهًا متعجبًا لا أصدق ما يقع عليه نظرى فيما تقدم منى محمد سعيد صارخًا: «لقد ألفنا بالأمس أنا وأخى أحفاد عبدالقادر الجزائرى مع شكرى باشا الأيوبى سليل صلاح الدين حكومة وطنية ونادينا بالحسين ملكًا على العرب على مسمع ومرأى من الأتراك والألمان المدحورين».

التفت إلى شكرى باشا الأيوبى استوضحه الخبر فأسر إلى بأن الأخوين الجزائريين عضدا الأتراك حتى آخر لحظة. ولما قطعا الأمل من بقائهما فى دمشق فرضا نفسيهما بقوة السلاح على لجنة فيصل المجتمعة اجتماعًا سريًا وتوليا مراقبتها بعنف يعضدهما رجالهما المسلحون.

وقد كان الجزائريان مشهورين بتعصبهما الدينى وبقصر نظرهما وتصلب رأيهما، لذلك تطلعت إلى ناصر أريد أن أدفعه لوضع اللجام فورًا لمثل هذه الوقاحة، وإذ بحادث طارئ يلهينى عنهما، وقد زمجر الجمهور وتدافع بالمناكب وانشق القوم إلى شطرين وانقشع الازدحام عن فتحة ظهر فيها (عودة أبو تايه) و(سلطان الأطرش) عميد الدروز يتشاجران ويزمجران واتباعهما من حولهما يتراكضون من كل ناحية فأسرعت لحسم الخلاف مستعينًا لذلك بمحمد الضغلان ووفقت إلى وضع حد لنزاعهما.

ولما عادت الأمور إلى نصابها فتشت عن ناصر وعبد القادر للعمل على تنظيم الحكومة الجديدة فلم أجدهما بل قيل لى بإنهما قد توجها إلى بيت عبد القادر لتناول شىء من المرطبات. سررت لهذا النبأ وانصرفت إلى ما هو أهم وأجدى. حاولت إظهار شكرى باشا على أنه حاكم فعلى للمدينة يستمد قوته من قوتنا ويمثل الشريف فيصل أصدق تمثيل. وكان يكفى لذلك أن نظهر معًا على الجماهير. ففعلنا وركبنا سيارتنا الزرقاء فما كدنا نخرج من السراى حتى طغت علينا الجماهير تحيينا وترحب بنا. وقد خرجت دمشق عن بكرة أبيها فى ذلك اليوم لتعبر عن فرحتها بزوال كابوس الطغيان والاحتلال عنها. ولما وصلنا فى طوافنا إلى الناحية الجنوبية قيل لى إن (شوفيل) قد وصل إلى طرف المدينة فقصدته وطلبت إليه البقاء خارج الأسوار مدة يومين ريثما تهدأ حالة المدينة وعندها أقصد إلى مكتبه للبحث فى حاجاته وحاجتنا معًا. وتعهدت له بأن أتحمل مسؤولية الأمن العام فى غضون ذلك.

* * *

عدنا بصعوبة إلى دار الحكومة لتصفية قضية عبد القادر الجزائرى ولكننى لم أجده، فأرسلت فى طلبه مع أخيه. غير أن الجواب جاء بأنهما لا يزالان نائمين. أفهمت الرسول مقاصدى دون مواربة. وانصرف وما هى إلا برهة وجيزة حتى أطل علينا حيث كنا نتناول شيئًا من الطعام أحد أقارب الأخوين الجزائريين مهرولاً ليخبرنا بأنهما قادمان إلينا. ومن ارتباكه تنبأت أنه يكذب. إلا أننى تحاملت على نفسى وتظاهرت بتصديق ما يقول ثم اردفت:

«إذا مضى نصف ساعة دون أن يحضرا فسأرسل جنودًا بريطانيين للبحث عنهما واعتقالهما».

فما كاد الرجل يسمع هذا الكلام حتى انصرف عائدًا إليهما كالبرق، بينما سألنى نورى الشعلان عن حقيقة ما أنوى عمله.

قلت عندئذ:

- «إنى أسقط عبد القادر ومحمد سعيد وأقيم شكرى موقتًا ريثما يصل فيصل».

قلت ذلك بلطف لأننى كنت آنف من أن أجرح شعور ناصر، ولأننى كنت لا أملك قوة السلاح فى حالة حصول مقاومة. سألنى نورى الشعلان متعجبًا:

- ولكن ألا يأتى البريطانيون لنصرتك؟

فأجبته بعد إطراءة قصيرة:

- حتمًا سيتدخلون، ولكنهم للأسف لن يخرجوا من المدينة بعد ذلك.

وبعد تفكير أردف نورى الشعلان قائلاً:

- إن رجالا الرولا فى خدمتك فيما لو قررت أن تفعل شيئًا. وبسرعة فائقة إذا شئت أستطيع أن أحشدهم ليكونوا تحت إمرتك.

وخرج الشيخ فورًا ليجمع قبيلته لنصرتى. وبعد قليل قدم الجزائريان متبوعين بحرسهما الخاص والشرر يتطاير من عيونهما، إلا أنهما التقيا عند مرورهما برجال نورى الشعلان على أتم الاستعداد لتلقينهما الدرس الذى يستحقان، كما صادفا قوات نورى السعيد النظامية تحتل الحديقة، وحرسى الخاص داخل السراى، وكنت أنا أتمشى فى الردهة المعترضة غير مبال فتأكد لهما بأننا قد ربحنا المعركة سلفًا، ولكن الاجتماع كان مع ذلك عاصفًا.

بصفتى مندوبًا لفيصل فاجأت الحاضرين بإعلان عزل حكومة دمشق المحلية التى شكلها الجزائريان فى الأمس وبتعيين شكرى باشا الأيوبى حاكمًا عسكريًا ونورى السعيد قائدًا عامًا للقوات المسلحة وعزمى نائبًا له وجميل مديرًا للأمن العام. نزل هذا الإعلان

نزول الصاعقة على رأس الأخوين الجزائريين فهب محمد سعيد يشتمنى بأننى مسيحى إنجليزى ويدعو ناصر لنصرته على وهو ابن عنصره ودينه وأوقعه فى مأزق حرج بينما هب عبد القادر شاهرًا حنجرًا ومنقضًا على والشتائم والسباب تنهمر كالسيل من فمه المرتجف من حدة الغضب، إلا أن (عودة) الصديق القديم سارع إلى الانقضاض عليه وحال دون وصوله ثم تدخل نورى الشعلان فى الأمر وأعلن أن قبيلة الرولا القوية تقف إلى جانبى. ولذلك لم يبق أمام الشقيقين سوى الانسحاب مغلوبين على أمرهما. ورغم اقتناعى بإمكانية القبض عليهما فى الحال والفتك بهما فلم أرغب فى اللجوء إلى ذلك حتى لا يتخذ الغرب فى المستقبل تعرضى هذا مثلاً يحتذى به فى تنفيذ سياستهم.

وانصرفنا عن ذلك إلى العمل. وكان هدفنا إقامة حكومة عربية ثابتة على قواعد متينة ووطنية تصلح لأن تستخدم لأهداف سلمية حماسة الثورة وتجردها. وكان علينا فى ذلك الظرف أن نحافظ ما أمكن على الروح الإسلامية العريقة ونأخذ بعين الاعتبار أن ٩٩ بالمائة من الشعب الذى ستستند إليه دعائم الحكم الجديد يدينون بالولاء الصادق لتلك الروح.

ومما لا مجال لإنكاره أن الثوار والمظفرين منهم بنوع خاص لا يحسنون الولاء كما لا يحسنون الإدارة والحكم. ولذلك رأى فيصل نفسه مضطرًا لأن يبعد عنه رفاق السلاح ويقرب إليه تلك العناصر التى أظهرت كفاءة ودراية أثناء خدمتها فى ظل الحكم التركى. لم يكن ناصر متعمقًا كفاية فى منعرجات علم السياسة ليدرك ذلك. أما نورى السعيد ونورى الشعلان فقد كانا على العكس يجيدان الألاعيب السياسية. وهكذا انصرف الاثنان بحماسة ودهاء إلى تشكيل هيئة أركان حرب على جناح السرعة. ثم إلى ملء المراكز المتعددة فى الخدمات والإدارات التى لابد منها لتسيير عجلة الحكم فى كل بلد.

ونجحت المهمة، ونمنا فى تلك الليلة قريرى العين وقد تحقق للعرب بعد ثورة عارمة قيام حكومة وطنية فى دمشق عاصمتهم التاريخية.

* * *

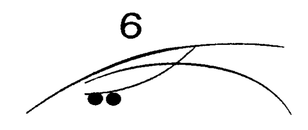
فى صبـاح اليوم التـالى جـاء لإيقـاظى مـواطن يرتجـف من الخـوف. وأبلغنى بـأن عـبد القادر قد أعلن الثورة على الحكم الذى أقمناه فى الأمس. فاستدعيت نورى السعيد على جناح السرعة موقنًا بأن هذا الجزائرى الأحمق إنما يحفر قبره بيده. وكان هذا قد حشد رجاله وخطب فيهم معلنًا بأن رجال الحكم ليسوا سوى صنائع بريطانية ودعا إلى القضاء على حكمهم فى المهد خدمة للدين وللخلافة. وبما أن أنصـاره كـانوا متـعاهـدين على الطاعة دون مناقشة فقد اعتبروا كلامه منزلاً وهبوا لمحاربتنا.

والدروز الذين كنت فى الأمس قد رفضت إغداق المكافآت عليهم لخدمات متأخرة أدوها لنا، تبع عدد منهم عبد القادر، ليس حبًا به، أو غيره على الدين والخلافة، أو ولاء للأتراك المقهورين، بل حب بالسلب والنهب طالما أن الفرصة مواتية. ويثبت صحة ذلك أنهم قد انقضوا على الحوانيت المفتوحة لسلب ما فيها عوضًا عن التوجه إلينا ومحاربتنا.

فى هذه الأثناء كـان نورى السعيد قد وزع قواتنا على النقاط الحساسة فى المدينة وبدأت عملية تمشيط الشوارع وحصر العصاة. ولم تصل الشمس إلى كبد السماء إلا وكل شىء قد انتهى. الدروز تركوا كل شىء سلبوه فى الشوارع ولاذوا بالفرار، محمد سعيد وقع فى قبضة قواتنا واقتيد إلى سجن دار البلدية وعبدالقادر تخلى عن أنصاره ولجأ إلى الريف. وأسفرت عمليات القمع السريعة عن مقتل خمسة أشخاص وجرح عشرة آخرين. وقد أبرقت للجنرال اللنبى مطمئنًا بعد الأخبار المضخمة التى نسجتها مخيلات الصحفيين عن الأحداث فى ذلك الصباح.

●●●

6



فى صباح اليوم التالى كانت دمشق هادئة. المحلات والحوانيت مفتوحة، التجار فى متاجرهم، حركة المرور ناشطة والحافلات الكهربائية عادت إلى سيرها الطبيعى، كما بدأت أحمال الخضار والفواكه والحبوب ترد بكثرة إلى الأسواق.

هذا وقد بدأت فرقة التنظيفات فى عملية غسل الشوارع وتنظيفها بعد الذى تراكم فيها خلال سنوات الحرب الأربع. كما أعيد وصل خطوط الهاتف مع فلسطين وبيروت التى استولت عليها القوات العربية أثناء الليل. وقد كنت منذ أيام الوجة قد حذرت العرب من ارتكاب مثل هذا الخطأ ناصحًا إياهم بأن يتركوا لبنان للفرنسيين تملقًا لهم. والاستعاضة عنه بطرابس، لأن طرابس كمرفأ هى أفضل من بيروت بكثير. ويمكن لإنجلترا أن تقر لهم ذلك فى ميثاق السلام. ولذلك غضبت لتصرفهم الخاطئ هذا. ولكننى فى الوقت نفسه كنت مغتبطًا لكونهم قد أصبحوا كبارًا لا يستمعون إلى نصائحى والعمل بآرائى.

قمت فى ذكل النهار بجولة فى المدينة وقصدت المستشفى فى محاولة لتنظيم الأمور فيه، ولما عدت إلى الفندق وجدته محاطًا بجماهير غفيرة وأمامه سيارة (رولز) طحينية اللون سرعان ما تعرفت بأنها سيارة الجنرال اللنبى. فأسرعت إلى الداخل لأجده فى انتظارى مع كلايتون وكورنواليس وغيرهم. وبكلمات قليلة، أعلن اللنبى موافقته على ما اتخذته من إجراءات فى درعا ودمشق وأقرنى على تعيين شكرى باشا الأيوبى حاكمًا عسكريًا لدمشق تحت إمرة فيصل القائد العام للقوات العربية. ثم حدد الدائرة العربية، ودائرة نفوذ (شوفيل)، كما وافق على أن يأخذ على عاتقه مهمة تسيير سكة الحديد

وإدارة المستشفى. وفى لحظات معدودات ذللت كل العقبات التى كانت تقلقنى فقرت عينى أخيرًا بالنجاح الذى أحرزته رغم كل الصعوبات.

وفيما نحن نتجاذب أطراف الحديث قيل لنا إن القطار الذى يقل فيصل من درعا قد وصل إلى المحطة، فكلفنا «يوينع» بالذهاب إليه واستقباله باسمنا فى المحطة. وبعد برهة من الوقت ووسط هتافات الجماهير المدوية وصل فيصل ليجتمع بالجنرال اللنبى لأول مرة وكلاهم افى قمة النصر والمجد.

وكانت مهمتى فى هذا الاجتماع أن أقدم كليهما للآخر وأتولى عملية الترجمة بينهما. وبعد ذهاب فيصل التمست من اللنبى السماح لى بالعودة إلى بلادى. فأجابنى مصرًا بالرفض. ولكننى نجحت فى إقناعه بأن الأمور تسير أحسن بدونى، وسيشعر العرب حقيقة بأنهم أصبحوا أحرارًا مستقلين، فوافق على ذهابى. وعندئذ شعرت بالحزن يتملكنى.

■ ■ ■




محتويات